

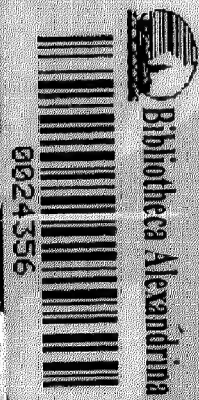
دكتورة نجمات أحمد فؤاد

شعراء ثلاثة

إبراهيم ناجي • أبو القاسم الشابي • الأختل الصغير



المهنة المصرية للنشر والكتاب



92

تصميم الغلاف : حسين أبو زيد

دكتورة نعمات أحمد فؤاد

شعراء ثلاثة

- إبراهيم ناجي
- أبو القاسم الشابي
- الأختل الصغير



الهيئة العربية العامة للكتاب

١٩٨٧

مقدمة

فى هذا العصر الذى تتصارع فيه الحكومات والشعوب بل أبناء الشعب الواحد فى وطنهم الواحد .

فى هذا العصر الذى يلهث فيه الكل حتى الأغنياء وراء المال والمادة بالوانها . . فى هذا العصر الذى تتهدد الانسان ، فيه ، الحروب الباردة والساخنة ، القنابل الذرية والنووية . .

فى هذا العصر الذى يقاسيه الانسان اذ يتهدده الجوع والجفاف والأمراض الوبيلة التى لم يتوصل علماءه بعد ، الى علاج كامل حاسم لها لأن الأقوياء يصرفون على حرب الكواكب ، الوقت . . والمال . . والاهتمام .

فى هذا العصر الذى أصبح فيه ، الحب ، رياء . . . والكلمة رثاء ، والنعيق غناء . .

فى هذا العصر الذى أصبحت فيه الأعصاب مشدودة والنفوس مكسودة ، وأصبح فيه العيش كربا ، والسلام الظاهر حربا . . .

فى هذا الوقت الثقيل الوطأة ، لا نجاة للانسان الا بالعودة الى :

الدين و الفن

انى أجل العلم بما خفف من عذابات الأمراض بانجازات بارعة فى الطب ، وانجازات باتعة فى الصناعة ولكنه حين أعطى الانسان أزرارا كبيرة تسهل حياته المادية ، فشل فى اعطائه السعادة .

العلم انجازاته محسوبة رقمية ولكن الدين أعمق ، والفن أرحب .

فالدين ارواء لظماً الروح ، وفيه اصفاء على الكيان ، واعلاء للنفس ...
وفي الفن « تحضير » للحياة ، وتنضير للعيش يجعله يستحق أن يعاش .

الدين يطيب لروح الانسان ، والفن يهدمها ويمسح عليها فتتوازن
بعد معاناة ومكابدة .

لهذا طال شوق الانسان المحروب المكروب الى الغناء وهنا يشتد
او يشتعل الحنين ، بعد الهجير ، الى راحة الواحة حيث الماء سائغ والظل
فيمنان ... وينفض انسان العصر رهقه بعد أن سافر قلبه طويلاً في
الزمان والمكان فاذا الكل باطل وقبض الريح .

ويعود من جديده الى الشعر الرومانسي ، روعته وطلاوته .. وحلاه
ورؤاه ... ويقرؤه الانسان وكأنه يغنى أشواقه هو ...

وما أعذب الأشواق .

وما أكثر العشاق .

ودراسات الشعراء الثلاثة التي يضمها هذا الكتاب ، أصحابها
يحتلون مكاناً متميزاً في خريطة الأدب العربي ويتمتعون (بالحضور)
على ساحته العريضة بالشعر مقروءاً وملحناً ومرنماً ...

فناجي صاحب الأطلال قمته وقمة أم كلثوم وكفى .

وبشارة الحورى قد شاغل الأوتار بقصيدته (الصبا والجمال ملك
يديك) أما أبو القاسم الشابي فشاعر المجد وشاعر الوجد .. أما المجد
فقد ناداه ببيته الدائع :

إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر

وأما الوجد ، فقد ناغاه بشعره الرائع في قصيدته (صلوات في
هيكल الحب) .

أنت أنشودة الأناشيد غنا
ك الله الغناء ، رب القصيد

أنت قدسي ومعبدى وصباحي
وربى وتوسوتى وخودى

والخالدون كما يقول شوقي أربعة :

شاعر سار بيته .. ومصور ضحك زيته .. ومثال نطق حجره ..
وموسيقى بكى وتره ..

وقد أنطق الشابي ، شاعرا ، الحجر .. وأبكى الوتر فاعجب
وأطرب ..

والدراسات كما كتبتها أول مرة مع أن عندي ما يضاف ويضاف ولكني
أريد أن أحتفظ ببكارة الاحساس .. احساسي عند القراءة الأولى والكتابة
الأولى ..

سكون

لنستمع الى الغناء من :

الخوري

الشابي

ناجي

د . نعمات أحمد فؤاد

- إبراهيم ناجي

مقدمة

لقد كتب الكاتبون قبلي عن الدكتور ابراهيم ناجي الشاعر أو الروح
الحساسة الرفافة المعبرة ٠٠٠ واليوم سوف أضيف الى رأيهم الجميل فيه ،
رأى النقد ٠٠٠

لقد شكى الطيب الشاعر من ظواهر غريبة بدت في الجو الأدبي
أولها : إبهام في القيم ، وغموض في المقاييس ، وثانيها : وهو المهم اختفاء
النقد بالذات من عالم الأدب ٠٠٠

هناك انتاج أدبي ضخم بدون شك ، ولكن هذا « الترف من الفوضى »
على حده تعبير جوفري ويست ، أو بعبارة أخرى هذه البضائع المكسدة
في أسواق الأدب ، بلا ضابط ولا صيرفي يبين صحيحها من زائفها - يدل
على أننا في عصر متسم بخاصية من عدم المبالاة ، وعدم الالتحاح في إيجاد
روابط ، وضوابط (١) .

هذه الصرخة التي نلت عن شفتي الشاعر تحفزني الى نقد شعره
استجابة لدعوته وتلبية لندائه ٠٠٠ تحفزني الى نقد شعره ذلك النقد الذي
وصفه بأنه « وعى الفن » ٠٠٠ ان « ناجي » يرى أن (الفن يبلور القيم
الانسانية ، أما النقد فيجلو هذه القيم المتبلورة للأنظار) (٢) .

على ضوء هذا التعريف الصادق للنقد ، سأدضي باذن من الله وتوفيق ،
في نقد شعر ناجي الذي حسب أن الناس سيتنسبوا ٠٠٠ وأفرغه هذا
الحاظر عندما مرض وشعر أنه ينتهي فقال :

(١) كتاب رسالة الحياة للدكتور ناجي ص ٧٩ - ٨٠ .

(٢) المرجع نفسه ص ٨٣ .

قف تأمل مغرب العمر واخفاق الشعاع
وابك جيسار الليالى هذه طول الصراع
واضياع الحزن والدمع على العمر المضاع
وهتاف القلب بالشكوى على غير انتفاع
ما يهم الناس من نجم على وشك الزماع
غاب من بعد طلوع وخبأ بعد التماع (١)

لقد كان ناجي نجما خبا بعد التماع ، ولكن اسمه عندنا لم يخب له
خسياه ، ولعل هذه الصفحات تطمئنه في مشواه على اهتمام الناس به وحفظهم
لشرايته وذكره ، مادام الحزن لا يجدي ، والدمع لا يغنى شيئا عن العمر
المضاع . . .

لمحة من حياة

حقول خضر ، ومروج فيخ ، تنبسط على مدى الطرف غناء مثماوية ،
وعلى جانبيها قامت الأشجار ، كأنها متجردة لحراسة النعمة التي أغدقها
الله في تلك البقعة بغير حساب ...

وفي وسط تلك الجنة بنوارها وأشجارها وغدرانها وطيورها
الغريدة ، قام بيت ، عليه من النعمة جمال ضاف ، وظل فينان . وكان
تلك المروج لم تشبع الحاسة الفنية في أهله ، فأحاطوها بحديقة نسقوها
على هواهم ، ووشوها بدوقهم ، لتزيد جمال المكان كله اشراقا ، وخضرته
نضرة ، ونعيمه راحة ، وترفه فنا وعطرا وسعرا ...

وكان في الحديقة ساقية ثنن ، لأنها تروى هذا الجمال كله وتنمية ،
وبها حاجة الى ارواء .. مسكينة تلك الساقية تمتلئ بالماء لتسكب ثم
لا يبقى في جوفها الحيران شيء ... ما أقرب حالها وأشبه حظها بالعيس
التي يقتلها الظأ والماء على ظهرها محمول .. ان الأشياء كالناس : فيها
السعيد وفيها الشقي ... وفيها الحيران وفيها من يزيد على حاجته الرى .

ولكن ساقية الحديقة لا تدرك هذا ، فهي ثنن أنينا متصلا يضيع في
زحمة النهار وصخبه ، ويتميز في الليل الساجي ، حتى ليخيل اليك أنه
ينبعث لساعته رتيبا حزينا شجيا ... ولما كان الأسى يبعث الأسى فان
ساقية الحقل كانت من وراء جدران الحديقة تتجاوب مع زميلتها بمثل أنينها
وشكواها ، هنا يفضفضان اذ يظنان أنهما في الليل حيث لا يراهما أحد ،
ولا يسمعهما أحد ...

في ذلك البيت بجوه الفاغم ، وأنسه الناعم ، ولد ابراهيم ناجي ،
فزاد أهل شبرا واحدا ، وزاد أهل مصر زيادة لا تحصى ، لأن الوليد

شاعر ٠٠٠ وما بالقليل فى الأمة أن يولده فيها شاعر ، فقد انتصر الألمان على الفرنسيين فى الحرب السبعينية ، فهان نصرهم فى عين أحد الفرنسيين الذى تهاون قائلاً : « وما قيمة هذا النصر ماداهوا ليس عندهم شاعر كفيكتور هوغو يغنى نصرهم ويخلده ؟ » •

ودرج الوليد مع الأيام وبدأ يتعرف على مافى البيت حوله ٠٠٠ ماهذا ؟ انها مكتبة ضخمة ، صنفها والده بنفسه ، وقد قرأها كتاباً كتاباً .

ووعى الغلام هذا الجواب حتى اذا تعلم القراءة هرول الى المكتبة ٠٠٠ يقرأ ٠٠٠ انه الآن يفتح كتاباً هو قصة (عذراء الهند) لمؤلفها أحمد أفندى شوقى بالعية السنية ٠٠ ها هو ذا الصبى تستغرقه القصة واذا بوقع أقدام فى الخارج ، ثم يدخل والده عليه ٠٠ ويرى الوالد القراء ابنه الصغير على تلك الهيئة فتلمع عيناه ويحمد مولاه ، ويربت على الغلام ويتعرف على الكتاب الذى فى يده ، ثم يأخذ مكانه الى جواره ليحدثه عن قصة عذراء الهند ، ويتطرق الحديث بالطبع الى المؤلف أحمد أفندى شوقى ، فيقول الوالد : « هذا يا ابنى شاب ستسمع عنه كثيراً فتذكر ما أقوله لك » ، ثم يضيف : « انه فلتة من فلتات الطبيعة » (١)

أرايت ؟ كيف يفتح الآباء الأبناء ، وكيف يوحون اليهم ؟

وذاث يوم صحب الوالد ابنه الى طنطا فى مولد السيد البدوى ، فمرا بكتبى رأى فى المولد فرصة ذهبية لتصريف ما عنده ٠٠٠ ووقف الأب يتفقد النفيس المجهول ، فعثر بين الكتب المبدولة بالعرض الغافل على ديوان حافظ ابراهيم ، فالتقطه ونقد الكتبى الثمن ، ثم التفت الى ابراهيم وقال له : « اقرأ هذا أيضاً ولو أن الفرق بينه وبين شوقى كبير - كبير جيداً ٠٠٠ » (٢) •

وفى يوم آخر اصطحب الوالد ابنه الموهوب لزيارة قريب قاطن بحى الامام الحسين رضى الله عنه - وفى عودتهما اشترى له ديوان الشريف الرضى ، وأقبل عليه يقول فى صوت النجى : (هذا رجل عظيم وشعره شعر رجال ، عليك بدراسته جيداً) (٣) •

ومضيا فى طريقهما حتى مكتبة أمين هندية ، فأشار الأب الى المكتبة وعرف ابنه بها ، وقال له : « سأشترى لك ديوان خليل مطران ليكون عندك فكرة كاملة عن شعراء مصر » (٤) • ثم تمهل قليلاً وقال : (أما المتنبى فسنقرؤه معا ٠٠٠) •

أتدري كم كان عمر الغلام في ذلك الحين ؟ تخيل ! ان طفلنا كان يبلغ من سنيه اثني عشر عاما تقريبا ٠٠٠ مستحيل ، لماذا ؟ ان الموهوبين كالأهله لا تحتاج السنين الطويلة لتستدير ، بل يكفي بضعة عشر يوما ليصير الواحد منها بدرا كاملا ٠٠٠

وحبنا الموهبة يفتحها التلقين المبصر ، ويزكيها التبصير الواعي المدرك ، ويصقلها التعهد الفنان ٠٠٠

وهكذا كان والده ابراهيم ٠٠ كان قراء يعرف ماذا يقرأ وكيف يقرأ ، كما يعرف قيمة الوقت وكيف ينفقه وكيف يضمن به على التضييع ٠٠٠

كان بيته منتدي له ولأولاده يجلس بينهم ، ثم تتخلق حوله من فلذاته الندوة ٠٠٠ هنا جو القلب ، وهنا أكرم الحب ، وهنا يعذب السمر ويطيب الحديث ٠٠٠ وعلى مثل هذه الجلسات يطل الله من عل ليباركها ويضفي عليها السلام والطمأنينة ٠٠٠ ما أهنأ وما أصفى ٠٠٠

نعم ما أهنأ وما أصفى ، ولكن التاريخ يحلو له أن ينزل ضيفا على بيوت صانعيه ، ولا يتحرج من مشاركتهم في شئونهم الخاصة . وحجته أنهم ملكه أكثر مما هم ملك أسرهم أو حتى ملك أنفسهم . وهكذا يأخذ التاريخ مكانه في تلك الندوة الى جوار الطفل ناجي ليسجل ٠٠٠

على كل حال كان الأب مشغولا عن هذا كله ٠٠ ان همه أن يقرأ لأولاده روائع الأدب من الشرق والغرب ... ويقراء حيناً ويفسر آناً ويتحدث أحيانا ويكركر في (الشيشة) آونة أخرى ٠٠٠ ويظل في مجلسه حتى يحين ليل ويهوم على الأحفان الصغيرة النعاس ، فيفرض الوالد المجلس قبل أن تستسلم للنوم ٠٠٠

ويأوى الأطفال الى سرهم لينعموا بأحلام الطفولة السعيدة ، ويأوى معهم أخوهم ابراهيم ولكن ٠٠٠ ولكنه لا ينام ٠٠٠ انه مسحور بما سمع ، وفي نفسه بقية شوق ٠٠٠ ان الحظ حفي به . فقد جعل نصيبه الغرفة المجاورة لغرفة والده ٠٠ ان في مقدوره الآن أن يتابع الاصغاء الى الصوت الهاديء الجميل الذي يعرف كيف يصور ببدع ساحر ويلون بريشة فنان ما عنده من قنى الفن وطرائف الأدب .

وهكذا يظل صاحبنا الصغير ساهرا لا يغمض له جفن ، يسمع من وراء الجدران ما يقصه والده على أمه مما يكون قد قرأه بنهار ٠٠٠ ويود ابراهيم لو استرسل الوالد السمر يتحدث كشهر زاد الى الصباح . ولكنه

بعد فترة قد تطول أو تقصر يسمع مفتاح النور وهو يمن بنعمته ، فاذا
الغرفة ظلام وسكون فيفهم ابراهيم أنها تنهياً للنوم

وعلى هذه الطريقة ، طريقة الانتساب الى الغرفة المجاورة ، سمع
شاعرنا وهو طفل (أوليفر تويست) كما سمع كل قصص شلوك هولمز ،
وأغلب قصص رايدر هاجارد . . . وكثيرا سواها .

تفتح الشاعر الموعود للأدب العربى بعد أن تفجر نبعة أمامه ، فاقبل
عليه يعب منه عللا بعد نهل ، فلا هو يروى ولا هو يسلمو الرشيف . . .

واطمان الوالد وقرت عينه ورأى من كمال الصواب أن ينتجه به الى
ناحية أخرى . . . الى الأدب الغربى وهو زلال سائق يلد الشاربين . . .

وفكر الوالد مليا بماذا يبدأ ؟ ولم يلبث أن اختار الكاتب الانسان
(ديكنز) وأخذ الوالد يقرأ ديكنز ويعلق عليه ويشرحه . . والولد ينظر
وقد اتسعت حديقته من العجب والاعجاب معا . . . انه القصص الذى
يسمع به من الغرفة المجاورة ويشتمى أن يسترسل والده فيه . . .

وفى يوم من أيام الشتاء خرجا معا . . . ثم حدث أن جادتهم السماء
بالقطر ثم انهمر الغيث ، فأطل الوالد ابنه بمظلته ، وسار الاثنان تحت
مظلة واحدة كما تجاورا فى الحياة غصنين فى دوحه واحدة ، ودلفا الى
مكتبة بمصر القديمة

أتعرف هذا الكتاب الذى يحمله الوالد . . . دا . . . فيد . . . مه ! انه
دافيد كوبر فيلد . . . احدى روائع ديكنز صديقه الجديده . ليت ابراهيم
يلتفت اليها ليرى . . .

✽ ✽ ✽

عندى لك مفاجأة أخرى . . . لقد دفع الرجل الشمن وحمل الكتاب
ليمضى به والتفت الى ابنه فاذا به مشغول بقراءة ورقة فى يده . . . وحلا
للوالد أن يعرف ما فيها . . . أتدرى ما فيها . . . أتدرى ماذا ؟ لقد كانت
قصيده غزل ! نظمها هذا الشويعر الصغير . . . أتصدق ؟ على كل حال
لقد ضبطه أبوه متلبسا بها . . . وأخذ الرجل الأديب يقرأ وهو يخفى
ابتساما يصير على التبدى والافشاء . . . ووشى بغبطة الرجل افترار
ثغره ، ونم على سروره طلاقة وجهه ، ولكنه تكلف الجهد على عادة الآباء وقال
له : « هذا أكبر من سنك » . . . ولكن هذه العبارة مدح سافر ، قد يجرى
غرور الحداثة فى ابراهيم بالتمادى فى غزل حين لا يريه الأب هذا . . .
ماذا يفعل لقد أردف قائلا : (لاتمعن فى الغزل ، بل أكثر من شعر الحماسة
والوطنية)

✽ ✽ ✽

ان ابراهيم الآن لا يفكر فى شعر الغزل أو شعر الحماسة والوطنية . .
لقد حبس نفسه فى غرفته أياما طويلة . ومع دفيد كوبر فيلد والقاموس
وأقبل على القصة يقرأ فى نهم على الرغم من اعتراض سيل من الألفاظ
الصعبة عليه ، ولكن ما عمل القاموس اذن ؟ كان يكشف عن كل لفظة
تنبهم عليه حتى لا يفوته شئ من المعنى وظل على هذا المنوال حتى التهم
القصة كلها التهاما . . . التهجها بعينه ولسانه وعقله . . . كان الثلاثة
فى سباق . . . العين تحرق ، واللسان يرتل ، والعقل يعى ويختزن
ويتمثل . . .

وحفظ ابراهيم قصة دفيد كوبر فيلد وحفظ بحفظها محصولا من
كلمات اللغة الانجليزية كان رصيده على الأيام ، حتى استطاع أن ينظم
الشعر بالانجليزية قبل العربية . . وحتى استطاع أن يشترك فى مسابقة
شعرية ، كانت جائزتها حدس . . . ما هى الجائزة ؟ . . . وحده أيضا
من الفائز . . .

الفائز ابراهيم ناجى ! مرحى . . . مرحى . . . بقى عليك أن تتخيل
معى الجائزة ؟ لا عليك . . . سأثبتك بها . . . انها مؤلفات . . . دكنز . .
ومن بينها بالطبع القصة المرموقة دفيد كوبر فيلد !

دافيد كوبر فيلد القصة التى كتب عنها فى حرارة وإيمان . .

بعد هذا :

الذى انطبع فى ذهنى هو دافيد كوبر فيلد . لا أعرف السر فى
ذلك ، ولكنى أعتقد الآن أن قوة هذه القصة فى أنها سيرة صادقة لديكنز
بالذات ، عبر فيها أصدق التعبير عن انفعالاته ، وشرح فيها الحب العفيف
الراقى أوفى شرح ، وكنت أنا اذ ذاك فى بدء محاولتى للشعر (١) ، فلم
يكن عجيبا أن ينتعش ديكنز فى خيالى بسمو روحه ونقاء قلبه ، مع أنه لم
يكن شاعرا ، ولكن الذى كتبه نثرًا هو فى الحق أرفع وأغلى من شعر ألفوف
من الشعراء . .

وماذا فى قصة دافيد كوبر فيلد ؟ انها تذكرنى - أو على الأقل تجرى
فى خيالى - مع عودة الروح لتوفيق الحكيم . . . لاشئ غير الصديق والواقع
. . . قصة غرام قد تنتهى للاشئ ولكنها فى الحياة كل شئ . . .

قصة غرام ديكنز بالفتاة (دورا) دورا التى كان لا يقول انها
حبيبته بل كان يسميها وجوده العزيز . . أبدع وصف فى لغة الهوى

(١) يضم ديوان الدكتور ناجى (وراء الغمام) قصيدة قالها وهو فى الثالثة عشرة مما
يدل على أن محاولاته بدأت قبل هذا .

الرفيع .. لم تكن حبيبته فحسب بل كانت (وجوده) جميعا .. كونه
الملم ، وحب الصافي (١) .

ان (ناجي) يصور شعوره بالقصة اذ قرأها أول مرة .. عندما كان
غلاما فوق العاشرة بقليل ، لقد نفذ وقتئذ الى ما في تعبير ديكنز عن الحببية
بالوجود العزيز .. لم تكن حبيبته فحسب بل كانت (وجوده) جميعا ..
كونه الملم ، وحب الصافي ..

أرأيت شغافية الطفل وذكاء حسه ، وصفاء نفسه المطبوعة على
الحب ، المهياة له ؟

» لم تكن حبيبته فحسب بل كانت (وجوده جميعا) ...

لقد غاص الصغير في أعماق الفنان الكبير وعرف سره ووعى قصده .
وما بالقليل وما باليسير هذا ... ان المتذوق يكاد يرتقي الى مرتبة الفنان ،
وهيهات أن يتذوق العمل الفني شخص عادى غير مزود ولو بقبس مما وهبه
الفنان من موهبة الفن بدأتقوم به من حس ونفاذ (٢) .

وهكذا كان اليافع ابن الثانية عشرة يدرك مرامي القول الفني ويحس
جماله .. كانت نفسه طلعة وروحه متلهفة تحس وقمة الظما ، تواق
تهفو الى ... شيء .. والفن يخيلها على صورة مكتبة وقارئ ذواق ..
ان جدران البيت لا تعترف بغير زينة الكتب ، وصاحب البيت لا يغالى
بشيء فيه كنتك المكتبة .. وهو يحاول جهده أن يفرس في ولده حب
الفن ، ويورثه اعزازه للمكتبة .

(١) مقال للدكتور ناجي بعنوان : (كتب انثرت في حياتي) .. الجمهور المصري
بتاريخ ١٦/٢/١٩٥٣ .

(٢) يقول كولنجوود R. G. Collingwood « ان الفنان يضع في الصورة الوانا
لا نأبث أن نجدما حالما نبصر الصورة . فهل هذا هو كل ما فعله ، أعنى تلوين الصورة ؟
كلا طبعاً ، فهو عندما كان يلونها كان يعيش تجربة نفسية تختلف تمام الاختلاف عن
مجرد رؤية الالوان التي يضعها على اللوحة ، كان يعيش تجربة خيالية تكشف عن نشاط
كلى وتشبه في كثير أو قليل ما نشيده لانفسنا عندما نتأمل لوحاته . فاذا عرف كيف
يصور ، واذا عرفنا كيف ننظر الى الصورة فان التشابه بين التجربة الخيالية لديه
وتجربتنا الخيالية التي تحصل لنا من تأمل عمله يوشك ان يسكون تاماً . ومن هنا
نستطيع ان نقول : ان التجربة التي تحصل لنا من مشاهدة هذا العمل لا تكون مبهمة
تلقائاً بقدر ما هي فعل نبذل الجهد في انجازه . ومن هنا سمح القول بأن المتذوق يلزمه
ان يبذل من الجهد ما يكافئ جهد الفنان » .

النص منقول من كتاب (الأسس النفسية للإبداع الفني) للاستاذ مصطفى سويوف
ص ١٦٦ - ١٦٧ .

وفي الحق أن مهمته لم تكن بالعسيرة ، فان الصبي كان شديد
الاصفاء اليه سريع الوعي عنه ، سريع التنفيذ لما يقول ..
وانصرم الشتاء ليخلى بين الدنيا وبين فصلها الأثيرين الربيع
فالصيف .. وكان والده يؤثر في الصيف مكس الاسكندرية حيث يلتقي
في هذه الآونة من كل عام بصفيه خليل مطران ..

ولم يفت ناجي المفتوح العين دلالة الاختيار ، فسأل أباه عن سر
غرام مطران بالمكس .. فأسر اليه الوالد الصديق ان (مطران) له قصيدة
طويلة عند صخرة المكس ، ثم قرأ له قصيدته الخالدة « المساء » .

وطرب الصغير ناجي للقصيدة أيما طرب .. وسرعان ما طلب ديوان
الخليل ليستزيد .. ولكنه نفذ .. ولم يتبق منه الا نسخة وقد أخذت
مكانها بالفعل في مكتبة المرحوم عبد الهادي (باشا) فأعطاه ابن عمه هذه
النسخة ، لا ليقرأها فحسب ولكن ليتعلم منها الشعر الجيد .. وهنا
يتواضع ناجي فيقول : (ولست أعلم ان كنت قد نفذت هذا الشرط ؟)
ومضى الغلام بالنسخة حفيا بها ، وانكب عليها حتى حفظها حفظا
واعيا .. ثم تولت الأيام بدورها توثيق صلته بالخليل حتى صار يدعو
يا « عمي » .

وكانما عز على الأيام أن تتكلف عناء توثيق الصلات ، فأنست الناس
خليل مطران حتى صاروا لا يذكرونه كثيرا في مغرب عمره .. ألم تمنحه
مودة ناجي .. لها بعد هذا أن تسلب ما تشاء .. هذا هو منطقها .. أو
على الاصح هو دستورها ..

اجتمع ناجي الذي تميزت شخصيته الآن بالشاعر الكبير في منزل
صديق .. وكان مطران شاحب الوجه ، ضارع الجسم كسير القلب ، بادي
العلّة ولكن الذي كان يمضيه أكثر من سواه « الجحود » جحود الذين
أطربهم فشجّاهم فكان جزاؤه منهم « النسيان » .. النسيان في العمر
الذي تتزوج فيه أكاليل الغار مفارق حيلة المشاعل في طريق
الانسانية ..

ان « ناجي » في مجلسه الان يعتصر من أجل مطران ، ماذا تراه
فاعلا ؟ أيسرى عنه ؟ وماذا وراء التسمية وما جدوى العزاء ؟ هل في بضع
كلمات دواء الداء ؟ اذن ما أيسر ..

صه ! لقد لمعت في ذهن ناجي فكرة .. ولم يترئث في الأخذ بها
اذ انطلق ينشد شعر مطران من أوله .. فلا ينتهي من قصيدة الا ليلتها

الخرى والحاضرون مأخوذون .. بجمال الشعر ، أو بروعة المفاجأة لست
أدرى .. ولكنهم مسمرون .. ولكنهم مبهورون ... ولكنهم في صمت
بليغ السكون لم يقطعه الا نشيج مطران الذي بكى من فرط التأثر ،
وأخذ يقبل ناجى وهو يقول فى راحة المطمئن ورضا الأمن بعد خوف
الآن أموت مسرورا ...

ولاء ... لا بل وفاء ... ستم صنيعة ما شئت من أسماء ، ولكنه
عندى ارهاص العبقريّة ، التى تزمع الظهور ، وتمضى فى التكوين

ومن قرائهم ناجى وتأثر بهم « شكسبير » لقد كان يحفظ رواياته
كلها بل كان يجيد تمثيلها وطالما حاضر عنه .

ومن طرائف ناجى أنه دعى مرة للمحاضرة عن شكسبير فى المعهد
البريطانى الذى كان فى المنيا ... وحل الميعاد وهو ذاهل عنه ، ولكن
عليه أن ينهض الى الصعيه ... فركب القطار وأخذ يحاول الكتابة فلم
يوفق الا للنوم الذى غلبه ودفعه فى سخرية الغالب أن يسطر حروفا
لم يستطع هو نفسه حل رموزها فيما بعد ...

وقد تعجب اذا علمت أن ناجى الحالى من موضوع المحاضرة قد ذهب
الى المعهد المنتظر ... وحل موعده المحاضرة !

وتقدم رئيس النادى اليه طالبا نسخة مما سيقول .. وهنا جلله
الخبجل وقال له فى صوت خفيض (عندى « بضعة أسطر ») ، وبهت
الرجل وامتنع وجهه ، ولكنه ضبط نفسه ولم ينبس بكلمة واحدة ...

واحتشد الجمهور الذى تدافع الى المكان فى سباق متلهف على
سماع المحاضرة القيمة ، لقد أفلحت الدعاية الطنانة التى سبقت ركب
ناجى الى المنيا فى جذب الجموع الغفيرة ...

وامتلأت الصفوف ، وأتلعت الأعناق ، وأشرأبت الرؤوس الى
رئيس النادى ، وهو يقلم المحاضر العظيم الدكتور ابراهيم ناجى ...

أتدري ماذا قال الرجل ؟ لقد ذكر الحقيقة كاملة ... لقد ذكر أن
المحاضر نسى أن يعد المحاضرة وأنه حضر من القاهرة الى المنيا ببضعة
أسطر ...

هل نلوم الرجل ؟ كلا ... أنقصره على الكذب ؟ أم نورطه فى وعد
الجمهور بسماع مالا أذن سمعت ؟ لو فعلنا لكننا ظالمين ...

وعرت ناجى دهشة حار معها ، ماذا يقول وكيف يتصرف ...
 أيعتذر ؟ ... أنه عندئذ العذر الذى يصفونه بأنه كالذنب فى الخلقة أو
 أقبح ... أيرتجل ؟ ... انه الارتجال غير المقصود من صاحبه ، وغير
 المؤلف له فى هذا الجو المشحون الذى لا يعين عليه ...

لم يبق الا أن يزعم ناجى للحاضرين أنه نعمد الا يكتب عن
 شكسبير ، لأنه ليس بحاجة الى الكتابة عنه بعد أن عاش معه فى كتبه
 زمنا ليس باليسير . فكيف يتحدث عنه من ورقة ؟ ... لباقة بلا شك ...
 اليس كذلك ؟

ومن الغريب أن (ناجى) صدق زعمه ونسى نفسه ، وأخذ يتحدث
 ويفيض وكأنه يغترف من نهر ، وسحر بما صار اليه ، فلا هو يتوقف
 ولا الكلام يفيض ...

تعال معى الى الصفوف المتواكبة ... الا ترى السامعين يكادون
 يحسبون أنفاسهم حتى لا تفوتهم كلمة ؟ ولكن دعهم وانظر الى ذلك
 الذى يحملق الى المحاضر فى ذهول عجيب ، ألا تعرفه ؟ انه رئيس النادى
 الذى قدم (ناجى) منذ ساعة كاسفا آسيفا ، وان دارى ... ولكن حسب
 أن يقول : ان المحاضر نسى المحاضرة ولم يكتب الا بضعة أسطر ...
 لتفهم الحقيقة كلها ...

على أى حال ان الرجل الآن لا يكاد يصدق ...

واسترسل ناجى حتى أوفى ، فاذا بالتصفيق يدوى فى المكان
 كله ، واذا بالرئيس المذهول يشب الى المسرح ويضم (ناجى) ويقبله
 ويطرى : « المصرى الذى يعرف شكسبير كل هذه المعرفة »

أما قصة (التلميذ) للكاتب الفرنسى بورجيه فلها قصة سادع
 ناجى يرويها لك حتى لا يفوتك ما فى طريقته من اطراف .

(ملخص الموضوع أنى كنت أعرف الانجليزية فقط لأن القسم
 العلمى فى التعليم الثانوى لا يعلم الفرنسية ، ولكن ما حيلتى وأنا
 « مضطر » للتفاهم بالفرنسية مع أعز مخلوقة فى الوجود ! وهى لا تعرف
 غير الفرنسية ، وهى لا تحب غير بورجيه ، وتعتقد أن (التلميذ) قصة
 خالدة ... وتتمنى لو قرأناها معا بالفرنسية !

أمنية عزيزة ، ولكن ما السبيل الى ذلك ؟ على أن اتعلم بسرعة ،
 وأقرأها معها بسرعة ، والا فات الوقت !

لست أعرف فى تاريخ « الضرورات » أغرب من هذه الحكاية
 قلت لنفسى : أتعلم كما يتعلم الطفل أحفظ الكلمات ، ثم أتعلم
 ربطها ، ثم أتكلم ، كلمات أولا ، ثم جملا وهذا هو الذى حدث
 فى الشهر الأول أخذت أحفظ كلمات فرنسية وأتعلم نطقها من
 قاموس خاص بالنطق ، ثلاثين كلمة كل يوم . بعد شهر كان محصولي
 ألف كلمة أحفظها حفظا تاما .

وفى الشهر الثانى أخذت أقرأ (أجرومية) اللغة وربط الكلمات
 التى أعرفها ببعضها ، وفى الشهر الثالث أخذت أحاول تطبيق هذا على
 قصة (التلميذ) ، فى المحاولة الأولى لقراءتها ولم أفهم شيئا ، وفى القراءة
 الثانية فهمت قليلا ، وفى الثالثة فهمت أكثر ، وفى الرابعة ازداد فهمي
 لها وفى المرة الثامنة فهمتها تماما

وعدت الى صديقتي ، فقرأت معها قصة التلميذ لبورجيه وعي
 لا تكاد تصدق ! (١) .

لقد طغى حب الأدب على ناجي حتى غلب فى نفسه على سائر الميول
 الأخرى فما علما عما بدا ؟ ما الذى حدا به الى الطب ؟ هنا فقط
 أترك لشاعرنا الحديث

« كانت نزعتي للأدب طاغية ، وكنت أعد نفسي لمستقبل أدبي ،
 ولم يكن عندي أية فكرة عن الناحية العلمية الرياضية ، غير أن الأقدار
 تلعب دورها بدون أن نعلم وفى السنة التى قررت فيها أن التحق
 بالقسم الأدبي أرسل الله لنا معلما سوريا ، لم يكده ينظر الى حتى توسم
 فى شيئا لا أعلمه جعله يؤمن بأننى قد أكون نابغة فى الرياضة ، فوجه
 اهتماما الى ، وكان قاسيا جدا ، اذ كان يضربنى ويشتمنى وكثيرا ما دخل
 الفصل وهو ثمل ثم أخذ يبسط هذا الظل بالضرب و « التريقة »
 والشتم واللعن . وأنا صابر لا أتفوه بكلمة ، وكان رحمه الله طيب
 القلب يخفى خلف هذه القسوة نفسا من الذهب ، فكان يلاطفنى بعد
 قسوته ، ويمد يده الى (بواجبات) خاصة منه لى ثم يعود فى
 اليوم الثانى فيسألنى فى خشونة « هل عملت الواجبات » فلم أخيب
 ظنه مرة واحدة وقد كان تقدمى سريعا ، جعله يزهر ويفخر بى . . .
 ثم أخذت قسوته تختفى وهو يقول « اطلع يا ناجي اشرح لهم التمرين » .

لقد كان تأثير هذا المعلم فى مستقبل كبريا فقد غيرت التحاقى

بالقسم الأدبي ، والتحقّت بالقسم العلمي ، ولتقدمي وتفوقي في الرياضة
دخلت كلية الطب لأنني كنت من المتقدمين « (١) » .

وازداد ناجي مع الأيام قراءة وإطلاعاً وتوسع فيهما ، حتى تجاوز
كتب الأدب والطب إلى المذاهب الفلسفية والسياسية وعلم النفس ...
ولعل قراءة واحدة لكتابه (رسالة الحياة) تؤيد هذا عندك .

ولما تخطى ناجي مرحلة الاختبار ، وحان الموعد ليحجني الناس من
الأديب الطبيب ما فيه شفاء وما فيه دواء ، أمسك بقلمه نفيساً كمبضعه
وسطر الشعر ، ودبج النثر ، وسرد القصة وأعد البحث ، ولكن الشعاع
في ناجي غلب على النثر والباحث والقصاص ... فهلل قوم للشاعر
ولاذ قوم بالطبيب ، وقال التاريخ : شاعر الطب وطبيب الأرواح ...
فهنيئاً له وسلام عليه في الخالدين ...

(١) من مقال للدكتور ناجي بدويان « كتب اثرت في حياتي » المجلد المصرد المصري
١٩٥٣/٢/١٦ .

ناجى الشاعر

هو شاعر حتى فى الأسماء ٠٠ (وراء الغمام) ، (ليالى القاهرة)
 ٠٠٠ أسماء زاهرة حافلة فيها غموض وظلال وسحر مكنون وإيحاء ورمزية
 شفافة ٠٠٠ ترى ماذا وراء الغمام ؟ وماذا فى ليالى القاهرة ؟ ان الاسم
 الأول يثير فضولى والاسم الثانى يدعونى للطرب وللسمير وللفن ٠٠٠

لقد تساءل الأستاذ الصاوى وهو يصدر لديوان ناجى الأول (وراء
 الغمام) : كيف يجرو النثر على وصف الشاعر ؟ وكيف توصف
 الموسيقى بالكلام ؟ وكيف يعبر بالحروف عن الأحلام ؟ ٠٠٠

ولكنى رغم هذا لا أتهيب وسأصف « ناجى » الشاعر الموسيقى
 الحالم ٠٠٠ أو بالآخرى سأستنشق من شعره ٠٠٠ سأبحث فى ديوانه
 ٠٠٠ (وراء الغمام) و (ليالى القاهرة) .

نحن الآن أمام الهداء الديوان الأول (وراء الغمام) ٠٠ ومنه :

أنت وحى العبقريه وجلال الأبدية
 أنت لحن الخلد والرحمة فى أرض شقيه
 ان يكن قد شقى الماضى فما أهنأ البقيه
 بت تسقىنى فتنسسينى أوجاعى العصيه

لعلك تشعر معى أننا مقبلون على ديوان شجى وشاعر حزين ٠٠٠
 ومنى كان هذا ؟ فى سنة ١٩٣٤ أى فى طور الشباب ٠٠٠

ياهمس قلبى فى صمى أيامه وسهاد عينى فى الليالى الأولى (١)

(١) الدكتور ناجى . ديوان (وراء الغمام) ص ٦ قصيدة الماب .

لبيك لو عند روجى ما تطير به
وكيف ينهض بالمجروح اعياء (١)
أتعرف مما قاسى ناجى أيضا ؟ سأتركك معه ليبتك شكواه ، ها هو
ذا يفضى اليك :

لقيت ضنكا من الليالى
فمن غمار الى غمار
قد طال عتبي على الليالى
وطال للراحم انتظارى (٢)

وهو مسرور .. ومن خطابه الى من يحب :

قبل اذقنى ما اليقين وهاته خلوا من الآلام والأوصاب
اقبل لأقسم فى حياتى مرة أن الذى أسقاء ليس بصاب
لهفى على هذا اليقين وطعمه بغمى وتكذيبى شنى شرابى (٣)

حتى كاس النعيم يريد عليه قسما ليوقن أنه حلو لا مر فيه ...
هل كان مسرورا الى هذا الحد ؟ أكاد لا أصدق من اشتاقى ...
ولكن كيف وهو يؤكد أنه لا يستسيغ فى دنياه شيئا :

كل شيء صار مرا فى فمى بعدما أصبحت بالدنيا عليها
أه من يأخذ عمرى كله ويعيد الطفل والجهل القديما (٤)

ان الرجل لا يصرخ هذه الضرخة الا أن تكون قد كشفت له عن
حقائق مرة غص بها ..

تبرى لم ضاق ذوعا بالحياة والأحياء ؟ أنه يقول :

مللت فى هاته العوالم مهزلة الموت والحياة
وصورة القيد فى المعاصم ووصمة الذل فى الجباه
هياكل تعبى الستين واحدة الغيش والنظام
واحدة السخط والأنين واحدة الحقد والحصام

(١) الدكتور ناجى ، ديوان ليالى القاهرة ص ٩٧ قصيدة السراب على البحر .

(٢) الدكتور ناجى ، ديوان ليالى القاهرة ص ١٦٣ قصيدة فى منزل الشاعر .

(٣) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام ص ٨٢ قصيدة الشك .

(٤) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام ص ٥٤ - ٥٥ قصيدة الوداع .

وواحد ذلك الرياء يستر خزيا من الطباح
أفتم البلى أوجه الرياء ولم يدب ذلك القنصاح
بعينها كذبة الدموع بعينها ضحكة الخداح
ومنحنى هاته الضلوع على صواد بها جياح (١)

ويمضى فى تأمله فىرى أن الناس هم الناس والطباع هى الطباع ، وإن
تغيرت شيات ، وتبدلت أزياء :

آدم كالقديم قلبا وتفكيرا ولكن تبدل الأزياء
لم يحل طبعه ولا ذات يوم لبست غير نفسها جوا
والنصار المعبود قدس وقربان ورب والشهرة الجوفاء
والخطام القانى عليه اقتتال والألماني بريقها اغراء
وسفين تمر اثر سفين والرياح اللذات والأهواء
والغيوب المحجيات رحاب تعبت فى رموزها الحكماء (٢)

ومجمل رأيه فى الدنيا أنها رواية :

نزل الستار فقيم تنتظر حلت الحياة واقفر العمر
لم يبق الا مقفر تعس تعمى الذئاب به وتاتمر
هو مسرح وانفض ملعبه لم يبق لآعين ولا اثر
ورواية رويت وموجزها صعب مضوا وأحبة هجروا
عبروا بهذا صورا فمد عبروا ضحك الزمان وقهقه القدر (٣)

وتمر به قافلة صغيرة فتعزز رأيه ، ويتأملها وهى تخب فى طريقها
المضى ، فيهرز رأسه فى سمت الحكيم ويقول :

رأيت حياتنا . كم من غريب على جنبه بالاعياء مثلا
وكم من سائل لم يلق ردا وقد سأل الهواجر والرملا
فان تجب القفار عليه يوما ترد له سواقيها السؤالا
أقافلة الحياة أرتنيها خيالا أو ضلالا أو محالا (٤)

وهناك داء قتال كان يعانى منه ناجي وهو بلا ريب من دواعى تهرمه
وتشباؤه وممراته . . . ذلك هو (الظلم) . . . والظلم أشد قسوة على
الحساس المرفف الشاعر بنفسه ذى الالباء .

(١) الدكتور ناجي ، ديوان وراء الغمام ، ص ٦٣ قصيدة الليالى .

(٢) الدكتور ناجي ، ديوان ليالى القاهرة ، ص ٩٣ ملحمة السراب .

(٣) الدكتور ناجي ، ديوان ليالى القاهرة ، ص ٥٧ قصيدة رواية .

(٤) الدكتور ناجي ، ديوان ليالى القاهرة ، ص ١٨٣ - ١٨٤ قصيدة القافلة الصغيرة .

قد تغشاني ظلام لا أرى فيه مغداً ولا منقلباً
صامداً للظلم والظلم له معول يهدمني عن كتب
وأنا أدفعه عن منكبي بيدي حتى تهوى منكبي
وتماسكت فلم يبق سوى كبرياء هي درع للأبي

اني أحنو عليه هو وأقدر موقفه وهو من طول ما بلى بالدنيا وقاسى
من حاضرها ، لا يرجو غيرها وما له يطمع في غدها ويومها . لا تراه عينه
الا كايها مرنقا ...

التقى بحبيبه فأخذ يستحثه عجلاً على اسعاده قبل ان تولى الفرصة
بأقول العمر ... ألا تلمح لهفته في قوله :

هات أسعدني ودعني أسعدك قد دنا بعد التناهي مودك
وابلائي من ليالى التي قربت حينى وراحت تبعك
لا تدعني للينالى فغدا تجرح الفرقة ما تأسو يدك (١)
انه يتوجس خيفة من الغد شأن الحساسين متفرزى الأعصاب ...

وليس هذا فحسب ، بل انه سيئ الظن بالايام يتوهم أن القدر موكل
به فاذا ظفر بمأهول تلفت اليه قلبه متسانلاً :

قال لي القلب : أحقا ما بلغنا ؟ كيف نام القدر الساهر عنا ؟
أتراها خدعة حاقت بنا ؟ أتراها ظنة مما ظننا ؟ (٢)
وهو يصيح بكل من يمينه بغداد :

لا تقل لي في غد موعداً فالغد الموعود ناء كالنجوم (٣)
انه ليس متفائلاً ...

ويعزو الأستاذ ابراهيم المصرى تشاؤم ناجى الى شدة احساسه
بالعواطف الرقيقة (التي تضاعف شعوره بالألم عندما يعترض طريقه
مشهد مؤثر أو فاجعة رهيبة ، أو مجرد سماع انسان يشكو أو آخر
يستجدى أو ثالث يتظاهر بالسعادة وفي عينيه أثر مجاهدة
الدواعي ! ...) (٤)

- (١) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ٥٦ - ٥٧ قصيدة الوداع .
- (٢) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ٩٩ قصيدة الغد .
- (٣) " " " " ديوان وراء الغمام ص ٩٧ .
- (٤) كتاب (صوت الجيل) للأستاذ ابراهيم المصرى ص ١٤١ .

وهو قدرى يتأمل ويتطوح به التفكير فيتساءل :

والام تدفعنا الحوادث فى عباب يلتطم
دفعت بمركبنا المقادير الخفية والنسم
خرجت وما تدرى النواة بأى صيخر ترتطم
بدأت على ريع الرضا والله يدرى المختتم (١).

وهو ملول بطبعه ... يحسب من ضيقه أن عقارب الساعة لا تنفرج
الا لترجع الى الوراء .

اليالى العمر ما سر الليالى البطيشات المفلات الطوال
مسرعات مبطئات ولها خفة الموت وأثقال الجبال
كاسفات الليال عرجاء المنى عاثرات الحظ شوعاء الظلام
عجبنا للعمر يمضى مسرعا للمنايا بساحفة الملال (٢)

أهكذا كانت أيامه ؟ انها كذلك ... ولا تحتج عندي بضحكك فإنه
ضحك كالسكا ، ألم يقل :

طلما موعت بالضحك فما غير التمويه رأيا لك فيا
كلما تنظر فى عيني تسرى سرى الخافى ومعناى الخفيا
وترى فى عمق روحى زهرة قد سقاها الحزن دمعاً أبديا
ويشراه الناس طلا . وترى أنت دمعاً غائماً فى مقلتي

هكذا كان ناجى وتلك كانت حقيقته :

وهو حالك اليأس ، يئأس فلا تلوح له بارقة من نور الأمل ، حتى
ليتمنى الموت :

أصبحت من يأسى لو ان الردى يهتف بى ، صبحت به هيا
هيا فما فى الأرض لى مطمح ولا أرى لى بعدها شيا
ما ذا بقائى ها هنا بعد ما نفضت منه اليوم كفا (٣)

وتصبح به من رحمتك : علام الموت ؟ فيعجب لك كما تعجب له
ويسألك بدوره :

ما يصنع الأبرار بالأرض التى ساوت من الأبرار والأوشاب
دوارة أبد السنين كعدها من ليل آثام لصبح متاب

- (١) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ٧٧ قصيدة ليالى الأرق .
(٢) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ٢٠٨ قصيدة الحريف .
(٣) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٥٨ قصيدة يأس على كاس .

تغفل الحياة بها الى أن تنتهي عند التراب رخيصة كتراب (١)

ولكنك لا تقتنع ... وهو يدرك هذا تماما ... ومن ثم يسوق اليك
حجبا أخرى :

ما يقاى وأجل العمر ولئى وانتظارى حتى يحين الشتاء
يطلع الفجر مرهقا شاحب النور عليه الكلال والاعياء
وبنفسى دب المساء وحل الليل من قبل أن يحين المساء (٢)

أراك لا تزال غير مقتنع بشكواه ... ها هه ذا قد تركك وشأنك
وراح ينشمد آخر :

الا وفى الا معين فى مدلهم بلا صباح ؟
وكما جند لى أنين تسخر بى أنة الرياح (٣)

فلما بددت الرياح صرخته أرسل فى الليل أنينه مبلا بالدموع :

يا أيها الليل جئت أبكى وجئت أسلو وجئت أنسى
طال عذابى وطال شكى ومات قلبى وما تأسى (٤)

فلما غشت ظلمة الليل لوعته هرع الى النهر يناديه :

يا نهر لى جذوة بجنبى هادئة الجمر بالنهار
فان دنا الليل برحت بى وساكن الليل كم آثار

وقفت حران فى ارائك فهل ترى منك مسعد
وددت القى بها لمائك لعلىا فيك تبرد (٥)

يبدو أن جذوته استعصت على ماء النهر ... ولكنه قلق بين ماض
دام يرهقه وحاض قاس يؤرقه :

ماض وكم فيه من عثار ومن عذاب قد انقضى
كم قلت لا يرفع الستار ولا اذكار لما مضى (٦)

ها هو ذا خاطر جديد يلوح له ... ليبتجى الى البحر ... نعال معي

(١) الدكتور ناجى • ديوان (وراء الغمام) ص ٨٣ قصيدة الشك •

(٢) الدكتور ناجى • ديوان (ليالى القاهرة) ص ٩٢ ملحمة السراب •

(٣) الدكتور ناجى • ديوان (وراء الغمام) ص ٦٥ - ٦٦ قصيدة الليال

(٤) الدكتور ناجى • ديوان (وراء الغمام) ص ٧١ •

(٥) الدكتور ناجى • ديوان (وراء الغمام) ص ٦٨ قصيدة الليال •

(٦) الدكتور ناجى • ديوان (وراء الغمام) ص ٦٩ •

الى الشاطئ... أرهف السمع... انه يتأججه مناجاة شاعر ويهمس اليه
همسا فيه شاعرية وحساسية ورفيف... انى أحس أنه تخفف من أعبائه
حين أسمع منه :

وجعلت النسيم زادا لروحي وشربت الظلال والأضواء
لكان الأضواء مختلفات جعلت منك روضة غناء
مر بى عطرها فأسكر نفسى وسرى فى جوانحي كيف شاء (١)

انه شاعر ملهم ذلك الذى يعود الى الطبيعة ينبع الجمال والسحر يعب
منها فاذا الرشيف ظلال وأضواء وعطر وشعر... انه هنا عصفور طليق
حط على غدير يحسو منه فى هناءة الخلى...

كنت أحمد للبحر العظيم فضله على شاعرنا ، لولا أنى سمعته من
جديد يقول :

نشوة لم تطل ! صحا القلب منها مثل ما كان أو أشد عناء
انما يفهم الشبيه شبيها أيها البحر . نحن لسنا سواء
أنت باق ونحن حرب الليالى مزقتنا وصيرتنا هباء
أنت عات ونحن كالزبد اذا هب يعلو حيناً ويمضى جفاء
وعجيب عليك يمت وجهى اذ مللت الحياة والأحياء
أبتقى عندك التأسى وما تم سلك ردا ولا تجيب نداء (٢)

ان لواءجه لا تهدأ ، وهمومه لا تفتر ، حتى البحر يغمره عجز عن
غسل هذه الهموم .

اذن لا مطمح له فى الأرض... ليشرئب الى القمر... لعله أحنى
ذلك الوضاء الجميل :

قمر الأمانى يا قمر انى بهم مسقم
أنت الشفاء المدخر فاسكب ضياءك فى دمي

أفرغ خلودك فى الشباب واخلى على قلبى الصفاء
أسفا لعمر كالحبيب والكأس فائضة شقاء (٣)

وما ان رآه يمضى وراء سحابة تجنو عليه وتلثمه حتى صرخ فى ضراعة
مكروبة :

-
- (١) الدكتور ناجى . ديوان (وراء الغمام) ص ٨٥ قصيدة : خواطر الغروب .
(٢) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١٤٦ قصيدة استقبال القمر .
(٣) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ٨٦ من قصيدة خواطر الغروب .

خُذْنِي إِلَيْكَ وَنَجِّنِي مَا أَعَانِي فِي الثَّرَى
قَلْبِي تَرْنَقُ فَاسْقِنِي قَدَحَ الشَّعَاعِ مَطْهَرًا (١)

فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ سَمِيْعًا مِنَ الدَّلِيلِ وَالنَّهْرِ وَالْبَحْرِ وَالْقَمَرِ ، لَازَ بِحِمِي
النَّشِيلِ الْوَالِدَ كَمَا لَازَ بِهِ قَبْلَهُ فِي الْقَدَمِ آبَاءَ وَأَجْدَادَ :

أَقْبَلْتُ لِلنَّيْلِ الْمُبَارَكِ شَاكِيَا زَمَنِي وَقَدْ كَثُرَتْ عَلَى هُمُومِي
وَمَسَحَتْ كَفِّي وَالْجَبِينِ بِمَائِهِ عَلَى أَهْدَى ثَوْرَةِ الْمُحْصَمِ
وَجَلَسْتُ أَنْشُرَ جَعْبَةٍ مَعْمُورَةٍ بِالذِّكْرِيَّاتِ جَدِيدِهَا وَقَدِيمِ (٢)

وَقَدْ تَهَادَنَهُ الْأَيَّامُ حِينًا فَتَحَسَّنَ إِلَيْهِ بِعُودِ حَمِيدٍ ، وَرَدَ غَاثِبٌ فِيرْسِلُ
الْحَنَنَ جَدَلًا :

عَادَتْ لَطَائِرُهَا الَّذِي غَنَّاها وَشَدَا فَهَاجَ حَنِينُهَا وَشَجَاها
أَيَّ الْحُظُوظِ أَعَادَهَا لَوْفِيهَا وَنَجَى وَحْدَتُهَا وَالْفَصَاها
مَشْبُوبَةٌ التَّحْنَانِ تَكْتُمُ نَارَهَا عَيْنًا وَتَأْبَى أَنْ يَبِينُ لَهَاها
يَا الْفَى الْمَعْبُودِ سِرِّكَ ذَائِعَ نَارِ الْحَنَنِ دَفِينَهَا أَفْشَاها (٣)

حَتَّى إِذَا اطْمَأَنَّ إِلَى زَمَانِهِ اسْتَرَدَّ مَا وَهَبَ ، وَسَلَبَ مَا أَعْطَى ، فَهَلْ
يَلَامُ نَاجِيًا إِذَا أَنْ :

مَاذَا لَقِينَا مِنْ لِقَاءِ خَاطِفٍ وَعَشِيَّةٍ كَالْبَرْقِ حَانَ ضَمَاها
يَا وَيْحَ هَاتِيكَ الشَّوَانِي لَمْ تَقِفْ حَتَّى نَسِيخَ هِنَاءَ ذَقْنَاها
حَتَّى يَمْتَنِعَ بِالْيَقِينِ مَكْذِبٍ عَيْنِيهِ فِي رُؤْيَا يَضِلُّ سَنَاها
تَمْضِي لَهَا الْأَبْصَارُ مَشْعَلَةَ الْهَوَى وَتَحُولُ عَنْهَا مَا تَطِيقُ لِقَاها (٤)

أَنَّ الْأَمَانِيَّ تَلَاقِيهِ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ وَتَنْصَرِمُ وَقَدْ اسْتَحْجَالَ الظُّلْمُ أَوَامًا ...
وَلَكِنَّهُ ظُلْمًا خَصِبَ وَحَرَمَانٍ مَبْدَعٍ ، ذَلِكَ الَّذِي يُوحِي إِلَيْهِ :

لَمْ تَرَوْا مِنْكَ نَوَاطِرِي وَخَوَاطِرِي وَرَجَعْتَ أَزْكَى مَهْجَةٍ وَشَفَاها
مَا أَعَذَّبَ رَى الْخَوَاطِرِ ...

مَدَّ الْحَرِيفَ عَلَى الرِّيَاضِ رَوَاقِهِ وَمَضَى الرِّبْعَ الطَّلُقَ مَا يَنْشَاها
مَا بِالرِّيَاضِ ؟ كَأَبَةِ فَنَى أَرْضَهَا وَسَحَابَةٍ تَغْشَى أَدِيمَ سَمَاها
جَمَلْتُ حَمَائِمَ أَيْكُهَا وَأَنَا الَّذِي شَاكِيتُهَا فَاغْرُورَقَتْ عَيْنَاها (٥)

(١) المرجع نفسه ، ص ١٤٧ من القصيدة نفسها .

(٢) الدكتور ناجي . ديوان ليلى القاهرة ص ٦٥ كبرياء .

(٣) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ٩٢ قصيدة (رجوع الغريب) .

(٤ ، ٥) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ٩٣ و ٩٤ قصيدة رجوع الغريب .

تري ما حيلته لا سلوى الا أن يعلل نفسه بالاهام :

هات قيثارى ودعنى للخيال واسقنى الوهم ! وعلل بالمحال
ودع الصديق لمن ينسده الحجي خصمى فاعمر بالضلال
وخذ الأنوار عني ، ربما أجده الرحمة فى جوف الليالى
خلنى بالشوق استدنى غدا فغدا عندى كآباد طوال (١)

وطبيعى أن يزعم هذا كله يقينه ويورثه الشك حتى فى الواقع
الملموس ... عاودته مرة ذكرى لقاء فلم يصدق نفسه ، وخال من أوهامه
الحقيقة التى وقعت حلما عابرا ووهما كاذبا :

أحقا كنت فى قرى لعلى واهم وهما
تكلم سيد القلب وقل لى : لم يكن حلما (٢)

وهو على فيض أساه ، وطول شكواه جهول صبور متعجل ...
يستقبل العائد فيهتف :

سلام على غائب عن عيوني حملت خطامى الى داره
وقلت لقلبي تمهل بنا وخبى شقاءك أو داره
تناسى الأسى هاهنا أو يقال حملت الظلام لأنواره
اتقدوا الى عتبات النعيم بلفح الجحيم واعصاره (٣)

وهو على حرمانه لا ينفس على واحد مجدا ، ولكنه يغبط النابغ ويزكى
نبوغه ويجمال ويكرم ويوفى الأحياء والأموات ... وسيأتى ذكر هذا فى
حلته عن شعر المناسبات .

وهو ذو كبرياء ... يلقى من أيامه نصبا فيكابر ويقول :

يادهر لم أشك الكلال ولا ملكت خطوط الدهر ارهاقى
عذبت أيامى بعفتها وقتلتها بصفاء أخلاقى (٤)

أما عفته وصفاء أخلاقه فمما لا ينكره عليه أما الشكوى فقد
شكا وبكى ، بل لقد أردف النفى بالاثبات فى القصيدة نفسها ...
أولست هذه شكوى .

ياكم غرست وكم سقيت وكم نضرت من زهر وأوراق
ما حيلتى والأرض مجسدة سيان اقلالى واغداقى

- (١) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ١٠٢ . قصيدة الغد
(٢) الدكتور ناجى . ديوان (وراء الغمام) ص ١٨ . قصيدة صلاة الحب .
(٣) الدكتور ناجى . ديوان (ليالى القاهرة) ص ٢٢٣ - ٢٢٤ . قصيدة ليالى القاهرة .
(٤) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة ص ٧٥ . قصيدة شكوى لزمى .

أين الذين رفعت فانحدروا وبنيتهم بنيان خلاق (١)

ألا تشي هذه الأبيات بحسرتي ، بتفجعه ؟

ان كنت لم أغتم فقد ظفروا مني بمغفرتي واشفائي

ألا ما أحوجه الى الاشفاق وما أجدره بالرتاء ... على أن مغفرتي قول
شاعر ، أما الانسان الجريح فهذا رأيه :

لكنني والجرح يلهب لي حسي ويكوى كي احراق
هيهات أنسى أنهم عبثوا ووفيت لم أعبت بميثاقى (٢)

ولكنه لا يضمهر البغض لأحد وكيف وهو داعية الى الحب والسماحة :

تفرق الناس حول الشط واجتمعوا لهم به صخب عال وضوضاء
وآخرون كسالى في أماكنهم كأنهم في رمال الشط أنضاء
هم الوري قبل افساد الزمان لهم وقبل أن تتجدي الحب بغضاء
عماقت نفوس بأحقاد ولو سلمت فانها كسما البحر روحاء (٣)

فلما انقض الناس من حوله لا يباثون بدعوتيه لأذ يجيبه متعزيا :

مالى بهم ، أنت لى الدنيا بأجمعها وما وعت ولقلبي منك اغنفاء

وهنا يصفو ناجي ويرق وتجدد شاعريته بهتل :

إذا نطقت فما بالقول منتفع وان سكت فان الصمت افشاء
وأيا نقطة فالريح ناقله والشط حاك لها والأفق أصداء
ياليل ! من علم الأطياف قصتنا وكيف تدرى الصبا أنا أجباء (٤)

والحب عنده ليس حب الهوى فحسب ... ولكن حب الوطن وحب
الانسانية جمعاء ...

وحب ناجي لوطنه - ان احتاج حب الوطن الى دليل - يتمثل في
اشاداته به ، ويتمثل في دموعه التي سكبها في أتراحه ، وأغانيه التي
أرسلها في أفراحه ...

ان مصر أثيرة عند ناجي أصبحت أم أساءت ... لقد خرج يوما منها
مريضا ، ورجع اليها مكسور الساق يحمل عكازتين ، فلما أشرفت السفينة
على بور سعيد هلل ناجي : رفاقي .. تلك مصر يارفاقي ..

(١ ، ٢) الدكتور ناجي . ديوان ليالى القاهرة ص ٧٦ قصيدة شكوى الزمن .

(٣) الدكتور ناجي . ديوان ليالى القاهرة ص ٩٧ قصيدة السراب على البحر .

(٤) الدكتور ناجي . ديوان ليالى القاهرة ص ٩٨ قصيدة السراب على البحر .

هتفت وقد بدت مصر لعيني رفاقي ! تلك مصر يارفاقي
أندفعني وقد هاضت جناحي وتجددني وقد شدت وثاقي
خرجت من الديار أجر هوى وعدت الى الديار أجر ساقى (١)
ومن هتاف الوطنية على لسان ناجي هذا البيت النابض في وصف
النسور المصرية .

وهلل السين اذ هلت طلائعنا طلائع المجد من أبناء وادينا
انى المبحر اعتزازه بمصر ووجده في تشبته بالانتساب اليها في
اضافته الى الضمير « نا » (طلائعنا - وادينا) .

وهاضت الأجنحة المحلقة واحترقت فذرف ناجي الدموع . . ذرفها
عن ضعف المنكوب وان سلم شخصه على الأذى ، الشاعر بالمصيبة وان لم
تمس منه الجسم . ولكن قطعة من وطنه تتلظى فيحس قلبه لفح النار ،
ولكن أخوة له في الوطن يقضون فيبكي قلبه المصري لحما ودما ، المصري
أملا وهوى ، يبكي قلبه وتبكي عينه ويبكى شعره من أجلهم ، من أجل
مصر الأم .

يا أمتي كم دموع في مآقينا
يبكي شهيدك أم نبكي أمانينا
يا أمتي ان بكينا اليوم معذرة
في الضعف ، بعض المآسى فوق أيدينا (٢)
ان شاعرنا مواطن صادق ، كبير الألم . . . كبير العاطفة .
وعلى حبه لوطنه ، ضاق صدره مرة ، فقال وهو يصف الليل في
فينيسيا :

يارب ما أعجب هذى البلاد لا ليل فيها ! كل ليل صباح
وكل وجه في حماها ضماد ومصر لا تنبت الا الجراح (٣)
ولكنى لا أحسب هذا دما . انه أشبه بالعتاب منه بالدم . . . لقد
كان في ذلك الوقت متأثرا من حملة النقد التي أثارها عليه الأدباء على
أثر ظهور ديوانه (وراء الغمام) ، فهو في هذين البيتين يتحسس
جرحه .

-
- (١) الدكتور ناجي . ديوان ليالى القاهرة . ص ٧٣ قصيدة المآب .
(٢) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ١٨٤ قصيدة الأجنحة المحترقة .
(٣) الدكتور ناجي . ديوان ليالى القاهرة ص ٨٣ قصيدة الليل في فينيسيا .

وفى ناجى وفاء للصديق ٠٠٠ رأى رفيقا من رفاق صباه عليلا محمولا
بعد غربة طويلة فارتاع :

لم العيون الفاترات ذبولا ومن الخيال موسندا محمولا
يا هم قلبي فى صبا أيامه وسبهاد عيني فى الليالى الأولى
عيناي كذبتا وقلبي لم يدع دقاته شتكا ولا تأويلا
وبكيت من يأس عليك فلم أذر عند المحاجر مدمعا مبدولا (١)

على أن (ناجى) يعتقد أن الدموع تجف سريعا ومن ثم ففى لا طائل
تحتها ولا جدوى فيها ٠٠٠ ولكنه يجود بها فى المأسى كما يفعل كل
حزين (٢)

وتستطيع أن تستشف من شعر ناجى غير هذا ٠٠٠ تواضعه ٠٠٠
أن شاعرنا ليس من فريق أبى الطيب الذى يمدح فيقول :

أجزني اذا أنشدت شعرا فانما بشعري أتاك المادحون مرددا
وما الدهر الا من رواة قصائدي اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

ولكنه من طراز آخر ٠٠٠ مصقول ٠٠٠ حتى ٠٠٠ قدح ناجى زميله
الأستاذ دسوقي أباطة فقال :

دسوقي اذا أقللت فاقبيل تحيتي
فما أنا شاديهم ولا خيرهم أنا
ولكننى صوت المحبين كلهم
ومن روضك الغالى وبستانهم جنى (٣)

وقد سنح فى قصيدة (فى الظلام) بيت افتخر فيه ناجى بنفسه
كالشعراء ، ولكنه مثال فرد أحسب أن القافية تحكمت فكان ٠٠٠
والبيت :

أيا مصر ما فيك العشيّة سامر ولا فيك من مصغ لشاعرك الفرد (٤)
وهو على تواضعه وتزكيتة لأمجاد الغير ، على الهمة لا يخضع
لغير الله :

(١) الدكتور ناجى : ديوان وراء الغمام ص ٨. قصيدة اللاب

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٦. قصيدة الأجنحة المجرقة .

(٣) الدكتور ناجى : ديوان ليالى القاهرة ص ١٥٥

(٤) المصدر نفسه ص ٢٢. قصيدة فى الظلام .

انى لأحمل جعبتى متحدىا زمنى بها وحواسدى وخصومى
أحنى لعرش الله رأسا ما انحنى بالذل يوما فى رحاب عظيم (١)

ويطيب لناجى أحيانا أن ينظم الحكم كقوله :

قد صار حب الحياة منا يقنع بالحيقة السباع
وعلم السمح أن يضنا وثبت الجبن فى الطباع (٢)
وحكمته على صدقها لا تترك التأثير المنشود لأنه ليس شاعرها ولكنه
شاعر الغزل وشادى الأيك ...

ومن غرائب ناجى قوله :

كم صحت والعين تدرى الدمع فى أسف
على الجواهر فى كف الردى العساف
ألا رقى للأباطين تحفظهم
على الحوادث من أنظار حساد (٣)
رقى والنظرة والحسد ... وهذا القول من طبيب يدخل عندى
فى باب الطرافة لولا أن المقام مقام عزاء ...

وناجى مداعب فكه عذب الروح ... ومن طرائفه يداعب صديقا
شاعرا جمعته به وليمه :

بصرت به والصحن بالصحن يلتقى
ترأى له لحم فلم يدر عنده
وأوما لى ، باللحظ يسألنى به
وقدمته للديك وهو كأنما
غنيم ! أخونا الديك قدمت ذا لذا
ومسا هى الا لحظة وتسازلا
فمال على الورك الشبهى ممزقا
جزى الله أسنانا هناك عتيقة
فلم أر أبهى من غنيم وأظرفا
تديك من بعد الطوى أم تخرفا
أعرفه ؟ أومات باللحظ مسعفا
يطير اليه وإثبا متلهفا
فهذا لهذا بعد لى تعرفا
وقد رفعا بعد السلام التكلفا
ومال على الصدر النظيف منظفا
ظللن على الصحن الأباطى عكفا (٤)

وما دمت مسترسلا فى الضحك فاسمع :

- (١) الدكتور ناجى ، ديوان ليالى القاهرة ص ٦٦ قصيدة كبرياء .
- (٢) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام ص ٦١ قصيدة الليالى .
- (٣) الدكتور ناجى ، ديوان ليالى القاهرة ص ١٦١ .
- (٤) الدكتور ناجى ، ديوان ليالى القاهرة ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

تعيّر ناجي بالردنجوت جاءه وأقسم لو أن الردنجوت نلته
لقلبتنه ظهرا لبطن محيرا
رأيتك والعدس الأباطي قادم
وناهيك بالعدس الأباطي منظر
على أنه ما جاء حتى رأيتنه
فلله من لفظ ببطنك راسب
معارا فغامر واستعر أنت معطفا
وجاد به من جاد كرها وسلفا
به تحسبن الوجه من عبط قفا
كما انتفض المحموم بشر بالشفاف
عظيم كما هيات للعين متحفا
تواري كطيف لاح في الحلم واختفى
قريب ومعناه برأسك قد طفا (١)

وهو ساخر حتى من نفسه ... اعتز في قصيدة بابائه ومثل هذا
الحديث يجد فيه صاحبه ويصطنع الشموخ أو يأخذ سمته ، ولكن ناجي
الساخر السهل غلبته طبيعته البسيطة فقال :

قد عاش وهو معذب بابائه ولقد يلاقي يومه مستكبرا (٢)
ان الذي يسلم الروح أغلى ما في الوجود مقصور مغلوب على أمره
فاقد الحيلة ... ان البيت ، دعاية ساخر ، وسخرية مرور .

وناجي يعرف أن الناس يرونها اجتماع الفن والعلم لاختلاف
الطبيعتين ، وهو هنا يرد على السؤال الحائر (طب وشعر كيف يتفقان) ؟
والناس تسال والهواجس جمّة
الشعر مرحمة القلوب وسره
والطب مرحمة الجسم ونبيعه
ومن الغمام ومن معين خلقه
طب وشعر كيف يتفقان
هبة السماء ومنحة الديان
من ذلك الفيض العلى الشأن
يجدان الهاما ويستقيان (٣)

هنيئا له ... لقد اجتمعت له الرحمتان .. الشعر والطب .

تري هل استكملنا شخصيته ؟ هل وضحت صورته عندك ؟ احسب
أن هناك خطأ لم يمتد به الحديث الى مداه وهو خط العاطفة .. وعاطفة
ناجي تمثل الجانب المشرق منه ... انه شاعر الجمال والحب ومن ثم
ففرزه خليق أن نفرده فصلا مستقلا ... ولو أن عاطفته جزء من
شخصيته التي تتلمسها في هذا الفصل وكان يمكن للكلام عن مجابه أن
يتصل هنا ... ولكن حديث حبه طويل ذو فنون وهو غالب على شعره ...
فمن حقه أن نقف عنده وقفة خاصة ... فهيا الى « شاعر الغزل » .

(١) المصدر نفسه ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٨٩ قصيدة عذاب .

(٣) الدكتور ناجي . ديوان ليالى القاهرة ص ١٩٥ - ١٩٦ خمر الرضا .

شاعر الغزل

الغزل نشيد الحب .. والحب .. ما هو ؟ هل قرأت قصته ؟ ان
(ناجي) يقول :

هي قصة الدنيا .. وكلمة آدم
كل به قيس اذا جن الدجى
فاذا تداركه النهار طوى المدا
كل له (ليل) ومن لم يلقها
كل له (ليل) يرى في جهنم
ويرى الاماني في شعير غرامها
الكون في احسانها والعمر عند
منا له دمع على حسواء
نزع الالباء وباح بالبرحاء
مع في القواد وظن في السعداء
فحياته عبث ومعض هباء
سر الدني وحقيقة الاشياء
ويرى السعادة في اثم شقاء
مد حنانها والخلد يوم لقاء (١)

وناجي يرى في الحب متنفسه :

نظمت رحمة الوجود جميعا
واذا ضاقت السماء بشجوى
كم تمنيت والصدور تجافيني
كم تمنيت صدرك البر يرتاح
هات وسدني الحنان عليه
جسدي متعب وروحي متعب (٢)

(جسدي متعب وروحي متعب) .. نظمت رحمة الوجود جميعا
وبك الرحمة التي ليس تنضب) ... شقاء عيش تمسحه هناة الحب ...
هذه هي خلاصة قصته ...

(١) الدكتور ناجي ، ديوان وراء النعام ص ١٨٢ و ١٨٣ قصيدة دين الاحياء

(٢) الدكتور ناجي ، ديوان (ليل القاهرة) ص ١٩٤ قصيدة خمر الرضا .

وهو يؤمن بالحب دواء لكل داء :

يا أيها الحب المطهر للقلوب وغاسل الأرجاس والأدران (١)

وهو يستمره ٠٠ أنى أقرأ وصفه له وكأننى أرى نشوان يتشرف
كأس الرحيق ٠٠٠٠ ألا يخيل اليك هذا حين تسمعه يقول عن الحب :

ما أعظم النجوى الرفيعة كلما يشدو بها روحان يحترقان
أنفا من الدنيا وفى جسديهما ذل السجين وقسوة السجان
فتطلعا نحو السماء وحلقا صعدا الى الآفاق يرتقيان
وتعانقا خلف الغمام وائرعا كاسيهما من نشوة وحنان (٢)

لقد تساءل الدكتور طه فى آخر حديثه عن ديوان ناجى (وراء الغمام)
تساءل عن عنوان الديوان مقررًا أنه لم يفهمه ، وخشى (أن يكون العنوان
متكلفا ، كما أن كثيرا من المعانى والألفاظ ومن الأوزان والقوافى متكلف
أيضا) (٣) .

لقد تذكرت سؤال أستاذنا الدكتور طه وأنا أقرأ هذه الأبيات ، لقد
مر بنا أن (ناجى) كان شقيا بدنيا ، ضاقتا بهذه الأرض ٠٠٠ وكم شكا
منها إليها ٠٠٠ الى أهلها ، والى ليلى والى أنهارها والى بحارها فلم تجده
الشكوى ولم يغن عنه الأنين شيئا ٠٠٠ وهذا عندي هو سر تطلعه الى فوق
٠٠٠ الى السماء ٠٠٠ الى وراء الغمام ٠٠٠

هذه رغبة نفسه أطلقها على جمع من شعره ، وهو بضعة من تلك
النفس لينم العنوان كسائر شعر الديوان عن أمل مشرب ٠٠٠ وليشف
العنوان كسائر شعر الديوان عن روح محلقة ٠٠٠

ولعل هذه الأبيات ولا سيما العبارات التى ميزتها تؤيد هذا التفسير
عندك بعد أن أوجت به الى ٠٠٠

وناجى رقيق فياض العاطفة تستطيع دمة من الحبيب أن تظهر
للدنيا التى أشقته بحرا من الآثام ٠٠٠ وهل أرق من هذه المناجاة :

يا مناجاتى وسرى وخيالى وابتداعى
ومتاعا لعيونى وشميمى وسماعى

(١) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ١٩٦ .

(٢) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ١٩٦ قصيدة خمر الرضا .

(٣) الدكتور طه . كتابه حديث الأرباء ج ٣ ص ١٥٧ .

تبعث السملوى وتنسى الموت مهتوك القناع

دمعة الحزن التى تسكبها فوق ذراعى (١)

وناجى العاشق روح شفافه هفافة مجنحة ٠٠٠ اسمعه معى تطرب

لقوله :

سموت كأنمنا أمضى الى رب ينادىنى
تلا قلبى من الأرض ولا جسدى من الطين

سموت ودق احساسى وجزت عوالم البشر
نسيت صفائر الناس غفرت اسساء القدر (٢)

ولا ينفى هذا ارتداده الى بشريته أحيانا ورغبته فى الحب حسيا

ثالثا :

شفتى موتورة ظمآنه جنت جنونا (٣)

انه مضطرم العاطفة متاجج الرغبة ولكنه لا ينال ، فيفرغ شحنة
الشوق الملتهب فى المصافحة :

وكان الآن كفى حملت ثارا دفيننا
تتمنىاك حبيسا عندهما العمر سجيننا
طائرا الفى على راحتها وكرا أميننا
وشمعا قاسيا هادىء النور مبیننا (٤)

وأحيانا يضعف أمام رغبات الحس فيصيح فى الخلاء :

أجر شفتى من عذاب الظما أما أذن الله أن ترجمنا
أتمن فى الهجر حتى ترانا بكيننا دما واحترقنا فما (٥)

ولكن الذنب ليس بذنبيه وإنما هو الهوى وتلك جنايةته

وإذا حل الهوى هيهات تدرى كيف كانا

-
- (١) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ٥٢ قصيدة البيت الحى
 - (٢) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٢١ قصيدة صلاة الحب
 - (٣) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٢٣ قصيدة مصافحة الوداع
 - (٤) الدكتور ناجى • ديوان وراء الغمام ص ١٢٣ قصيدة مصافحة الوداع
 - (٥) الدكتور ناجى • ديوان ليالى القاهرة ص ٢٢٢ قصيدة العائد

فاذا ما ملك الأنفس اصلاها عوانا
فهو نصل مستقر ولهيب لا يداني (١)

وناجي ملتهب الحس تحس وقده في بيتيه :

بورك الكرم والقطوف وأوقات
كلما أطلقتك كفى استردتك
كأن العناق فيها اعتصار
كما يحفز الغريم الثار (٢)

ولكن (ناجي) ، كما نادى بالشعر الحس ، خاطب الروح .

كم هذا الليل وراى الكرى
ناداك من أقصى الربى فاسمعى
نادى أليفا نام عن شجوه
أحبك الحب وغنى به
وانما أطلب حديث العنلا
ألا أبا سبهه يغنى شجوا
لمن على طول الليالى نداء
عذب تجنيه عزيز جناه
عف الأمانى والهوى والشفاه
أنشودة الخلد ونحن الرواه (٣)

وكثيرا ما يعف ناجي في شعره :

قد عرفنا صولة الجسم التى
أمرتنا فعصينا ، أمرها
حكم الطاغى فكنا فى العصاه
تحكم الحى وتطفى فى دماء
وأبينا الذل أن يغشى الجباه
وطردنا خلف أسوار الحياه

يا المنفيين ضللا فى الوعور
كلما تقسو الليالى عرفا
طردا من ذلك الحلم الكبير
يقبسان النور من روحيهما
دميا بالشوك فيها والصمغور
روعة الآلام فى المنفى الطهور
للحظوظ السود والليل الضير
كلما قد ضنت الدنيا بنور (٤)

انه يسمى لذة الاثم حظا أسود وليلا ضيرا . . . هنا روح متألقة . . .
وهو يتفانى فى الحب حتى ليبدل من أجله ما يقضى به على سمواه :

يا لها من خطبة : عمياء لو
ولى الويل اذا لبيتها
قد حنت رأسى ولو كل القوى
أفنى أبصر شيئا لم اطعمها
ولى الويل اذا لم أتبعها
تشترى عزة نفسى لم أبعها (٥)

حتى اذا أوهقه الألم وأمضه الشجن صرخ يائسا مجهودا :

- (١) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ١٢٤ أغنية فى هيكल الحب .
- (٢) الدكتور ناجي . ديوان ليالى القاهرة ص ١٠٢ السراب فى السجن .
- (٣) الدكتور ناجي ديوان ليالى القاهرة ص ٢٦ أنوار .
- (٤) المرجع نفسه ص ٤٤ - ٤٥ قصيدة الاطلال .
- (٥) المرجع نفسه ص ٤٦ قصيدة الاطلال .

أعطني حريتي أطلق يدي
آه من قيدك أدهى معصني
اننى أعطيت ما استبقيت شى
لم أبقيه ؟ وما أبقى على
ما احتفاظى بعهود لم تصنها
والام الأسر والدينيا لدى
ها أنا جفت دموعى فاعف عنها
انها قبلك لم تبذل لى (١)

اننى أعطيت ما استبقيت شى ... أرايت أجود منه وأندى ؟
أصغ معى الى (اننى أعطيت ما استبقيت شى) ... أليست حلوة
النغم .. والياء فى الألفاظ الثلاثة أكسبت التعبير كله ليونة وطواعية
ورفقا .. اننى لا أسامح بعد هذا من يأخذ (ناجى) بالخطا النحوى
فى لفظة (شى) ، ويفسره على أن يقول (شيا) .. حسب الشاعرا أن
ينقل اهتزازات نفسه الى نفوس أخرى وأشهد أن بيته هن نفسى
وأسرهما ...

غرامك كان محراب المصلى
خلعت الآدمية فيه عنى
كأنى قد بلغت بك السماء
ولكن ما خلعت به الابرء
فلم أركع بساحته رياء
ولا كالعبد ذلا وانحناء
ولكنى حبيبتك حب حر
يفوت متى أراد وكيف شاء (٢)

انه عزيز النفس ، ولقد تثور به عزة نفسه فيطرح من حرص
عليه وضحي من أجله وبذل ما بذل :

وحبيب كان دنيا أمل
من مشى يوما على الورد له
حبه المحراب والكعبة بيته
فطريقى كان شوكا ومشيته
من سقى يوما بماء ظامئا
فأنا من قلع العمر سقيته
خفق القلب له مختلجا
خفقة المصباح اذ ينضب زيته
قد سلانى فتكرت له
وطوى صفحة حبي فطويته (٣)

ولقد عنفت يوما ثورته واضطربت فجمع مادة حبه ، رسائل
الحبيب .. أتعرف ما فعل بها .. أسأله يجيبك :

أشغلت فيها النار ترعى فى عزيز حطامها
تقتال قصة حينا من بدنها لحطامها (٤)

اتحسبه مرتاحا هادى البال ؟ كلا .. لقد احترق هو أيضا ..
بل بكى وهو يحترق :

- (١) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٤٨ قصيدة الأطلال
- (٢) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٦٤ قصيدة كبرياء
- (٣) الدكتور ناجى ، ديوان ليالى القاهرة ص ٦٤ كبرياء
- (٤) المصدر نفسه ص ٦٨ رسائل محترقة

أحرقته ورميت قلبي
وبكى الرماد الآدمي على رماد غرامها

انه وفي حتى في شموخ الكبرياء .. وقد يخيل اليه واليك
انه تبذل وغير رايه ، ولكنها حالات عارضة تعتريه كانبان ، وهو
بعد هذا عاتى الوفاء فلا يزحزحه شيء .. اسمعت حديثه مع الريح ؟
لقد قالت له :

أيها الساهر تغفو تذكر العهد وتصحو
وإذا ما التيام جرح جد بالتذكّار جرح
فتعلم كيف تنسى وتعلم كيف تمحو
أو كل الحب فى رأيك غفران وصفح

هاك فانظر عدد الرمل قلوبا ونساء
فتخير ما تشاء ذهب العمر هيباء
ضل فى الأرض الذى ينشد أبناء السماء
أى روحانية تعصر من طين وماء (١)

انى الملح تشوئك الى الجواب .. ها هو ذا جوابه :

أيها الريح أجل لكنما هى حبي وتعلاتى وباسى
هى فى الغيب لقلبي خلقت أشرقت لى قبل أن تشرق شمسى
وعلى موعدها أطبقت عيني وعلى تذكّارها وسدت رأسى (٢)

أتصدق أن مثل هذه الأخان لا تجد سميها طروبا ، وأن صاحبها
لا يحظى بتجاوب مسعد ؟ انى لست واهمة فها هو ذا الشاعر يحكى :

يا نداء كلما أرسلته رد مقهورا وبالحظ ارتطم
وهتافا من أغاريد المنى عاد لى وهو نواح ونيدم
رب تمثال جمال وسنا لاح لى والعيش شجو وظلم
ارتقى اللحن عليه جائيا ليس يدرى أنه حسن أصم (٣)

ان شاعرنا من طبيعة الوفاء ولكن ماذا يفعل اذا أعوزه المقدر
لوفائه المتجاوب معه ، المغالى بحبه ، أملوم ان راد قلبه على التنقل
فى الهوى ؟

(١) الدكتور ناجى - ديوان ليالى القاهرة من ٥١ قصيدة الاطلاق .

(٢) المصدر نفسه من ٥١ - ٥٢ القصيدة نفسها .

(٣) المصدر نفسه من ٥٣ - ٥٤ القصيدة نفسها .

يا قلب ! صهبا الهوى وبساطه
وقف على متنقلين على الهوى
متبدلين موزندا وأحبة
فالجب آسيه وراء عليه
وكتوسه المتجاوبات الصلح
يبغون من لذاته ما يسبح
ما خاب من حب فأخر يفلح
فيهم ، وبلسمه على ما يجرح (١)

حجج مغرية ٠٠ انى أكاد أتمثل كبرياءه المجروحة وهى تهلى على
قلبه حججها وكأنها أعذار تشفع لها فى نكث العهد ونقض الميثاق ٠٠٠
ولكن القلب العميد يبدو أنه غير مقتنع ٠٠ اذ لو أطاع لما صاح به شاعرنا :

يا قلب ٠ ويح ثباتنا ماذا جنى أترى شعاعا فى البقية يلمح (٢)

لا تحسب هذا البيت ياسا خالصا شان فى الشاعر ذماء من أمل
يبعثه فيه عصيان القلب ٠٠٠ ترى هل عند القلب أسباب للعصيان ؟ ٠٠
هل وراء اصراره على الوفاء سر ؟ انه يريد أن يستوضحه ولكن كبرياءه
مشعنة بالجراح لا تحتمل جديدا وهى تقسر نفسها قسرا على الالباء ماذا
يفعل اذن ؟

ليصطنع الغضب ٠٠٠ لئيزجر القلب فى تساؤل المستنكر وهو فى
استنكاره يتلهف على جواب :

يا قلب ٠ ويح ثباتنا ماذا جنى أترى شعاعا فى البقية يلمح
وانتصر القلب الذى يدين بالوفاء ، وما هو ذا الشاعر يترطب لسانه
بعتاب رقيق وكأنه صلاة :

يا أيها الحب المقدس هيكلا
كثرت ضحاياه وطال قيامه
يا دوحة الأرواح يحمد عندها
أينال ظلك والرعاية عابت
ويبيت يحرمه قتيل صباية
ذاق الردى من عابديك مسبح
وصيامه فمتى رضائك تمنع ؟
فىء ويعبد زهرها المتفتيح
بجلالك البادى وآخر يمزج
قضى الحياة الى ظلالك يطمح (٣)

انه صفوح ٠٠٠ تسأله كيف الحال فيقول :

كم تقلبت على خنجره
واذا القلب على غفرانه
لا الهوى مال ولا الجفن غفا
كلما غار به النصل غفا (٤)

(١) الدكتور ناجى ٠ ديوان وراء الغمام ص ١٦٠ - ١٩١ قصيدة الختام ٠

(٢) الدكتور ناجى ٠ ديوان وراء الغمام ص ١٩١ قصيدة الختام ٠

(٣) المصدر نفسه ص ١٩١ - ١٩٢ والقصيدة نفسها

(٤) الدكتور ناجى ديوان ليلى القاهرة ص ٤١ قصيدة الأطلال ٠

انه محب رقيق ٠٠٠ رقيق حتى حين يلوح بالهجر والفراق :

وهب الطائر عن عشك طارا	جفت الغدران والثلج انمارا
هذه الدنيا قلوب جمعت	خبت الشعلة والجمر توارى
واذا ما قبس القلب غدا	من رماد لا تسله كيف صارا
لا تسل واذكر عذاب المصطفى	وهو يذكيه فلا يقبس نارا (١)

وهو في الهجر حنان مشتاق :

كثر الهجر على القلب فهل	من سلو او يعاد يرتضيه
أنت فجر من جمال وصبا	كل فجر طالع ذكرنيه
كيف جانبك أبغى سلوة	ثم ناجيتك في كل شبيه
أيها الساكن عيني ودمي	أين في الدنيا مكان لست فيه (٢)

ولا يلبث طويلا حتى يغلبه هواه فيستعطف :

الى معا ذنبي اليك وكفرا	هبنى أسات الم يحن أن تغفرا
ظمان لو باع الأحبة قطرة	بالعمر والدنيا جميعا لاشترى
أخفى جراحك واستعز بفتكها	غريدك الشادى المخلق في الذرى (٣)

ولناجي في الحب تاريخ حافل ، وسأدعه يروى لك قصة من قصص محبه :

زرتني كالربيع في موكب الزهر له روعة وفيه رواء
ولك الوجه أومض الحسن فيه والتقى السحر عنده والذكاء
وشحوب كظل خمر وللندمان تجلو شحوبها الصهباء
ولك الجيد أتلعأ أودع الصانع فيه من قدرة ما يشاء
قد من مرمر شعشعه الفجر بورد وصب فيه الضياء
وأنا الطائر الذي تصطبى نفسي السماوات والذرى السماء
راشنى صائد رمانى فأدمانى وولى الجانى وعاش الداء (٤)

أيها أروع موكب الزهر أم معرض الحسن والسحر والذكاء ؟ هل راقك
هذا اللون من الشحوب كظل الخمر ؟ وهل أطربك الغموض الفنى فى قوله
(أودع الصانع فيه من قدرة ما يشاء) ؟

(١) المصدر نفسه ٤٨ القصيدة نفسها •

(٢) المصدر نفسه ٨٨ - ٨٩ قصيدة عذاب •

(٣) المصدر نفسه •

(٤) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٩٢ - ٩٣ ملحمة السراب •

وبما رأى فى حبه ، هذه المشاهد التى يروونها فى هذه الأبيات :

عشت حتى أرى جمائل حبي تتهادى كشامخ ينهار
تحت عيني ويدبل الحسن فيها ويموت الربيع والأنوار
ما انتفاع الفتى بموحش عيش بقيت كأسه وطاح العقار
وبقاء البساط بعد الندامى كأس سم بها يدور البوار
ما انتفاعى وتلك قافلة العيش وفى ركبها اللظى والدمار
الدمار الرهيب والعدم الشامل واللغج والضنى والأوار

أى عذاب!

انك تقرأ سيرة حبه فينالك البهر من كفاحه وتوزعه بين الرضا
والغضب والشك واليقين والوفاء والغدر والتذكر والنسيان ..

زعم مرة أنه سلا فانطلق يرحب بضيف السلوان :

فى كفه كأس يقدمها تمحو العذاب وتغسل الندما

وتسأله عما فى الكأس فيقول كالمستريح وهو المعنى :

فيض من النسيان يغمرنى انى لأحمد سيله العرما
مستسلما للموج يغمرنى فرحان حين أعانق العدا (٢)

أتصدق أنه (فرحان) حين يعانق (العدا) ؟ ... ان بيته
الأخير يشى بحسرتة ...

ماذا تنتظر أن يكون قلبه بعد أن شرب من هذه الكئوس وغص
بها ، وعانى من هذه الأهواء لقد

مزقته فصار والله لا يقدر حتى أن يسأل الله رفقا
لجة بعد لجة كلما صارع ردت له أمانيه غرقى
فيلق بعد فيلق حجب الشمس ولم يبق للنواظر أفقا
وسنينان الغروب تغزوه حمرا وسنينان العذاب تطعن زرقا
وخيوش الظلام تزحف زحفا وثقال الأقدام تسحق سحقا (٣)

وهو على ولعه بالغيد يسخط أحيانا عليهن ، هؤلاء الدمي ، هؤلاء
الأصنام الجميلة ... ويزجر قلبه فلا يرعوى :

-
- (١) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ١٠١ السراب فى السجن .
(٢) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٨٥ قصيدة النسيان .
(٣) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٧٢ قصيدة بعد الفراق .

يا قلبى الشكاكى المعذب هذه الشكوى لما ؟
يا طفلى النواح آن اليوم أن تتعلما
أسفى لقالى الدامع تبذله لمخص الدمى
تبكى على العرش المصو غ من المدامع والدمى
تبكى تراب الأرض مصبوغا بألوان السما (١)

لا تصدق ٠٠٠ انها ثورة غضب كسحابة صيف ٠٠٠ أتذكر طول
شكواه من الحياة وتمنيه الموت واشادته (بمباهج) القبر ؟ أنعرف ماذا
حدث بعد هذا ؟ لاح له من يحبه فسرعان ما نسي آلامه وانطلق يقول :

لولاك والعهد الذى عقدت بينى وبينك مهجتى ويدي
أضجعت جنبى جوف غيبه وأرحت فيه بالى الجسد (٢)

ووافاه الحبيب وصفا له فتهلل كالطفل وابتهج كالصفور حظ على
جنة فيها الماء والحب والشجر ، لقد سمعته جذلان يقول :

طابت بك الأيام وافرحته أنت الأمانى والغنى والحياة
فليذهب الليل غفرا له مادام هذا الصبح عقبى دجاء (٣)

انها الطفولة المتجددة الكامنة فى طبيعة كل عظيم ٠٠٠ ولعل هذه
الطفولة المتجددة الكامنة فى طبيعته ، يرفدها حبه للجمال ، وهيامه
بالحب ، هى التى حدث به الى التراجع عن تمنى الموت ، بل حدث به الى
الاشفاق على نفسه منه حتى ليتلهف على الحياة ونعيمها ويتساءل .

يا أيها العالم الأخير ماذا ترى فيك من نصيب
أراحة فيك للضمير أم موعد فيك من حبيب (٤)

أرأيت انه يتمنى لو اتصلت مواعيده فى الأخرى كالأولى ٠٠٠ ولعله
تذكر برمه بالحياة وأحس أنه يناقض نفسه بمخايلتها فراح يفسر جزعه
من الموت بجهل الحى له ، ولو علمه لاستعذبه ٠٠

كم يعذب الموت لو تراه أو كان فيك اللقاء يرجى
ينفض عن عينه كسراه ويقبل الراقد المسجى (٥)

لكن شكا بما تجن خيم فوق العقول جمعا
عجبت للمراء كم يشن ويستطيب الحياة مرعى (٦)

(١) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة ص ٨٢ قصيدة الصنم الجميل .

(٢) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ٤٩ قصيدة المياد .

(٣) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٢٥ قصيدة النوار .

(٤ ، ٥ ، ٦) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام ص ٦٠ قصيدة الليالى .

انه لا شك يلمح نفسه فى هذه الآيات :

ويتصل بهذا فزعه من الشيب نذير المغيب والحرمان من الحبيب :

يا ويلتا من عمرى الباقي هذا سواد تحت أحداق
هذا بياض الشيب وأعجبى من مغرب فى زى اشراق (١)

ويبدو أن الحب يخرج المحب عن طوره ويبدل صورته أحيانا ، والا
فكيف يقول ناجى السخى الخير مثل هذا البيت المشوب بالأنانية :

ونود لو خلت الحياة لنا كطريقنا وغدت بلا أحد (٢)
انه طغيان الحب ... فاعذره ..

وناجى المتدفق العاطفة فى الحب والفرح ، عميق العاطفة فى الحزن ،
سجين الدهم ، شجى النواح ... سهر عند مريض حبيب يعنى به ، وكان
وداعه فى الصباح فودعه بقصيدة باكية منها :

فيم الغدو غدا وأين رواحى ويح الصباح! لقد مضى بصباحى

.....

يا هاتفا باسمى فديت مناديا رد النداء عليه حر نواحى
يا آسى الآسى لممت جراحتى وأسدت يوم نواك أى جراح
طأطأت للبين المشتت هامتى فى أى آلام وأى كفاح
هدم الضنى العادى قوى شكيمتى وثنى معاندتى ورد جماحى
وطغى على الملك الموسد بيننا فى لطف زنبقة وضعف أقاح (٣)

ولكنه ما لبث أن تسلى بحكم طبيعة الطفولة المتصلة فى نفس
الفنان فتراه بعد أن أطلق هذه الأناث :

عاد الشقى الى قديم شقائه ومحا من الدنيا السعادة ماحى
ويح الحياة اليوم أين جمالها وعلام اخفاقى بها ونجاحى
أنت الذى وهب الحياة لميت فى الأرض منفرد بغير طماح
أشرق فى ظلماتها وغمامها وطلعت مثل البارق اللماح (٤)

تسلى ووجد على الاثر من يقول له :

أدركت عندك يومى الموعدا ولقيت فيك مثالى المنشودا

(١) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٧٥ قصيدة شكوى الزمن

(٢) الدكتور ناجى ٠ ديوان ليالى القاهرة ص ٨٦ قصيدة المساء ٠

(٣) الدكتور ناجى وراء الغمام ص ١٤٢ قصيدة وداع المريض ٠

(٤) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٤٣ قصيدة وداع المريض ٠

وافرحتى بك فرحة الطفل الذى يلهو ويخلق كل يوم عيدا
وافرحتى بك فرحة الطير الذى ملأ الروابي المصغييات نشيدا
طربت لصدخته وصفق طاهرا جدلان فى عرض الفضاء سعيدا
فى موكب من قلبه وحبيبه من راح تحسبه العيون وحيدا (١)

أرأيت ؟ ... انه لم يعد وحيدا .. واذا تأملت الاسم الذى خلعه
على القصيدة (فرحة جديدة) وجدته ينم عن شعور بالتلهى ، وأنه قلب
الصفحة وبدأ عهدا جديدا وفرحة جديدة . انبعا الطفولة كما قلت ،
والأدب كما يقول شاعرنا نفسه (تنبت جذوره وعناصره فى الطفولة ،
فمن المألوف أن الطفل ينم على اللحن الموسيقي ، ويستأنس بالغناء ،
ويحب القصة الخيالية ، وقد يؤلفها هو نفسه .

والواقع أن الأديب طفل لم يكبر .. والأديب الصحيح من له
خصائص الطفل ، فى فرحته بالأشياء ، وسذاجته ، وتهلله ، وضحكته،
وخياله ، وفرحه وابتهاجه بالموسيقى (٢) .

انه سريع الاستجابة ، كصفحة القدير تتأثر بأوهن النسيم ،
والحب عنده قد يولده العطف كما يولده الجهد والاعجاب بسواء
بسواء . لقد عرفنا أنه حزين .. والحزين من طبعه منهطف الى كل
حزين .. منجذب الى كل شئ محزون .. وهكذا .. يرى ناجى
امراة حزينة فيميل اليها وما أن يتأملها حتى يهتف :

فانا ان لم أكن توأمها فكانى كنت فى الغيب اخاها
نحن أرواح حيارى ثملت وانتشت سكرى على لحن أساها (٣)

ثم يتحدثها حديث ماهوف وجد خدن روحه وصورة نفسه :

قربى روحك منى قربى ظلينى واغمرينى برضاها
وتعالى حدثينى .. حدثنى أنت امرأة شجوني وصداه (٤)

انه ينشد الظل والأوى والسكينة .. ان قلبه مشبوب يهفو الى
... شئ ...

ويبدو ناجى لعينيك أحيانا حالما يهتم :

أخيالا كان هذا كله ذلك الجسر الذى كنا عليه
والمصابيح التى فى جانبيه ذلك النيل وما فى شاطئيه

(١) المصدر نفسه ص ١٤٤ قصيدة فرحة جديدة .

(٢) من مقال للدكتور ناجى عنوانه (سيكولوجية الأديب) مجلة الرسالة من ١٩٤

(٣ ، ٤) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ١٥٦ - ١٥٧ قصيدة الى س .

وشجاع طوفت فى مسائه وظلال رسبت فى ضفتيه
وحبيب وادع فى ساعدى ووعد نلتها من شفتيه (١)

وهو من دنياه الخاصة فى عالم فريد وأحلام يقظته حشد حافل .
فاذا رأته صامتاً فلا تحسبه ساكناً .. انه فى صمته يتحدث ويسمع .

رفرف الصمت ولكن أقبلت من أقاصى السهل أصداء بعيدة
تتهادى فى عباب ساحر مرسل للشط أمواجاً مديدة
كم نداء خافت مبتعد تشتت اذن الهوى أن تستعيده
عاد منساباً الى أعماقها هامساً فيها بأصداء جديدة (٢)

رفرف الصمت ولكن ها هنا كل ما فيك من الحسن يغنى
آه كم من وتر نام على صدر عود نوم غاف مطمئن
وبه شتى لحون من أسي وحنين وأنين وتمن
رقد العاصف فيه وانطوت مهجة العود على صمت مر (٣)

وناجى عينه نفاذة تلمح الحسن متبدياً ومقنعا ، ويخاطبه فى العادة
الهيفاء ، ويخاطبه فى الراهبة الباكية سواء بسواء .. أما حديثه مع
الأولى فدائع .. وأما حديثه مع الأخرى فها هو ذا :

يا ربة الحسن الذى تصبو له مهج العباد وترتجيه جميعا
الحسن من حق الورى وحملته متأبياً مستخفياً ممنوعاً
فى الدير مثواه وفى جنح الدجى يتحدر الحسن الشهيد دموعاً
تتحرق الدنيا عليك وربما أوقدت نفسك فى الظلام شموعاً (٤)

وناجى متهيم بالجمال ، يهواه بل ويقدسه ، حتى ليقعه الهوى
والتقديس أحياناً فى مأزق انسانية لو صرح هذا التعبير ، كهجائه
لمكشوف بنى بحسنة (٥) . . . وكان الظن بناجى الطبيب الشاعر
فى مثل هذا الموقف أن يحمى للأقدار تعويضها الرجل عن النور
السليب ، الجمال الحبيب . . وهل الأبصار شئ ينال بالاكساب الذى
يجسب لصاحبه الفضل فيمسا كسب ثم عجز عنه ذلك الرجل حتى
يلام عليه ؟ ولكن اعزاز ناجى للجمال وضنه به وتعصبه له هو الذى
أثار غضبه على المسكين .

(١) الدكتور ناجى « ليلى القاهرة » ص ٢١٣ - ٢١٤ قصيدة الخريف .

(٢) الدكتور ناجى . ديوان ليلى القاهرة ص ٢١٤ قصيدة الخريف .

(٣) الدكتور ناجى . ديوان ليلى القاهرة ص ٢١٤ - ٢١٥ قصيدة الخريف .

(٤) » » ص ١١٠ قصيدة الراهبة الباكية .

(٥) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام ص ١١١ قصيدة مجاء أسمى بفيض .

وولع ناجى بالحب والجمال والشعر يعزى فيما يعزى الى شعور
متأصل فيه بقصر عمره .. وهذا الشعور يلوح لك فى ثنايا شعره
كقوله :

ذاك عهدى لكن قلبك لم يقض ديون الهوى ولم يرع عهدا
والوعود التى وعدت فؤادى لا أرانى أعيش حتى تؤدى (١)

لهذا يريد أن ينتهب اللذات ، ولهذا يريد أن يتعجل المسرات .
على أن السبب الأقوى لا يزال عندى يكمن فى طبيعته الخيرة وفطرته
النقية التى تدفعه بوحى منها الى الخير والجمال والحب .

وقد كان يجب الحب نفسه ومن ثم كان كل ما فى الحبيب يوحى
اليه ، ويسر فى أذنه حديثا يعلنه شعره .. فجعله .. وحلاه ،
وذكاؤه ورياءه ، وغضبه ورضاه .. عرائس الهام .. وما بالغريب
هذا .. ولكنك تلمح فى مؤخرة الموكب الحافل .. كلبا صغيرا .. انه
ميكى .. وما عمله ؟

فيم السؤال وكل شئ طيب من أجلها
وينفسه حب قصاراه الحياة بظلمها
سارت وأكل متاعه فى أن يسير بقربها

يستاف نعليها ويأبى فى الوجود متافسا
فاذا تخيل دانيا من تربها أو لامسا
يختال ملء نباحه زهوا ويخطر حارسا

فى وثبة هيهات يسأل ما يكون وراءها
الأمر كل الأمر أن يندو يدافع دونها
والنفس تنكر فى الضحية عقلها وجنونها

اذن ليس (ميكى) فضولا فى الموكب الرائع .. فى نظر الشاعر
على الأقل .. ان الصديق الصغير يؤدى عملا جليلا .

ولقد راق ناجى تعريف تيوفيل جوتييه للحب حتى ليعده أحسن
ما قيل على الإطلاق فى التعاريف الأدبية اذ الحب فيه (أن يسلم شخص

(١) الدكتور ناجى ، ديوان ليالى القاهرة ص ٥٦ قصيدة ذات مساء .

(٢) من شعر له لم ينشر بعنوان « ميكى » .

تساما نفسه لآخر ، وأن يتنازل له عما يملك وما يعتقد . فلا يرى الا بعينه ولا يسمع الا بأذنه ، أى أن تصير واحدا فى اثنين ، بحيث لا يعرف هل أنت ، أم أنت الآخر ، فتمتص شعاعا ، وتنتشر شعاعا ، فتصير القمر مرة ، والشمس أخرى ، وترى كل الخلق والوجود فى الشخص الآخر ، فينتقل مركز الحياة . عندك الى هناك . وتكون مستعدا لأكبر التضحيات وانكار الذات . ومستعدا لأن تتألم على الصدر الثانى كأنه صدرك أنت . والمعجزة أن تتضاعف وأنت تبذل ! هذا هو الحب (١) (١) .

وفى التفصيل دلالة لا تخفى ، لأن سيرة شاعر الغزل . تفسير واف للتعريف ، وشعره فى هذا المجال آيات شواهد .

وما كنا لنحتفى بنزله هذه الحفاوة لولا أنه يتغزل عن شعور لا تقليد ، ووحى لا صنعة ، وطبيعة لا تكلفا .

وهذه النتائج التى استخلصتها الدراسة من شعره لم يغير منها الزمن . فبين يدي الآن شعره المخطوط وهو لحسن الحظ يحمل تاريخا مميزا اذ كتب عليه من ١٩٤٨ - ١٩٥٣ . أى شعر سنين الأخيرة .

وقد وقفت عند هذا الشعر وقفة خاصة عل فيها اتجاهها آخر ، أو رأيا جديدا ، أو تحولا فى سيرة حياة . . فماذا وجدت ؟ الغناء هو الغناء ، والرفيف هو الرفيف ، واليهفة كالعهد بها كلما لاح بها جمال أبو تبندى حسن أو ضاع عير . . والعاطفة واهله منها . . لقد أحسست خفقها قويا معبرا فى شعر الغروب . . أحسستها واعجبت جياشة عارمة لم يبتدأ لها أشواق ، ولم يرو منها أوام .

وقد سمعنا شعر الشباب فى ديوانى (وراء الغمام) وشعر الأرحومة فى ديوان (ليالى القاهرة) ، فهل كان أحر جوى وأرق هوى من شعر الغيب هذا :

أنا وحدى فى البيد حيران هائم	فمتى تذكر القفار الغمام
رحمة يا سماء ان فمى جف	وحلقى عن الموارد صائم
أيها الطاعم الكرى ملء جفنيك	وجفنى من الكرى غير طاعم
أبكنى واستبدى واقض ما شاء	لك الحسن واطلم ونخاصم
غير هذا النوى فان ليالية	ظلال من المنيا حوائم
بالذى صنت عهد له لم أخنه	ومتى خانت الأكف المعاصم

والذى حكمه كأقدار عينيك فما منهما ولا عنه عاصم
أى صوت من الغيوب يناديني فأطوى له الدنى والمعالم
قدر مشعل على شسفة تدعو فأخطو على اللظى غير نادم

صاغ ناجى هذا الشعر المشبوب فى يونية سنة ١٩٥١ أى قبل
منيته بسنة وبضعة أشهر فجاء كشفق المغيب أشد ما يكون احمراره
توهجا وضراعا قبل الرحيل ، وكان الشمس المذاهبة ولوع بالحياة
والنور والنهار ، فهى تريق على صفحته ، وتذيع فى جوه اشواقها
الملتبهة الدامية كى .. لا ينسى .

أبكنى واستبد بى واقض ماشاء لك الحسن وأظلم وخاصم
لا أريد أن أفسر هذا البيت كى لا يفسده الشرح والتفسير ولكنى
سأترك الشاعر نفسه يفسره بشعره لعل تفسير الشعر بالشعر أكرم
لجمال الفن .. وها هو ذا ناجى يفصح عن السر فى طلبه الغريب .

يا روح	روحى	ودوائى	وجرونى
على قلبى	تنقلى	واذهبى	وروحى
عذابك	يلهم	وهجرانك	يوحى
فما بالك	بالقرب	ووجهك	الصباح

هذه فلسفة الحب ! .. لتكن .. سمها ما شئت .. ولكنها
عندى ، حنان ...

ومن شعر ناجى نتبين أنه ليس من الموحدين فى الحب فله محاب
كثيرة ...

وقد ذاق ألوانا من الحب فتارة يفتنه (السحر والذكاء) ، وآنا
يغريه الجمال .

ومن محابه البيضاء الزاهرة والسمراء الفاتنة .. وكما راعه
الاشراق فى الأولى سببته السمرة والجاذبية فى الأخرى حتى كاد أن
يعبدها ، ومن صلاته لها هذه الترنيمة :

ملكى ومحرابى	وقدس فؤادى المتقبل
لمن الجمال الفخم	يرفل فى الغلال والحلى
متألقا فى خاطرى	متألقا فى المحفل
أقبل بما ولى به	الدنيا وهات وعلى
وابسط جناحك فوق	قلبنا الغداة وظلل

طر حيث شئت فان دنوت لناظري فتمهل
واها لهدى الطلعة السمرء عند المجتلى
بغلازل الأضواء وشتها رقاق الأتمل
وشت بشاشيتها نضارة وجهك المتهلل
فكان طفل الفجر نام على وساد جدول (١)

ولا أريد أن أزيد من الأمثلة فهي قريبة منا في الصفحات السابقة ...
وقد أرضى الحس كما أغلى من حب الروح سواء بسواء .
على أنه مغبون قلما ينال ، ولعل هذا هو السر في تزعزع ثقته
بالوفاء على رغبته فيه .

وشاعر الغزل تغنى به منذ طفولته الباكرة ، فقد ولد شاعرا كما
يولد كل صادق غريدا . . جاد ناجى بالشعر وهو فى الثالثة عشرة من
عمره ! . . .

وطبيعى ألا ننتظر فى مثل هذه السن الغضة فحولة أو تدفقا ، ولكن
حسب الغلام ابن الثالثة عشرة أن يقول :

هل أنت سامعة أنينى يا غاية الفلب الحزين
أذن عرف الأنين مبكرا . . .

يا قبلة الحب الخفى وكعبة الأمل الدفين

لقد نم على الصغير شعره . . لقد عرف الحب غير أنه يخفيه . . وقد
كانت له آمال تتعلق بهذا الحب وهو فى العاشرة أو نحوها ، حتى يمكن
وصفها فى الثالثة عشرة بالدقينة ! . . وهذه الآمال بالطبع تتجاوز
رغبات الطفولة الولوع بالحلوى واللعب :

انى ذكرتك باكيا والأفق مغبر الجبين
والشمس تبلى وهى تغرب شبه دامة العيون
أمسيت أرقبها على صخر وموج البحر دونى
جلسة شعرية بلا مرء . . .

والبحر مجنون العباب يهيج نأثره جنونى

(١) من شعر له لم ينشر بعنوان « سمرء المحفل » .

رفقا يا شاعرنا الصغير .. مهلا يا صغيرنا الشاعر ...

ورضاك أنت وقايتي فاذا غضبت فمن يقيني

لقد ارتدت طفولته المتمردة المتعلقة بمجد الفن الى ضعفها اللائم
بالحنان يدفئها ويقيها . ان هذا أشبه بنداء طفل الى أمه يناشدها
الرضا ويفزع من غضبها منه الى نداء الحبيبة .

وهل اين الثالثة عشرة الا طفل .. ولكنه طفل واعد .. وقد
صدقت الأيام وعده فكان لنا منه شاعر الغزل .

شعر ناجي

الشعر عندي هو النافذة التي أطل منها على الحياة
واشرف منها على الأبد ..

وما وراء الأبد ..

هو الهواء الذي أنفسه

وهو البلمب داويت به جراح نفسي عندما عز الأساة
هذا هو شعري

وما دام شعره كان نافذته الى الحياة ، اذن لقد ضمنه مراثياته
وآراءه وانفعالاته بما شاهد ورأى .

ونحن نريد هنا أن نطالع هذه المشاهد والآراء والانفعالات ثم
نحكم عليها .. لا كما نحكم على العرض السينمائي نلقى الحكم في كلمة
أو عبارة ثم نمضي في طريقنا المرسوم بعد أن ننسى الرواية بعبوبها
ومحاسنها على السواء .. كلا .. اننا نريد أن نرى شعر ناجي بمنظار
آخر ونحكم له أو عليه حكما من طراز آخر .. لقد كان الشاعري
يحب من الناقد (أن تكون وظيفته كاتب حسابات الفن) ، (عليه
أن يدون الحسابات ، ويرصد الدخل والخرج ، ويعين الرصيد ، ويمحو
من العملة القديمة ليبسدها بعملة جديدة ، فهو من ثم يكون حافظ
التراث القومي والتراث الانساني) (١) .

(١) الدكتور ناجي (رسالة الحياة) ص ٨٣

ويرى طيبينا الشاعر أن من واجب الناقد أيضاً (أن يحاول وضع العمل الأدبي في مكانه من القيم الانسانية الثابتة ، بعبارة أخرى يتعدى الخصوص للعموم ، وهو لن يصل الى هذه النتيجة الا اذا اعتبر النقد وعياً للحياة الانسانية) (١) .

اذن تعال فمعني تبحث عن مواطن الوعي للحياة الانسانية في شعر ناجي . . ولكن بعد أن تبحث مع المادة التي صيغ منها هذا الشعر .

لقد رأيت كيف استهل ديوانه الأول (وراء الغمام) بالآيتين الذي لم يخفت حتى انتهى منه ، فإذا نجته واستقبلت ديوانه الآخر (ليالي القاهرة) فإن عينيك لا تكاد تتحول عن شكوى الألم في صور شتى ، فقصيدته (في الظلام) فيها شجن قتال وطباً مرد وطيوف رعب وآلام ووجد وجهه وأنفاس مضطربة وضيق جانم ووجنة ووحشة وركود ودموع ودم وأشواك وضنى وتعذيب ، وهي في جملة كابية مظلمة الا ما يرمض فيها من حين الى آخر ، مثل قوله :

فيا أيكة مد الهوى من ظلالها ربيما على قلبي وروضا من السعد (٢)
وقصيدة أنوار ، فيها الألم أيضا وهو أنه ذكرى تضاعف التمسيم
أثائل ولا تترنق صفاء :

يا من غفت والفجر من دارها شعشع في الأفاق أبهى سناه
قد طرق الباب فتى متعب طال به السير وكلت خطاه
نقل في الأيام أقسامه يبغي خيالا مائلا في مناه
عندك قد حط رجال المنى وفي حمى حسبك القى عصاه (٣)

وقصيدة (أحلام سوداء) عنسوانها كاف للدلالة على ما فيها من سوداوية وإبتكار وشك ووطنون وحذر وغيوم وأنين وجراح . . وقصيدة (الميعاد الضائع) قصيدة خابية فيها الفزع واللهفة وقوة الحياة وشقاء الأيام والأقدار المسيئة والأحزان والنحيب والدموع والأمل الضائع والسعادة الذاهبة . .

لا تخل هذه الألفاظ من عندي في معرض التحليل ولكنها الفاظه هو الميثوثة في قصائده . . وانما عملي أنا هو رصد لها لدلائلها على نفسيته .

(١) الدكتور ناجي رسالة الحياة من ٨٥ .

(٢) الدكتور ناجي ديوان ليالي القاهرة من ١٧ - ٢٤ قصيدة في الظلام .

(٣) المصدر نفسه ص ٢٥ قصيدة أنوار .

والقصائد الباقيات ؟ ها هي :

(اثنان في سيارة) فيها سوداوية . . ألم يستهلها بقوله :

العمر أكثره سدى وأقله صيفو يتاح كأنه عمران

وفيهما اللوعة والحرمات والاستخفاف بالحياة وغايتها .

(لقاء في الليل) وهذه أيضا لم تخل (مما يسوء) وحوالك .

(ختام الليالي) فيها الهجران والتعذيب والفراق واللهيب والدموع .

(الاطلال) انها قصة حب عاثر ، التقيا وتحابا ثم انتهت القصة

بأنها هي صارت أطلال جسده ، وصار هو أطلال روح

. . . وطبيعي أنك لا تنتظر من هذه القصة شعرا

منطلقا بل دموعا منظومة . . .

(ذات مساء) و (رابية) و (يأس على كأس) كلها حزينة

(عاصفة روح) قاتمة كابية نفص فيها يده من كل شيء

(كبرياء) فيها الشقاء والسراب والشجن والدماء والضيق

والهموم فماذا تبقى في عالم البؤس ؟

(ذكرى) حمدا لله . . ان الذكرى التي طافت به بأسمه هذه المرة

(رسائل محترقة) وماذا تخلف الرسائل المحترقة غير الرماد

والآلام ؟

(الغريب) توجس من الغد وجراح ولظى ووحدته .

(بعد الفراق) انه فيها يتمزق .

(شكوى الزمن) ترى ما الذي يشكو المرء غير الجحود والتعذيب؟

لم يشد ناجي .

(كل الوري) امتداد للشكوى .

(راقصة) انه يتلهى بوصف ما يسر

(الصنم الجميل) بكاء وندم

(شكوك) فيها دم وندم وموت وعدم . . . جراح وانتقام وعصف

ولذع وسخط وجوى وبرم واضطرام

(النسيان) ، (المساء) ، (عذاب) لا يخفت فيا أنينه عما

سبق

(ملحمة السراب)

(السراب فى الصحراء) سراب وصحراء ! ما وراءهما غير الاقفار
والظمأ للذين خلفا فى نفسه السقم والبرحاء
والضيق واللهفة والتفزز والجراح والأشواك والبأس
والحيرة .. لولا الأمل الذى كان يخالله لقضى عليه .
(السراب على البحر) سياتى البحر والصحراء عنده فى الاقفار
والآلم

(السراب فى السجن) ليس بعد السجين ضيق .

(آمال كاذبة) ، (البعث) قصيدتان كاييتان

(المنصورة) ، (وقفة على دار) ، (الراهبة الباكية) ، (من ن
الى ع) كلها عليها مسحة الحزن .

يل هذا شعر المناسبات ويشغل أكثر من ربع الديوان ولنا عنده
وقفة بعد قليل .

ثم تأتى هذه المقطوعات والقصائد .

(حب على الصحراء) فيها جفاف وسراب وحر وأباطيل وعبوس
(القافلة الصغيرة) يراها ويرى الدنيا معها ومثلها خيالا أو ضلالا ،
أو محالا .

(عاصفة) فيها الضجر والضنك والحظ الغارب والبلاء والعصف
(عينان) فيها يباب وعقم وحسرة وأسف
(اليها) حب محروم
(بعد الحب) يأس

(أنوار المدينة) شكوى من القدر .

(خمر الرضا) رحمة ناضية وشجى ومجافاة وأزوار وتقطيب

(غصن صغير) فيها صبر يتعلل بالأمل

(الخريف) لا تخلو ، ففيها غمام وكآبة وسقم وهم وشبحوب
وحزن وضباب وملل وحب ضائع وحسرة وبأل مشتت
وجرح .

(العائنه) حتى هذه ليست فيها فرحة اللقاء كما يوحى العنوان

وكان من صنع هذه الهموم شيوع هذه الألفاظ في شعره :

سراب - خداع - جرح - دامي - حزن - بكاء - ملل - كآبة -
دمعة - غبوسة - ظلمة - شك - أحداث - آلام - لهيب - أوصاب - حيرة
المرتاب - لهفة - تمزق - هم - فراق - شكوى - أنين - بأس - عذاب -
لظى - حزان - احتراق - آهة - شقاء - أوام - صدى - تضرع - شجن -
ضنيك - نكبة - حرب للحياة - جزع - ضبيعة - الرشد - الصبر -
الجوى - عثار - شتات - جذوة - زفرة .

ولما كان الحب عنده دواء لكل داء ، وكان همه ومتنفسه ، يشقيه
ويرضيه ، ويسره ويبكيه ، فهو من ثم قد أشاع في شعره هذه الألفاظ :

سلى - راحة - أمل - حنين - حنان - رقة - شهد الرضا -
رحيق - ضحك طفلين - ربوة - شدو - فتنة - رحمة تبسّم - نوار
الحميلة - البرء المرجى - نعمى - الجدول المنساب - النور الطهور -
الحسن - الظلال - الأضواء - روضة - ضاحك - مخضل - أكمام -
الأمانى البيض - اتلاق النجم - نسيم - نبراس - وحى - الهام - فرح
رقص - أمن .

وقد رصدت هذه الألفاظ المنبثة في شعره لأنها عندي مفاتيح
نفسه ، فعندما أراه يكثر من استعمال لفظ « العقوق » أحس أن في
حياته جحوداً يضنيه ، فينفسه في هذا اللفظ الذى يردده أراد أم لم
يرد .

أما الفاظ القلب في شعره من مثل : أساء ، جراح ، غمى ،
هذيان ، ضماد ، شحوب . فدلالتها واضحة . . . أنها غلبة المهينة على
أسلوب صاحبها ، اليس شاعرنا طيبيا ؟

هل اقتصر شعر ناجى في ديوانه على الشكوى والحب ؟

ان الشعر نافذته الى الحياة . . والحياة بلا ريب زاخرة بالوان
أخرى فهل صورها ناجى في شعره ؟

ان له قصيدة بعنوان (الحياة) (١) . . . فلنرجع اليها . . .

كم غادة بين الصبا والشباب تائق الصانع في صنعها
تخطر والأنظار تحندو الركاب ولفظة الاعجاب في سمعها

(١) الدكتور ناجى ، ديوان وراة القمام ص ٢٩

وانظر الى ستيارة كالأجل تخطف خطفا لا تبالى الزحام
هذا الردى الجارى اختراع الرجل هل بعد صنع الموت شىء يرام

وانظر الى هذا القوى الجسدي الباتر العزم الشديدي الكفاح
قد أقبل الليل فمحن الجلد فى رجل يدأب منذ الصباح (١)

هذا بعض ما جاء فى القصيدة ، سقته على سبيل المثال ..
والقصيدة فى مجموعها لوحة كبيرة عليها صور تخطيطية سريعة تعطيك
الملامح الظاهرة والهيئات .. واللوحة على ازدحامها تستقصيها عينك عند
مطالعها ، ولست فى حاجة الى الوقوف طويلا لأنه ليس هناك ما تتأمله
منها يبعث عنه الشعراء وراء الملامح والهيئات .. ولعل الشاعر قد أحس
بهذا فاستأنى فى آخر القصيدة عندما فطن الى مصير الجمال والغنى ،
ولكنها أيضا فطنة العجولان الذى يقف عند السطح ولا يسيب الاعماق ..
وهل فينا من يجهل أن الفناء غاية كل شىء ؟

وفى موكب الحياة ، استوقفته الراقصة مرتين .. أما راقصة
(ليلى القاهرة) (٢) ، فهو معيا رسام يصور بريشته ما يرى من مقائن ،
ولا عليه أن يروى قصتها ويقرأ صدرها أحزانه ولواعجه ..

وأما راقصة (وراء الغمام) فقد رق لها ورثى طالها .. وأنا
لنلمح فى قصيدة هذا الديوان (قلب راقصة) نلمح الانسيان فى
الشاعر الفنان ، فلم ينظر الى الراقصة نظرة عابث لا يرى فيها الا
تسلية وممتعة رخيصة ، ولكنه رآها انسانا يعصره الصبر والألم ، يضحك
وهو يبكي ، ويبيع السرور وهو مهموم ، يرقص وهو يموت كالذبيح ..

لقد دخل الشاعر المرقص فرارا من الواقع فى جهامته ، الدنيا
ومشاكلها ، وبهرته الأضواء بادية الأمر ، فكاد يكفر بعلمه وفنه ،
وكلاهما أضناه ، وأوشك أن يختزل الحياة فى قد يمين ، وكأس تدور ،
وخمر ونور ..

لم لا أقور اليوم ثورتهم لم لا أجرب ما يحبونا
لم لا أصبح اليوم صيحتهم لم لا أصبح كما يضجوننا (٣)
لم لا تدوق كثوسهم شفتى ان الحنا سسمى وتدمرى
فى ذمة الشيطان فلسفتى ورزائتى ووقار تفكرى

(١) المصدر نفسه من ٣٢ - ٣٣ قصيدة الحياة

(٢) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام من ٢٨ - ٢٩ قصيدة قلب راقصة

(٣) المصدر نفسه والقصيدة نفسها من ٣٨

75

وفي شعر ناجي غناء .. أما سمعته يغنى ؟ .. ان لم تكن فاطرب
الآن :

انت ان تؤمنى بحبى كفنانى
فتعالى روى الظما فى عيونى
أى روح أحسه أى سحر
وكأنى مخلق فى سماء
مستعز بما منحت ، قوى
لا غرامى ولا جمالك فانى
واجفونى لقطرة من حنان
سكبت فى هاته العينان ؟
ومطل منها على الأكوان
أجمع الكون كله فى عنانى (١)

غناء عذب .. أليس كذلك .. أيقظ له بعد هذا أن يقول :

انما الشعر مزهر
وبأوتاره المنى
هو ناي مرجع
هو قيثارة الزما
هو أنشودة الحيا
قد حكى قصة الأمم
تتلاقى وتزدحم
لشجى وما كتم
ن ونجواه من قدم
ة وفيض من النغم (٢)

أيطربك الناي المرن ؟ نعم بلا مرء .. وإذا احترق الناي الطروب ؟
لا ريب أنك تأسى ، ولكن رجع الأنغام يرتد اليك من بعيد فتستروح
اللحن كاملا من جديد .. ويختلط الدمع على الناي المحترق بذكرى
النشيد ، أما أنت وأنا فقصارانا الدمع .. ومن بكى الجمال الغارب
فقد أوفى .. وأما الشاعر الخلاق فان الجزن يلج به فيهم وحده فى
ظلام الليل المحجب بالغوامض والأسرار .. يصوغ الدمع لحنا ويبعث
من الشعر نايًا ، وهو المتهمد المتفانى ، وكأنه يمثل صنع الله الذى يولج
الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، ويخرج الحى من الميت ويخرج
الميت من الحى ، ثم يمضى يوقع أحزانه على الناي الجديد حتى يرق حبيبته
ويسرى اليه .. فإذا لاح له الخيال المرموق هفا اليه ، ورف بجناحين
واستعد ليحتويه فإذا به لا يجد شيئًا .. وإذا بكل هذا حلم يتلاشى كما
يتلاشى غبش العتمة على أنوار الفجر ، ويفتح الشاعر عينيه ويحدق
فيما حوله ، ويصغى ويصغى فإذا الخيال هباء ، وإذا الألمان أصداء .

كم مرة يا حبيبي
أهيم لوحدى وما فى
أصنير الدمع لحنا
وهل يلبى حطام
والليل يغشى البرايا
الظلام شاك سوايا
وأجفل الشعر نايًا
أشعلته بجوايا

(١) الدكتور ناجي . ديوان ليالى القاهرة ص ١٥١ - ١٥٢ قصيدة الغيبة

(٢) الدكتور ناجي ديوان وراء الغمام ص ١٦٧ الى روح الشاعر .

النار توغل فيه والريخ تذرو البقايا
ما أتمس الناي بين المنى وبين المنايا
يشدو ويشدو جزينا مرجعا شيكوايا
مستعطفنا من طويينا على هواء الطوايا
حتى يلوح خيال عرفته في صبايا
يدنو الى وتدنو من ثغره شفتايا
إذا بجلي تلاشي وامستيقظت عينايا
ورحت أصغى وأصغى لم ألف الا صدايا (١)

وفي شعر ناجي قصائد في مناسبات معينة .. أذكر هذه هنا على
سبيل الإشارة والخصر فحسب ، إذ أني سأفرد لها فصلا خاصا لأن شعر
المناسبات عندي لا يحسب للشاعر لأنه لم يواته طبيعة ، بل تكلفا ، فهو
ليس بضعة من نفسه ، ومن ثم فهو ليس جزءا من شعره . وان جهل
اسمه :

وفي شعر ناجي قصائد حماسية .. ولكنه عندي شاعر الغزل
فحسب ولا تنهض تلك القصائد حجة في مقام الجدل .. اسمعت نداء
الشباب : إليك النداء :

وطن دعا وفتى أجاب يوركت يا عزم الشباب
يا فتية النيل المسالم والكريم بلا حساب
جناياتكم مرآتكم ولكم خلافتها العذاب
ولكم جمال الزهر رف على الأماليد الرطاب
ولكم فؤاد النهر رق على المحاني والشعاب
يمضي فيضحك للسهول ولا يضمن على الهضاب (٢)

أحسب أن ليس بي حاجة إلى مزيد فمثل هذه الألفاظ الندية
العذبة ، ألفاظ المسألة والكرم والزهر والجمال والزيف والنهر والرفقة
والضحك من طبعها أن ترقق من صوت المنادى فلا يسمع البعيد ولا يوقظ
النائم ، ولا حتى ينبه الغافل .. ومثل هذه الألفاظ المشرقة المترفة في
عالم اللغة تدخرها متخيلة الشعراء لتسخو بها في وصف الحبيب والقلب
المشوب أو مجازي الطبيعة في حقرة المعشوق المرموق .. ألم أقل لكم ان

(١) الدكتور ناجي وراء الغمام من ٢٥ قصيدة الناي المخرق .

(٢) الدكتور ناجي ديوان وراء الغمام ص ١٥٨ قصيدة نداء الشباب

الشاعر لا يحسن إلا الغزل ؟ فإذا تحمس وأرسل (نداء للشباب) خرج
كهمس المنى ، أو وسوسة الموج للشايطي ؟

ولكن لا نظلم الرجل ، نكمل الآية (لا تقربوا الصلاة ٠٠) ، لقد
ورد في شعر النداء بعد هذا ألفاظ الغيل والليوث والناب وحب مصر
والفداء والتضحية ٠٠ وردت حقاً هذه الألفاظ القوية ولكن في صياغة
رقيقة كالاعتدال من شعر ناجي ، فهو نث من فعلها كما يلف قفاز الحرير
الأبيض اليد الخشنة فيحجب عن الخشونة مظهرها ووقعها ٠٠ ولك الكلمة
الآخيرة بعد هذا ٠٠ هاهو ذا النداء :

أصبحتم كدغيل تحجبه الليوث بألف نواب
قل للشباب : اليوم يومكم الأغر المستطاب
اليوم يبدو حب مصر فلا خفاء ولا حجاب
ان كان اثما يا شباب فلا رجوع ولا متاب
الله ينظر والليالي عندها لكم الحساب
هاتوا الفدا الغالي لمصر وأرخصوه كالتراب
المال ، والأرواح كل ضحية ولها ثواب

والآن حدثني هل يقوى هذا النداء على الاستنفار واذكاء العزائم ؟
ولعل ناجي أحسن هذا المعنى فصاعف من حماسسته في القصيدة
التالية ، التي أرسلها (في يوم الشباب) : أو بمعنى أدق ضاعف من
حماسة شعره ٠٠ فإن حماسة نفسه التواقة إلى خير هذا الوطن وأهله
لا تحتاج إلى مزيد ٠٠ وما بالمدح هذا ولكنه تسجيح للحقيقة وتقرير
للواقع الذي يعرفه عنه مخالطوه ، ومرضاه ويتبض به شعره وأدبه
وما نحن بمنصفين ان لم نحمد الخير لأهله ، ونغبط على الفضل ذويه ٠٠

وقصيدة ناجي (في يوم الشباب) فيها أبيات عامرة كقولها :

قل للمدى يبغى الصلاح لقره	بنبيل صانع أو شريف جهاد
بالطب أو بالشعر أو بكليهما	كل الجهود فداء هذا الرادى
يا أيها الوطن الجريح وجرحه	بصميم كل حشاشة وفؤاد
قل للبناة المصلحين ألا اخلقوا	شم الذرا ورواسخ الاطواد
جيلا من النشء القوى اذا مشوا	رفعوا الرءوس بعزة وعناد
لاخير في الأرواح تسكن موطنا	متخاذلا لا يرتجى لجلاد (١)

(١) الدكتور ناجي ديوان وراء الغمام ص ١٦٠ - ١٦١ في يوم الشباب .

هذا مثال ، وفي القصيدة أبيات قوية ولكنها في جملتها هادئة النغم
رتيبة كسائر شعر ناجي .

وفي شعر ناجي ترجمة عن الغرب وتعريب ، فقد ترجم عن الألمانية
(دعاء الراعي) من أغاني هاينى (١) .

كما عرب عن ألفريد دي موسيه (التذكار) (٢) .

والقطعتان حزيتان ، ولعل هذا السر في أنهما صادفتا هوى من
نفسه ، ففي الأولى حزن دفين وخوف ورجاء ودعاء . . . وهاتك بعضهما :

يا أيها الحمل الوديع أنا الذى	يحنو عليك . أنا الحبيب الراعى
كم ليلة والرعب يمشى في الدجى	والهول منتشر على الأصقاع
أغفيت فى كنفى وفى ظل الكرى	كالطفل فى أمن من الأوجاع
يارب قد وهت العصا واستأثرت	غير الليالى بالقوى الباع
يارب ان تك قد حكمت بقرقة	وأذنت للراعى بوشك زعاع
فانظر الى الحمل الوديع ، ووقه	شر النقوش وفننة الأظماع

غير خاف أن ليس هناك حمل ولا راع ، ولكنها قصيدة رمزية فيها
كبت وفيها برحاء .

أما القصيدة الثانية ففيها دموع غائمة ولكنها عصية التسكاب وان
لم تستعص طويلا على كل حال فقد شبّلت فى آخر القصيدة حتى بات
صدى القلب وروت حرقته ، وطلت الماضى كما يطل لدى السمر تحدود
الورد وكما يباكر ريق الغيث أديم الروض

وقصيدة (التذكار) التى تستهل بهذه الأبيات .

بى نزوع الى الدموع الهوامى	غير أنى أخاف من الأمى
أيهذا المكان يسط غشائى القرب	وامشوى عبادتى واجترامى
أنت مشوى الذكري ومدفنها الغالى	القصى المجهول فى الأيام (٣)

هذه القصيدة معرضة لفلسفة الحزن عندما يكابى ويتكلف الصبر ،
ويصطنع الرضا . بل يتمادى فيعيب الأمى ويرمى الأسىوان بالضعف
والهزيمة ، بل يستولد الهتاء من الحزن كما يستخرج الماس الألاق بالألائه

(١) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام من ١٢٥ - ١٢٦ وهي قصيدة رمزية .

(٢) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام من ١٢٧ - ١٣٥ .

(٣) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام من ١٢٧ .

من الفحم الأسود .. ولعلك الآن تهفو الى الوقوف على هذه الفلسفة ..
فلسفة الحزن هذه :

قد تراءى الصنوبر النضر اذ آيد
وتراءى لي المضيق البعيد الـ
موحشات لكنما كن ألافى
أنا ما جئت هاهنا أذكر الأشـ
ذلك الغاب رائيم الحسنى والصمـ
وفؤادى عبات كرائع هذا
من يشأ ان يفيض يوما بشكـ
قل لشاكك هلا مضيت لتجثو
كل شئ حى هنا ، ونبات القبر
فسلام منى على الأيام
لم أكن أدري أن جرحنا بما
معقب لذة لنفسى

ولكن هذه المقاومة كما قلت لك لم تلبث حتى انتهت وهناك
الحزن الختام :

ان تروا أدمعى فلا تزجرونى
لا تحفف أيديكم أدمعاً تنفع
أدمعى سستر مسبل فوق ماض
ودعوني انسى أحب الدموعا
قلباً لما يزل موجوعا
قد تولى ما يستطيع رجوعا (٥)

إنى أرمى من وراء هذا الى دلالة الاختيار ، فنأجى وجد خلدجائى
مصاغة فعاش فيها بالقراءة والترجمة والتسجيل .

وعرب ناجى قصيدة (البخيرة) عن لاهوتين ، وإليك مطلعها وختمها
لتعرف لونها من الحزن أو الفرح .. أما المطلع فهو :

من شاطئ لشواطئ جدد
ماقر منه مضى فلم يعد
يرمى بنا ليل من الأبد
هيهات مرسى يومه لغد (٦)

- (١) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام من ١٢٨ - ١٢٩
- (٢) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام من ١٢٩
- (٣) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام من ١٣٠
- (٤) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام من ١٣٥
- (٥) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام من ١٣٦
- (٦) الدكتور ناجى . ديوان وراء الغمام من ١٣٣

.. ولنتقل إلى الختام ..

وليبقى ياهنذى البحيرة فى
فى باسق للماء منعطف
فى غابر النسمات ارتجفا
فى الريح أن أنينه وهفا
فى الجو معتبقا برياك
فى كل هذا هاتف باكى
حاليك نائره وهادئه
فى رائعات الصخر نائنه
فى النجم فضض صفحة الماء
فى الغصن نفس حر أحشاء
خطزت ملاعبة رقيق صبا
سيقول يا أسفا لقد ذهبنا (١)

ويبدو أن ناجى مال فى سنيه الأخيرة الى نظم الرباعيات اذ بين شعره المخطوط منها ٧٦ رباعية منتظمة فى سلك واحد ، تناول فيها حسن الحبيب والحنين اليه والهيامات واستبطاء ونواه .. وفى هذه الرباعيات احزان ووسواس وحسرات وتأملات ونظرات فى الحياة والحى ومصيرهما .. تنتهى الرباعيات بالتسليم بالواقع .. تسليم اليأس الذى لا حيلة له ، الزاهد لأنه لم يجد ، لا لأنه وجيد فما انتهى أو أراد ..

ومن هذه الرباعيات :

قلبي مع الناس ولطفي شرود
عيني على سر وراء الوجود
أريثنى الغيب الذى لا يرى
ثم انحدونا تستشف الشرى
والقمر الفضى بين الغيوم
واخسرتا ، هل صورته الهوم
فى عالم رحب بعيد الشهاب
وبغيتى عرش وراء الشهاب
كشفت لى مالا يراه البصر
عل وراء الشرب سر السفر
يخفق كالمنديل عند الوداع
كالزورق المسارق الا شراع

ومن شعر ناجى الحر هذا المثال من .. « اليها » :

لم يزل فى شميمى عطرك العبق ...
وبين جفنى خيال أحرص عليه كحياتى
وفى مسمعى ضحكة حلوة كرنين البلور ..
وبين يدي كثر من يديك مسلمتين ومودعتين

ومن « .. بحر وذكرى ودمعتان .. »

يا لله مما يحمل لى هذا المساء المعطر
المبتل الساكن .. مبتل لأنه

مندى بالدموع وساكن لأنه كالنغم
الذى يكون صمته أروع من إيقاعه

أحسب أنك تستاف نسيمًا من الغرب ولكن لاتنس أنة
شرقى الطلعة ، مصرى الروح .. انك تحسه قريبًا منك .. وأنا أيضا ..
وبعد فان شاعرنا قد غنى وتغزل وناجى واستعطف وتحرق
وبكى وشكا ، ورسم صورًا للحياة والأحياء ، وترجم وعرب ورثى وهجاء
ومدح ، وما جدوى الشعر وعمل انشاعر غير هذا :

ما جمال الربيع فى الروض ان لم	يشد طير فى الروضة الغناء
ما جمال السماء والبدر ان لم	يشد سار فى الليلة القمر
واضياع النبوغ فى مصر ان لم	تحدث منابر الخطباء
واضياع النبوغ فى مصر ان لم	يك تخليده على الشعراء (١)

أنا هنا لا أدعى أنه من المكثرين .. ولو فعلت ما أغنيت عنه شيمًا ،
فان الفن بجوهره وكيفه لا يكفه ، والشعر ليس كرمال الشاطئ غير
المعدودة ولكنه كدر القاع غير المنظور .. وهو بعزته ونفاسسته أمنية
وهدف وثروة ونعمة ومتاع وجمال ولألاء ..

وهب الاكثار فضلًا يحسب لصاحبه ، فما بالقليل من ناجى الطيب
هذه الباقة المؤتلفة من ديوانين ، فضلًا عن المخطوط لو جاز أن تعد قليلة
من شاعر منقطع ، فقد كان حسب الطيب الأسى من ميزات الانسانية
الرفيعة ما أبرأ من علالت ، وضمه من جراح ، وأحيا من آمال ، وهذا من
روح ، وسكن من وجيب ، وأنزل من رحمة .. وكم لناجى فى هذا المضممار
من مآثر تؤثر ، وأياد تذكر ..

(١) الدكتور ناجى - ديوان ليالى القاهرة ص ١٤٠ .

شعر المناسبات

سأتناول في هذا الفصل شعر المناسبات عند ناجي الشاعر ...
وأنا ما قرأت لشاعر قط إلا أسقطت شعر المناسبات من ديوانه في غير
رحمة ، لاسيما قصائد المديح ، لأنني أنفر من هذا اللون بصفة عامة .
وأراه من حيث المبدأ ظلماً للمادح والممدوح على السواء ... إذ شعر غرض
من الأول الذي من حقه الارتقاء لخاصة الفن فيه ، وتمثيلة له ، وهو ظلم
للثاني لأنه يبطره ويفسده ويطلقه ويعمي عن حقيقة نفسه وحقيقة
الأمور ...

ولكن شعر المناسبات عند ناجي يستحق الدراسة ولو تابعها ،
لأن في بعضه بعض الدلالة على الشاعر مما لا غنى للدراسة المستشفة
عنه ...

ولهذا الاعتبار وحده أمضى في كتابة هذا الفصل ...

والقصائد التي نظمها ناجي في مناسبات تتضمن الرثاء والمدح
والهجاء :

الرثاء :

يحدث أحياناً على حساسية ناجي وعمق عاطفته أن تعصى دموعه في
الرثاء ...

انظر الى رثائه للهمشري (١) فجد شعرا فيه البلاغة والرصانة وان كان أقرب الى المدح منه الى الرثاء .. وانظر رثاءه للشاعر محمد الهراوي (٢) تجد قصيدة هيا توليد شاعر وليس فيها حرقه باك .. ولا تريب عليه فالحنن ككل شيء مراتب ، وليس الذي يرثي صديقا أو زميلا كمن يبكي ولده أو اباه .. هذا يبكي نفسه وذلك يرثي غيره مهما كان .. وكم بين الاثنين ..

ولعل (شوقي) أظهر من رثاهم ناجى بشعره ، ولكنه لم يوفه الا في قصيدة واحدة هي التي ألقاها بمناسبة ذكرى مرور العام الأول على وفاته . فانه في (ساحة التذكار) (٣) بكاه أحر بكاء وأوفى على الغاية من رثائه وهي صادقة اللوعة ، شجيرة الحنين ، مؤثرة الأنين ، عامرة الأبيات .. اني كثيرا ما أتذكر هذه الأبيات المبجلة بالدموع :

من مسعدى في ساحة التذكار
وابعث خيالك في النسيم السار
واحتف بشعرك في شباب الدار
ومضى ليتهف في ديار الجار
نهب الخطوب قليلة الأنصار
فيما ويا لسواخر الأقدار
مبسوطة السلطان في الامصار
تحت الربيع دؤوبة الإثمار
ومضى الربيع الضاحك النوار
جمعت صجارك في غروب نهار
لون الشجوب معصفرب بهار
كسناك طوقا على السمار
طبي مقيلا من وشيك عشار
متهجما في صرح المنهار
حالت ، وخلي هيكل كاطار
وأرى بعيني غاية المضمار
والعبقريه وهي في الادبار

شجن على شجن وحرقه نار
قم يا أمير أفض على خواطرا
يا عاشق الحرية الثكلي أفق
يا من دعا للحق في أوطانه
الشام جازعة ومصر كعدها
عام مضى ؟ يا للزمان وطيه
أين الامارة والأمير ودولة
خمسون عاما وهي وارقة الجنى
مد الخريف على الرياض رواقه
هيهات أنسى قبل بينك ساعة
والشمس في سقم الغروب وأنت في
منحت وقد ذهبت شعاعا غاربا
تشكروني الضعف الملم لعل في
وكشفت عن متهدم جال الردي
فرايت ما صنع الضنى في صورة
ووجمت ألمح في الغيوب نهاية
وأرى النبوع وقد تهاوى نجمه

- (١) الدكتور ناجي - ديوان ليالى القاهرة ص ١٢٥
(٢) الدكتور ناجي - ديوان ليالى القاهرة ص ١٢١
(٣) الدكتور ناجي ديوان وراء الغمام ص ١٧٢

بى رغبة ملحة فى أن تقرأ معى أيضا هذه الأبيات :

فى ذمة الأجيال ما غنت به صدحت بألحان الحياة ووقعت
والفن ما حاكى الطبيعة أخذنا مسترسلا رحبا كعين ثرة
متعاليا حتى الأشعة مشرقا
شوقى ! نظمت فكنت برا خيرا أرسلت شعرك فى المدائن هاديا
تدعو الى المجد القديم وغابر تبكى العراق اذا استبيح ولا تضن
وترى الرجال وقد أهين ذمارهم قلو استطعت مددت بين صفوفهم

قيشارة سحرية الأوتار أنغامها المحجوبة الأسرار
منها ومن اعجازها بغير شتى السيول سحيفة الأغوار
متألقا كالكوكب السيار فى أمة ظمأى الى الأخيار
شبه المنار يطوف بالأقطار (١) طى القبرون مجلل بوقار
على الشأم بمدمع مدرار خرجوا لصون كرامة وذمار
كفا مضرجة مع الأحرار (٢)

ولقد أفرغ ناجى فى هذه القصيدة كل ما ينبض به قلبه من حب
لشوقى ووفاء لذكراه حتى اذا دعى بعدها الى رثاء جديد لم يجد فضلا
من قول يقوله • فتعلق بأهداب مسرحيات شوقى ! ولكن كيف السبيل
الى هذا والمقام مقام رثاء • • وحديث العشق عادة حديث زاه ، وهو أيضا
متخفف يضيق بالوقار الذى يلزم الرثاء ؟ • • ان الشعراء حيلهم لا تنفذ
• • ولهم فى الشعر مداخل ومخارج برعوا فيها • •

ليناد ناجى (شوقى) :

يا ساكن الصحراء منفردا بها هل كنت قبلا تستشف سكونها
مستوحشا فى غربة وتنائى وترى مقامك فى العراء النائي (٣)

ليتخلص بعد هذا بقوله :

فأثبت - والدنيا شراب كلها - تروى حديث الحب فى الصحراء
ويمضى بعد هذا فى وصف قيس وهيامه بخاصة ، وقصة الحب منذ
الخليقة بعامة • • حقا لقد أجاد وصف الحب وأسرره • • ولكن لا ننسى أن
المقام مقام رثاء • • انه مازق بلا شك ، ولكن ناجى خرج منه بقوله :

يا للقلوب لقصة محزونة لم ترو الا روحا يبكاء
خلدت على الدنيا وزادت روعة مما كساها سيد الشعراء (٤)

(١) الدكتور ناجى • ديوان وراء الغمام ص ١٧٢ - ١٧٧ ساعة التذكار •

(٢) الدكتور ناجى • ديوان وراء الغمام ص ١٧٨ •

(٣) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام ص ١٨٠ •

(٤) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام ص ١٨٢ •

وليتته وقف عند هذا الحد ، ولكنه تعثر مرة أخرى اذ أردف
هذا بقوله :

خلدت على الدنيا وزادت روعة من جودة التمثيل واللقاء
من فن (زينبها) ومن (علامها) زين الشباب وقدة النبء (١)

ما الذى أتى هنا بالتمثيل واللقاء و (زينب) و (علام) ٠٠ انه
حشو واستطراد غير مجد ٠٠ واذا كانت القصيدة قد قصد بها الرثاء فهي
عندى تتمثل فى الأبيات الثلاثة الأولى فقط ٠٠ والشاعر معذور فهو
بطبعه قصير النفس ، وكلف نفسه القول مرتين متلاحقتين فى موضوع
واحد ، سبق له فضلا عن هذا طريقة أكثر من مرة فى حينه فلم يبق لديه
شئ يقول ٠٠ وهو اذا أعطى لم يستبق شيئا كما يقول .

الهجاء :

هل تصدق أن (ناجى) له فى الهجاء شعر ؟ لاتحسبني أنهم فان
شاعرنا الرقيق انسان له غضباته وبدائته وفورات ٠٠ لقد كنت مثلك
استبعد عليه الهجاء ، ولكنى قرأت بعيني هذا الهجاء المر له (فى من اسمه
عبد الحميد) :

رجل أرى بالله أم حشره	سيحان من يعبيده حشره
يا فخر داروين ومذهبه	وخلصه النظرية القدره
أريت قردا فى الحديقة قد	فلته أنشاه على شجره
عبد الحميد اعلم فأنت كذا	ما قال داروين وما ذكره
يا عبقرى فى شناعته	ولدتك أمك وهى معذره (٢)

انه يذكرنى بأبن الرومى وأحدبه ٠٠ وعلى نفورنا من الهجاء فى ذاته
الا أننا لا نملك الا أن نعترف بالفن المصور فى مثل هذا الشاهد الذى
عرضته عليك ٠٠ ان كل بيت على حدة يجعل من المسكين المغضوب عليه
هزوا وأضحكة ٠٠

ان الاستفهام فى البيت الأول يحمل من التقزز والاشمئزاز ما تعاف
منه النفس المطمئنة ٠٠ والمفاجأة فى البيت الثانى التى أحكمتها لفظية
(يا فخر) بموقعها فى شعر هجاء ، ثم بما تلاها من ألفاظ تحيل معنى
الفخر وتزيد السخرية امعانا ، والصورة البشعة التى تكفل برسمها

(١) الدكتور ناجى ، ديوان وراء النمام ص ١٨٣ .

(٢) الدكتور ناجى ديوان ايام القاهرة ص ٢٠٥ .

البيت الثالث ، والبيت الأخير من طراز البيت الثاني .. أورايت في الدنيا أقبح ممن تعتذر أمه عن خلقة بعد أن خفت غريزة الأمومة من وطأة شناعتها الكثير ، ومع هذا لا ترى (الأم) ندحة لها عن الاعتذار !!
ما ذا تريه بعد هذا ؟

وتهكم ناجي عاصف لا يبقى ولا يلز .. هل جاءك خبر الشاعر الذي هجاه فمسخه ؟ ساسوق اليك حديثه ورايه فيه :

أيها الحي وما ضر الورى لو كنت متا
أو شعر ! ذاك لا بل حجر ينحت نحتا
تلقم الناس وترميهم به فوقا وتحتا
صحت من يأسى لما بركيك الشعر صحتا
آه يا قاتل يا سفاك ! حتى أنت حتى (١)

ان غريمه ليس نبى شعر ولكنه كافر شعر ..

ولكن الهجاء فى شعر ناجي أمثلة فردية على كل حال ، ولعله فى الأصل تفكه وجاوز طوره ، فان لم يكن فهو بادرة يصعب أن ينجو من مثلها انسان ، بما فطر عليه من غرائز ، وما ركب فى طبعه من أهواء .

الملاح :

وفى الديوان من شعر المناسبات مدائح ولكنه فى مدحه مقتصد بوجه عام فلا يعلى من مدوحه الا بما هو أهل له ، وبما هو عليه من فضل ، وما له من سجايا .. فلا ملق ينحل العاطل صفات الأجداد ، ولا نفاق يخلق بلصيق الأرض فى السماء ، حتى لقد قال لأحد ممدوحيه فى بساطة :

لم نكرمك للوزارة والمنصب والمجد والسبنا والرواء
نحن قوم نهيم بالرجل الكامل يمضى للأمر دون الثواء (٢)

وهو من احساسه وتفززه يخشى أن يسوء تأويل شعره الذى يجله على أن يلحق به رياء ، فيقول لذلك الممدوح أيضا عندما شعر أنه كور مدحه ولا أقول أكثر من مدحه ، فتلک صنفه تلحق المتنبي وأضرابه من شعراء المديح ..

(١) الدكتور ناجي . ديوان ليالى القاهرة ص ٢٠٥ .

(٢) الدكتور ناجي ديوان ليالى القاهرة ص ١٤٧ .

خذ بيانا نظمه شبه شبه عقد منضد
مايه من تزلزل جل شعري ومقصدي (١)
وقد استخفه الطرب حينما فبالغ مبالغة العاطفة الوامقة في شاعر
صديق :

جاءت بأروع من هز البيان ومن أعاد مجد القوافي مثل ما كانا
وهي مبالغة ٠٠ ولكنها على كل حال أهون بكثير مما في دنيا الشعر ،
شعر المدح خاصة ، من مبالغات ٠٠

وله مدائح تبدو لنا الآن ممسوخة لأن أصحابها مسخوها ، ولكن
هؤلاء مدحهم الشاعر قبل أن تشويه لهم صور وتحلوك سمائر ٠٠
مدحهم حين كنا مجمعين على مدحهم ، فهو لم يداج ولم يكذب ، بل لعل
مدحه في الوقت والظرف الذي قيل فيه كان مظهرًا وطنيًا فهو شاعر
وأتمته في مهرجان ، من يترجم فرحها غير الشاعر ؟ وهو شاد وأتمته في
عيد ، من يغني آمالها غير الفن ؟

وممن كرههم الدكتور ناجي ، الدكتور زكي مبارك شعر الله لها ،
ويبدو أنه كان صديقًا فقد تبسط معه ناجي في القصيدة التي قد أقيمت
في حفلة تكريمه بمسرح ألهمبرا بالقاهرة ، ومنها :

فرح أهل بالسلام الذي صا
عمموه وقفظنوه فأمسى
ثم أمسى مطربشا واكتسى البد
ثم أمسى مبرنطيا يقصد السبي
ر خديشا في ندوة الشمار
أهل القوم ، فارس المضمار
له ما بين ليلة ونهار
من ويغزو مدينة الأنوار (٢)
ليس هذا في الحق مدحا بالمعنى التقليدي المعروف عندنا ، ولكنها
زمانة مشيدة ودود ٠٠

ولقد مدح ناجي الشاعر الدكتور علي إبراهيم فهل تحسن في مدحه
افتعالاً أو صنعة ؟ أم يؤكد لك كل بيت أنه صيغ من أجل الطب ، من
أجل الرحمة ، من أجل الحنان ، من أجل الانسان في أنبل صوره ، وأكرم
سجاياء ، قبل أن تكون من أجل شخص عيسى إبراهيم ٠٠ ليس في
القصيدة كلها بيت من مبالغة المحب أو وشي الشاعر ، ولكنه الصديق الذي

(١) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ١٩٩ .

(٢) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام ص ١٩٩ .

من حق الرجل أن يقوله ، ومن الغبن أن يخفيه . . يقول الدكتور ناجي
في انصاف الزميل وفخر المواطن ، وتقدير الوطنى :

<p>يؤدون القديم من الجميل يؤدون القليل من القليل وما هو بالكثير ولا الجزيل له فى اللانهاية ألف جيل وكم حاربت من داء وبيل وكم نضو شفيت وكم عليل إذا انطفأت عيون فى الدبول كما غامت نجوم فى الأفول تبذل كل أمر مستحيل يحىي مقدم الغيث الهطول رأى أعين الركب الكليل بعذب الماء والظل الظليل بكل أعز مزدان حويل من الغرر اللوامع والحجول لقلت تكلمى وصفى وقولى وما تدرى لماضيك النبيل (١)</p>	<p>ولو أن الألى أنقذت جاءوا ولو أن الألى علمت جاءوا ولو منحوك عمرهم جميعا اذن لرأيت عمرك عمر نجم بربك كم وصلت حياة قوم وكم أنقذت من أسر المنايا إذا ما الموت أبدى ناجديه إذا غامت محارجرها ظماء فما هو غير أن أقبلت حتى كانك لمع برق فى الأعالي كانك واحة فى القفر لاحت كانك جنة فى البيد تندى ولو أيامك العصماء جاءت اذن لطلعن فى الظلمات بيضا ولو أن المآثر ذات قول أضفها فهي أعمار أضفت</p>
---	--

هل الدكتور على ابراهيم الا كما وصف ؟ ولو أوتى أحدنا موهبة
الشعر هل يضمن على الجراح على ابراهيم بمثل هذه الأبيات ؟ هل يستكثر
على جراح مصر هذه الأبيات ؟ :

<p>معلقة بأصبعك التحيل ورافعتها الى فن جميل أسنتها منغمة الصليل بكفك سير مطواع ذليل وما لك فى المواقع من قتيل (٢)</p>	<p>تعالى الله كم من معجزات محيل القسوة الكبرى حنانا معارك من دم أم ساح حرب يسير المبيض الجبار فيها معارك كم كسبت بها حيساة</p>
---	--

انى أسجل هذه الأبيات ولا أضفها فهي من الشعر الذى يحسن
بالباقى ألا يصفه حتى لا يجد جماله بالكلمات ولكنى أرددها فتشجبنى
كالنشيد ، أرددها فتسمو بانسانيتى على التردد . . ليت قادة الحروب

(١) الدكتور ناجي - ديوان ليالى القاهرة ص ١٢٨ - ١٣٠ .

(٢) الدكتور ناجي - ديوان ليالى القاهرة ص ١٣١ .

يعونها ليعرفوا كم بين الطبيب والقائد .. كم بين من يحيى الميت ومن يميت الحي ..

وبعد ، فان الدكتور ناجي ليس مداحا وما كان المدح يوما من هواياته أو غاياته أو وسائله ، ولكنه شاعر .. شاعر حقا ذلك الذي يقول :

أكتب لوجه الفن لا تعبد به عرض الحياة ولا الخطام الفاني
واستلهم الأم الطبيعة وحدها كم في الطبيعة من سرى معاني
الشعر مملكة وأنت أميرها ما حاجة الشعراء للتيجان
هو مير أمره الزمان بنفسه وقضت له الأجيال بالسلطان
أهبط على الأزهار وامسح جفنها واسكب ندادك لظامي صديان (١)

ألا انه أخلق بالمدح يخلعه عليه الآخرون ، ذلك الذي يستاف عطر الطبيعة في الزهرة الناعسة ، والعشب الجاف .. في الأيك .. في الروض .. في كل ما جادت به على هذه الأرض .. دنيانا .. لماذا ؟ لأنه شاعر فنان ...

(١) الدكتور ناجي . ديزان ليلي القاهرة ص ١٩٦ - ١٩٧ قصيدة خمس الرضا .

فن ناجي الشعري

نقد ناجي شوقي (١) على ضوء تعريف « لي هنت » للشعر بأنه
(موسيقي واقناع وخيال وصور) . . ومضي يطبق هذه الأوصاف على
شعر شوقي . . والذي يهمنا هنا هو تعريفه لعناصر الشعر الأربعة في
رأى صاحبه ورأيه . .

فالموسيقي عند ناجي هي (من حيث انها تحتاج الى اللفظ والصياغة
والانسجام ، فهي اذن في حاجة الى الامام العظيم باللغة ، هذا الى ذوق
خاص لا يمكن اكتسابه بسهولة ، والى اذن تحسن الاستماع وتمييز
الأنغام (١) (٢) .

(أما الاقناع ، فهو قوة خاصة في الشعر ، بحيث يضطرك الشاعر
الى متابعتة ، والى السير وراء رأيه والايمان به ، ويملك عليك مشاعرك
بدون ان يملك أو يشعرك أنه يقودك وأنت تتبع ساحرا جبارا لا خلاص
لك منه) (٣) .

والخيال . . هو « اطلاق العنان للتصورات العالية ، لا للاستعارات
والكنايات اللفظية . . » (٤) .

وقد تناول ناجي في نقده لشوقي « الصور الشعرية » وهي تعنى
عنده أنك (تقرأ قطعة للشاعر فلا تملك الا أن ترى الشيء مرسوما أمامك .

(١) مجلة أبولو عدد ديسمبر ١٩٣٢ من ٣٥٥ - ٣٥٦ .

(٢ : ٣) المصدر نفسه من ٣٥٥ .

(٤) المصدر نفسه من ٣٥٦ .

بوضوح ، وجسما قويا بارزا) . . أي أن الشاعر ينبغي أن يكون مصورا بوضوح ، وألفاظ الشعر يجب أن تكون موحية . .

وهذا التعريف للشعر الذي يؤيده ناجي يتضمن عناصر أخرى وان لم يميزها ببيان - فتعريف « لى هانت » للموسيقى يشير الى وجوب اللفظ الخاص المشعر أى المختار المصفى ، والصياغة تشير الى الأسلوب ، والانسجام ، الى التساوق العام والمواءمة بين اللفظ والمعنى ، والمناسبة بين أصوات القصيدة ومساافتها بحيث تكون كلا موسيقيا متماسكا .

وتعريفه للانحياز يحتم بروز شخصية الشاعر وأسرارها بحيث يضطرك الى متابعتها ، وإلى السير وراء رأيه والإيمان به ، ويملك عليك مشاعرك ، بدون أن يملك ، أو يشعرك أنه يقودك ، وأنت تتبع ساحرا جبارا لا خلاص لك منه .

أما تعريفه للخيال فيحتاج الى الوقوف عنده مليا . . فان اطلاق العنان للتصورات العالية يعين عليه الاستعارات والكنايات ، اذا واتت فى غير تكلف أو استخدمت فى غير اغراق أو تطوح أو شطط ، ولا أحسب « ناجي » ينكر هذا الفهم للخيال ، ولعله يقصد الاشادة بالمعنى وحرصه عليه خشية أن يضيع فى ثنانيا اللفظ ، أو ينوء بما يحمل من استعارات ، ويرهق بما يفرج به من كنايات تخرج بالشعر كله من فيض أخساس الى صماعة أو زان . .

والذي نخرج به من هذا التعريف صريحا ومفوما هو أن الشعر يقاس بما فيه من :

تصورات وأخيلة .

ألفاظ تقنية صافية تشرق بها المعاني .

صياغة متوائمة مع موضوع القصيد .

موسيقى سابعة .

وحدة تنتظم القصيدة هي الوحدة الشعرية .

صحة فى الأداء .

شخصية الشاعر .

وعلى ضوء هذا المقياس نحض نقى شعر ناجي ونقدره : . . بعد أن نضيف اليه عاملا آخر هو (قيمة التجربة الشعرية)

ولنطبق التجربة الشعرية أولا فهي أحق بالتقديم اذ هي الحافز الذي يثير الشاعر الى قول الشعر وهي بهذا اللبنة الأولى في بناء القصيدة ، ويشترط ناجي في التجربة الشعرية (الصدق والاقتناع القلبي) (١) وتسأله : كيف تصهر التجربة ؟ فيقول لك :

« ان الوعي يتصل بغير الوعي .. ثم يطفو عليهما ضباب ملون مشبع بالذكريات .. وهذا الضباب يغطي أجزاء التجربة حيث يجري تركيبها من جديد .. لا حسبنا وجدت في الطبيعة ، بل حسبنا رآها الفنان .. ومن ذلك يتضح لنا لماذا قال سنانيت بيف « ان الفن مزاج فردي » .. ويتضح كذلك أن النقد يتعين عليه تمييز الأساليب لا تطبيق القواعد .. » (٢)

هل كان شعر ناجي وليد انفعالات أثارتها في نفسه دوافع خارجية أثرت فيه ؟ أو عوامل داخلية نتيجة لاستبطانه نفسه ؟ نعم عندى هي الجواب الصحيح ، فقد كان ناجي في معظم شعره يصدر عن طبع وتأثر ؟ وقد رأينا في الفصل الأول موجات نفسه في شعره وكيف كان هذا الشعر صدى لما اعتزل في تلك النفس من مشاعر ..

عرض الأستاذ مصطفى سوييف لراى تاولس R. H. Thouless في الابداع الفنى ، وعنده أن (الخطوة الأولى نحو تحليل الابداع الفنى ، سواء أكان ابداع قصيدة أم ابداع صورة أم كان غير ذلك ، هي الكشف عما شهده الشاعر من نقص فى بيئته وكيف دفعه شعوره بهذا النقص الى تفقد الملل الذى يرضيه ، ويقرر أن الابداع نشاط اجتماعى من بعض نواحيه ، وأن الفنان انما يريد به أن يوقظ بعض استجابات معينة فيمن يشهد فنه (٣)

وقد رأينا فى فصل (ناجى الشاعر) و (شعر ناجى) شواهد على هذا التفسير .

ويشايح الأستاذ سوييف ، لنجفيلد فى أن الابداع بمعناه الدقيق يقوم على حياة ملؤها مشكلات تثير القلق والاضطراب (٤) .

وأيضاً كانت حياة ناجى ملؤها القلق والاضطراب .. اذن شعر ناجى وليد دوافع صادقة يعترف بها علم النفس الحديث ، فى شعر ناجى تجارب شعرية .. انفعالات .. هزات .. أحاسيس .

(١ ، ٢) من مقال للدكتور ناجى بعنوان (الفن والحياة)

(٣) الأسس النفسية للابداع الفنى : ص ١١١ - ١١٢ .

(٤) الأسس النفسية للابداع الفنى للأستاذ مصطفى سوييف ص ١١١ - ١١٢ .

وقف الشاعر ينتظر تحت العاصفة والظلام والبرد ، فأوحى الانتظار إليه هذه الأبيات :

أرى الآباد تغمرني كبحر	سحيق الغور مجهول القرار
ويأتمر الظلام على حتى	كأنى هابط أعماق غار
وتصطبب العواصف ساخرات	وتطعنني بأطراف الحراب
وتشفق بعد ما تقسو فتمضي	لتقرع كل نافذة وباب
فصححت بها الى أن جف حلقي	فحين سكت كلمني ابائي
واشعرني العذاب بعمق جرحي	وأعقب منه جرح الكبرياء
ولما لم تفز بلباك عيني	لمحتك آتيا بضمير قلبي
فأسمع وقع أقدام دوان	وأصمت مصغيا لحفيف ثوب
وأخلق مثلما أهوى خيالا	وأستدني الأمانى والحبيبا
وأبدع مثلما أهوى حديثا	لأن صار من قلبي قريبا
أمد يدي في لهف اليه	أشاكه بمحتبس الدموع
فيسبقني الى لقاء قلبي	وثوبا ثم يبرد في ضلوعي (١)

هنا قلق وتفزز ، وتمن ولهفة ..

وناجي المرهف الحس المتوفز الأعصاب يوحى اليه الانتظار آيات .. وهذه تجربة هي صورة للمنتظر بأحلامه وأوهامه :

أغدا قلت ! فعلمني اصطبارا	ليتني اختصر العمر اختصارا
عبرت بي نشوة من فرح	فرقصنا أنا والقلب سكارا
وعرانا طائف من خبل	فاندفعنا في الأمانى نتبارا
سنذم النور حتى يتلاشى	ونذم الليل حتى يتوارى
انفردنا أنا والقلب عشييا	ننسج الآمال والنجوم سويا
فركبنا الوهم نبغي دارها	وطوينا الدهر والعالم طيا
فبلغناها وهللنا لها	ونزلنا الخلد فينانا نديا
ولقينا الحسن غضا والصبا	وتملينا الجلال الأبديا (٢)

وهذه تجربة من صنع المرأة التي نظر إليها ثم حاول التنفيس فكانت هذه الأبيات :

(١) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام من ١١٥ - ١١٧ .

(٢) الدكتور ناجي . ديوان وراء الغمام قصيدة الغد من ٩٧ - ٩٩ .

ياويلتا من عمرى البساقى هذا سواد تحت أحداق
هذا بياض الشيب واعجبي من مغرب فى زى اشراق
ويل على كأس معبدة وعلى دم فى الكأس مهراق
وعلى سراب خادع وعلى متألق اللحاحات بـراق
طاف الزمان به على نقر مالوا بهامات وأعنف
صرعوا وأنت تظنهم سكروا مات الندامى أيها الساقى (١)

ومن تجارب ناجى الشعرية قصيدة (رسائل محترقة) التى عدها
الأستاذ السحرتى من التجارب الوجدانية ذات التعبير المرفه الحساس (٢)
(وهى بلا مراء تجربة شعرية ممتعة مشبعة ٠٠) ويغالى بها الأستاذ
السحرتى ، قصيدة وجدانية رائعة تتوهج فى ثوب قصصى جذاب ،
وانفعال وثاب حساس ، ووحدة قوية ، وموسيقى ارتكازية ٠٠ ولا يدع
الحديث عنها الا بعد أن ينظمها فى (مفاخر شعرنا العصرى) (٣) .

كما نوه الأستاذ السحرتى بقصيدة ناجى (قلب راقصة) (٤) وهى
عنده (قصيدة عجيبة تمثل تجربتها أمام القارئ حية ناطقة ، فهى تبرز
حال المتفرج فى المرقص ، وتكشف عن الراقص ، وتنبثق منها موسيقى
مختلفة النغمات متحدة القرار ٠٠) (٥) .

ويغالى ناجى - بحق - بقيمة التجربة الشعرية ، وانك حين تقرأ
حديثه عنها تحس أنها روح العمل الفنى وجوهه ، وسأسوق اليك
الحديث ٠٠ (قد يخيل للانسان أن الفن محاكاة للطبيعة ٠٠ وبهذا قال
أرسطو قديما ٠٠ حقا ان الانسان من بدء حياته ينقل عن الطبيعة لأنه
لا يرى شيئا دونها ينقل عنه ٠٠ ولكن ذلك غير صحيح ، لأن الصحراء
الجرداء لا معنى لها بدون أن يخلع عليها السارى خياله وحداءه ٠٠ والجبل
الأجذب قائم سخيف ، لولا ما يخلع عليه الانسان من السمو والتفرد ٠٠
وهذا هو الفرق بين الرسم والفوتوغرافيا والرسم باليد ٠٠

هب أنك أخذت صورة لشحاذ على قارعة الطريق بالفوتوغرافيا ٠٠
ثم رسمت هذا الشحاذ على لوحة فنية فان الثانية أوقع بلا جدال ،
والسبب فى ذلك أن الفنان يخلع على الصورة تجربته الشعرية الخاصة

-
- (١) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة قصيدة شكوى الزمن ص ٧٥ .
(٢) ، (٣) كتاب (الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث) للأستاذ مصطفى السحرتى
ص ٢٩ .
(٤) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام ص ٣٦ .
(٥) كتاب الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للأستاذ مصطفى السحرتى ص ٤٥ .

ويخلع عليها الحماس ويضيف إليها اللهب الذي يضيئها ويجلو جلالها (١) .

الخيال في شعر ناجي :

قدم الأستاذ دسوقي أباطة لديوان (ليالى القاهرة) ف سجل لشاعرنا أنه من أقطاب المدرسة الحديثة التي (تتسم بطابع الجدية والطرافة ، وبالأسلوب الأنيق والعبارة السهلة وهي تحتفل بالفكرة أكثر مما تحتفل باللفظ ، وتعنى بالموسيقى والروتين ، قبل عنايتها بالصياغة والصنعة ..) .

ولعل الأستاذ دسوقي شعر بحاجة هذا التعريف الى مزيد من الايضاح ، كما شعرت أنا ببعض التناقض بين الأسلوب الأنيق (وقلة الاحتفال باللفظ) وتأخير العناية بالصياغة ! .

أما الايضاح فقد استعان عليه الأستاذ دسوقي ببسط أبيات لناجي تعين بشواهدا على التفسير وها هي تى الأبيات :

ان خائني اليوم فيك قلت غدا	وأين منى ومن لقاءك غدا
ان غدا هوة لناظرها	تكاد فيها الظنون ترتعد
اطل في عمقها أسائلها	أفيك أخفى خياله الأبد
يالامس الجرح مالذي صنعت	به شفاه رحيمة ويد
ملء ضلوعى لظى وأعجبه	أنى بهذا اللهب أبترد

وهذا هو التفسير : (فالتعبير عن الغد المجهول بالهوة العميقة ، وعن اضطراب الشاعر فى أوهام الغد بالظنون المرتعدة ، مع سهولة القافية واستقرارها ، هو هو نهج المدرسة الحديثة وسنتها المرسومة) .

ثم عرض للهجوم الذي تعرضت له هذه المدرسة وكشف عن البواعث التي دفعت اليه وهي فى رأيه « تتجمع فى نطاق الحرية التي انطلقت بمواهبهم الى الآفاق الرجبية ، التي أطلوا منها على الأجواء البعيدة عن المعانى والأخيلة مع خلق بعض الأوزان التي لم يسبق أن نظم غيرها منها .. » .

وهن أجواء ناجي هذه الصورة التي رسمها خياله للمحب المتسامي فى أبياته :

(١) من مقال للدكتور ناجي (الفن والحياة) فى مجلة الكواكب .

لست أنساك وقد أغريتني بالذرى الشم فأدمنت الطموح
أنت روح فى سمائى وأنا لك أعلو فكأنى محض روح
يا لها من قمم كنا بها نتلاقى وبسرينا نبسوح
نستشف الغيب من أبراجها ونرى الناس ظللا فى السفوح (١)

ومنها خياله فى هذه الصورة لتزيلات الوحدة :

والأيامى كالكأس بعد الندامى ذكرت حظها من الصهباء (٢)

لهن الله أولئك اللاتى يقتتن سالف الذكريات ..

والصور فى شعر ناجى كثيرة ، وهى وان تفاوتت فى الوسامة والوضوح والألوان والمظاهر الا أنها فى مجموعها حية نابضة فيها شئ هو قلق حيناً ، ورخا آناً ، وفيها من الألوان قتامة وزهو ، وهى على حالها تمثل الشاعر فى شتى حالاته .. بل ان منها ما يستوقفك الى جانبه زمناً قد يطول وقد يقصر ولكنك منجذب اليه ، حان عليه ، مسح به ..

ويتصل بالخيال « التجسيم » وهو وثيق الصلة بالاستعارة ، غير أن المشبه به فى التجسيم هو الانسان الذى يخلق الفنان صفاته وسماته على الأشياء والأحداث ..

والدكتور ناجى ولوع بهذا اللون من التعبير ، وهو شيق ما لم يبتدل ويصنع صنعا يثير غضب رسكين منه حتى ليعده « مغالطة عاطفية » (٣)

وتجسيم ناجى يتمثل فى مثل قوله من ملحمة السراب :

أدركى زورقى فقد عبث اليم به والعواصف الهوجاء
والعباب العريض والأفق الموحش واللانهاية الحزناء
أفق لا يحده للعين قد ضاق فأمسى والسجن هذا الفضاء
سهرت ترقب الصباح وعين النجم كلت وما بها اغفاء (٤)

واستهل ناجى قصيدة (الخريف) بهذه الأبيات المجسمة :

يا حبيبى غيمة فى خاطرى وجفونى ، وعلى الافق سحابه

(١) الدكتور ناجى ديوان (ليالى القاهرة) ص ٥٤ الاطلال .

(٢) الدكتور ناجى ديوان (ليالى القاهرة) ص ١٤٤ .

(٣) راجع كتاب « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » للاستاذ السحرى .

(٤) الدكتور ناجى ديوان (ليالى القاهرة) قصيدة السراب فى الصحراء ص ٩١ .

غفر الله لها ما صنعت كلما شاكرتها تندي كآبه
صرخ القفر لها منتحبا وبكى مستعظفا مما أصابه
فأصم الغيث عنه أذنه ما على الأيام لو كان أجابه (١)
وغضب ناجى مرة غضبة مروعة فتخيل الطبيعة بأحداثها تتربص
به ، فصرخ فى وجهها :

اعولى يا جراح	اسمعى الديان
لا يهم الرياح	زورق غضبان
اسخرى يا حياه	قهقهى يارعود
الصبا لن أراه	والهوى لن يعود
اطحنى يا سنين	مزقى يا حراب
كل برق يبين	ومضه كذاب (٢)

ومن ديوانه - وراء الغمام - هذا المثال :

تعال ! فلم يعد فى الحى سار وهومت المنازل بعد وهين
وران على نوافلها ظلام وقد كانت تطل كالف عين
تعال ! فقد رأيت الكون يحنو على ويدرك الكرب الملمسا
ويجلو لى النجوم فازدريها وأغمض لا أريد سواك نجما (٣)

ومن (وراء الغمام) استشهد الأستاذ السحرتى بهذه الأبيات من
قصيدة العودة :

والبل ! أبصرته رأى العيان	ويداه تنسجان العنكبوت
صحت ! يا ويحك تبدو فى مكان	كل شيء فيه حى لا يموت
كل شيء من سرور وحرز	والليالى من بهيج وشجي
وأنا أسمع أقدام الزمن	وخطى الوحدة فوق الدرج (٤)

الفاظ ناجى :

والفاظ ناجى الشاعر الطبيب سهلة حنانة ودود توحى اليك وتهمس
فى أذنك ، وتذكرك بأشياء كثيرة .. وهى أصفى ما تكون حين ينادى

- (١) الدكتور ناجى ديوان (ليالى القاهرة) قصيدة الخريف ص ٢٠٦ .
- (٢) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة قصيدة عاصفة روح ص ١ - ٦٢ .
- (٣) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام قصيدة الانتظار ص ١١٤ - ١١٥ .
- (٤) الدكتور ناجى ديوان وراء الغمام قصيدة العودة ص ١٧ .

ناجى حبيبه ٠٠ هنا يعرف جيدا كيف يختار ألفاظه ٠٠ ومن صلاته فى
محراب الحب هذا النشيد :

أرى فى عمق خاطرك	جلالا يشبه البحر
وألمح فى نواظرك	صفاء الرحمة الكبرى
وأنت رضى وتقبيل	وأنت ضنى وحرمان
وفى عينيك تقبيل	وفى البسمات غفران
وأنت تهلل الفجر	وبسمته على الأفق
وحينا أنه النهار	وحزن الشمس فى الغسق
وعندك كل ما أظن	ورد القلب لهفانا
وعندك كل ما أدمى	وزاد الجرح اثخانا
وعندك كل ما أحيأ	وشدد عزمه الواهى
حنانك نضرة الدنيا	وقربك نعمة الله (١)

هذه ألفاظ مستديرة ناعمة الملمس كالنفحة كما تقول أدب سيتول
الشاعرة الانجليزية (٢) ٠٠

وقليلا ما تتصلب ألفاظ ناجى وتصطنع الشدة والصرامة كما مر بنا
فى قصيدته (عاصفة روح) ٠٠ ولكن تعبيره فى الغالب يغورق رقة
وتغلب هذه الرقة عليه حتى فى قصائده الوطنية الحماسية ، كما سيأتى
بعد قليل ٠٠

الموسيقى فى شعر ناجى :

أجل ! أهواك أنت منى حياتى	وأنت أحب من بصرى وسمعى
وهل أنساك كسلا لست أنسى	هوى قد كان الهامى ونبى

(١) ديوان ناجى (وراء الغمام) قصيدة صلاة الحب ص ١١٨ - ١٢١ .
(٢) تعيب « أدب سيتول » الشاعرة الانجليزية المعاصرة ، على بعض الشعراء
المحدثين ضعف شعورهم بالنسيج اللغوى ، وليس الأمر مقصورا على أن نسيج البيت
الشعرى أو نسيج القصيدة لا يدل على شئ فى نظرم ، بل ان شكل اللفظ ووزنه ٠٠٠
قد أصبح كل منهما منسيا ٠٠ فإزاء الكتاب لا يرون للكلمات ظلا تصفيه ، ولا شعاعا
تشعه ، وليست تتفاوت فى طولها وعمقها ، ولا يعرفون أن الكلمة قد تتلألا كما يتلألا
النجم المنعكس على صفحة الماء ، وان اللفظ قد يكون مستديرا ناعم الملمس - مجلة الأدب
والفن - ج ٢ السنة ٣ - بقلم الأنسة بيرل دى زوت . النص منقول عن كتاب الأسس
النفسية للإبداع الفنى للاستاذ مصطفى سويق ص ٢٨١ .

لبست من التصبر عنك درعا فها أنا تنزع الأيام درعي
وها أنا لا أدارى عنك سرا عرفت محبتي وزأيت دمي
تلاشت قوتي وغدا فؤادي كأن خفوقه خلجات نزع
أبشره فيرقص في ضلوعي وأنظر سود أيامي فأنعي
وقد نضب الخيال وغاص طبعي ومات على حياض اليأس زرع
أجرجر وحدتي في كل حشد وأحمل غربتي في كل جمع (١)

أليست هذه الموسيقى السابغة شجية حنانة ؟

وهذه لفظة من لغتاته الشعرية :

هات اسقني واشرب على سر الأسى وعلى بقايا مهجتي وشجاهي
مهلا نديمي ! كيف ينسى حبها من ينشد السلوى على ذكراها
مازلت تسقيني لتنسيني الهوى حتى نسيت فما ذكرت سواها (٢)

وهذا غناء :

وأناديك في التداني وما أطمع إلا أن يستجاب النداء
باسمك العذب انه أجمل الأسماء مهما تعددت أسماء
لفظة لا تبين تنطلق الأقدار عن قوسها ويرمي القضاء
وهي بين الشفاء ناي وتغريد وطير وروضة غناء
وهي في الطرس قصة تذكر الأحباب فيها وتحشد الأنباء (٣)

وأنغام ناجي عند الأستاذ السجرتي تتميز بالآثارة والانفعال ويمثل
لهذا بهذه الفقرة من قصيدة (الظودة) :

رفر القلب بجنبى كالذبيح وأنا أهتف يا قلب اثتد
فيحبيب الدمع والماسخ الجريح لم عدنا ؟ ليت أنا لم نعد
لم عدنا أو لم نطو الغرام وفرغنا من حنين وألم
ورضينا بسكون وسلام وانتهينا لفرغ كالعدم

وقد لاحظ الأستاذ السجرتي على قصيدة العودة اختلاف فقراتها
في موسيقاها النوعية ، فالأبيات الأربعة السابقة (تختلف في موسيقاها
مع هذه الأبيات التي جاءت مطلقا للقصيدة وهي) :

هذه الكعبة كنا طائفها والمصلين صباحا ومساء
كم سجدنا وعبدنا الحسن فيها كيف بالله رجعنا غرباء

(١) الدكتور ناجي • ليالي القاهرة قصيدة بعد الفراق ص ٧١ - ٧٢ •

(٢) الدكتور ناجي • ديوان ليالي القاهرة قصيدة ياس بعد كاس ص ٥٩ - ٦٠ •

(٣) الدكتور ناجي • ديوان ليالي القاهرة قصيدة ملحمة السراب ص ٩١ - ٩٢ •

دار أحلامي وحبى نقيتنسا فى جمود مثلما تلقى الجديد
أنكرتنا وهى كانت ان رأتنا يضحك النور الينا من بعيد

فالآبيات الأولى منفصلة ذات نغم ارتكازى ، والآبيات الثانية هادئة
ناعمة منغممة . .

ولناجى غرام فى الخروج عن الوحدة الكلية الموسيقية فى القصيدة ،
وربما كان توحيد النغم فى القصيد كله خيرا من تجزئته ، وان كان هذا
التنوع لا غبار عليه (١) .

والأستاذ الناقد لم يجانب الصواب فيما ذهب اليه ، فان الوحدة
الموسيقية عند ناجى غير مطردة فى ديوانه . . . فديوانه (وراء الغمام) به
٣٨ قصيدة موحدة القافية والصوت وعشر قصائد مزدوجة القافية
وقصيدتان على نظام الرباعيات وآخران تتغير القافية فيهما كل أربعة
أبيات وقصيدة تتغير القافية فيها كل ثلاثة أبيات .

فاذا تناولنا ديوانه الثانى (ليالى القاهرة) الفينا القافية أكثر
اطرادا فى هذا الديوان منها فى الديوان الأول . فالقصائد الموحدة فى
(ليالى القاهرة) يرتفع عددها الى ٦٥ قصيدة بينما المزدوجة ست . .
وفى الديوان ثلاث قصائد تتغير القافية فيها كل أربعة أبيات . . .

ولما كان ناجى ينظم الشعر بالسليقة فانه يطيب له أحيانا أن يجعل
لكل بيتين قافية ، وفى أثناء القصيدة تعثر له على أربعة أبيات من قافية
واحدة كما نلاحظ فى قصيدته (لقاء فى الليل) (٢) .

ولعل هذا من أبرز آثار الأدب الغربى فيه ان لم يكن أبرزها فقد قرأ
فيه كثيرا ، ووعى عنه كثيرا ، ولكن تجديده فى المعانى والصور لا يتميز
مثل هذا التميز الذى يطالعنا لأول وهلة متبديا فى قوافيه وأوزانه . . .

ولا عذر لناجى عند أهل المدرسة القديمة من مطولات يدفع سأمها
بتنوع ، فهو ينوع حتى فى المقطوعات القصيرة .

والمدرسة الحديثة تدرك هذا جيدا فان الأستاذ دسوقي أباطة عندما
قدم لديوان ناجى (ليالى القاهرة) سجل أن من بواعث الهجوم الذى
تعرضت له هذه المدرسة كما أشرت (خلق بعض الأوزان التى لم يسبق

(١) الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث للأستاذ مصطفى عبد اللطيف السنحرى

أن نظم غيرهم منها ٠٠٠) وهنا استدل بقصيدة (عاصفة روح) التي
استهلها الدكتور ناجي بقوله :

يا عباب الهموم	أين شط الرجاء
ونهارى غيوم	ليلتى أنواء
أسمعى الديان	أعولى يا جراح
زروق غضبان	لا يهم الرياح
قهقهى يا رعود	اسخرى يا حياه
والهوى لن يعود (١)	الصبا لن أراه

« فهذا الوزن لا يوجد له نظير فى أوزان البحور المعروفة ، وربما
كان اعتماد الشاعر فيه على السماع والايقاع » (٢) .

ومن شعر ناجى الايقاعى ذى المسافة الصوتية القصيرة قصيدته
(من ن الى ع) التى استهلها بقوله :

يا شطر نفسى وغراسى الوحيد ما شئت يا ليلى لا ما أريد
يا من رأت حزنى العميق البعيد داويت لى جرحى بجرح جديد (٣)
ونلاحظ أن ناجى فى قصائده الموحدة القافية جياش العاطفة ،
كملمحة السراب ، وهى من أروع ما قال وهو فيها مندفع فى قوة ، مسحر
تواتيه القوافى والمعانى والألفاظ ، فلا حاجة به الى التغير والتوسل بقواف
جديدة ٠٠٠

ولم ينظم الدكتور ناجى شعرا مرسلا أو شعرا حرا * والشعر
المتحرر من القافية بعد هذا يجد من يسمع فى تلاوته موسيقى عذبة ويجد
فيه راحة ذهنية (٤) .

ويرى بعض النقاد (أنه لا مفر للمجددين فى هذا العصر من تطعيم
موسيقى الشعر بالانغام المنوعة والتفعيلات الجديدة ٠٠ ولا يكون هذا
الا بهجر القافية الواحدة ، وبخاصة فى القصائد المطولة وفى الشعر التمثيلى ،
وقد آن لشباب الشعراء فى الشرق أن يتذرعوا بالشجاعة الأدبية ويشقوا
طريقهم الجديد ، غير حافلين بالموسيقى التقليدية الرتيبة ، ولا حافلين

(١) الدكتور ناجى ديوان ليالى القاهرة ص ٦١ قصيدة عاصفة روح .

(٢) هذا رأى الأستاذ دسوقى أباطة أسجله كما هو .

(٣) الدكتور ناجى . ديوان ليالى القاهرة قصيدة من ن الى ع ص ١١١ .

(٤) اقرأ السحرتى فى كتابه (الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث) ص ١١٩ .

نقدات المحافظين والحفريين الذين يعيشون على تراث الموتى ويستقبلون كل جديد بصيحات الغربان (١) .

فاذا تجاوزنا النقد الأدبي الى علم النفس الحديث وجدناه يعتبر الوثبة هي وحدة القصيد . فالقصيدة (تتألف) من وثبات لا من أبيات ومن هنا كانت الوثبة هي وحدة القصيدة ، وليس البيت هو الوحدة كما هو الشائع عند النقاد العرب بوجه خاص . وكذلك كل عملية متكاملة لا بد أن تتألف من عمليات صغرى متكاملة ، وكل بناء متكامل لا بد أن يتألف من أبنية أو أنظمة صغرى متكاملة (٢) .

هنا يرجع على المدرسة القديمة مادام العلم قد قال كلمته في الموضوع . . . وكلمة العلم فصل الخطاب . . .

على أنى لا أريد أن أدع هذا العنصر من عناصر تقويم الشعر دون أن أقرر الحقيقة وهى أن قارئ ناجي يفتقد أحيانا (قليلة) الموسيقى . أى يفتقد أهم عناصر الشعر مثل قوله يستهل قصيدة (الحياة) :

جلست يوما حين حل المساء وقد مضى يومى بلا مؤنس
أريج أقداما وهت من عياء وأرقب العالم من مجلسى (٣)

ومن شعر ناجي الذى يدخل فى باب النثر أو هو نثر مشطر لو جاز هذا التعبير هذه الأبيات من قصيدة (الى روح الشاعر) التى ألفت فى حفلة الذكرى للشاعر المرحوم طانيوس عبده (سنة ١٩٤٣) :

قلمى ! ما الذى لديد	ك من الخير يا قلم
قم فذكر وناج قنو	مك واخطب وقل لهم
ذلك الشاعر الذى	بات فى خاطر الظلم
هو منكم وفنه	علم الله فنكم
ذلك الشاعر الذى	روحه الآن بينكم
لكأنى أراه حـ	يا وألقاه عن أمم
غاشيا كل منتدى	على الرأس محترم (٤)

(١) اقرأ السحرتى فى كتابه (الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث) ص ١٢٤ - وان كان الاستاذ السحرتى عند عرضه لقصيدة (قلب راقصة) فضل الوحدة الموسيقية المتكاملة على أثر تسجيله للرأى القائل (ان بين القدات وقفات تضيق الوحدة والتماسك المصنوى فى القصيدة) . (نفس المصدر ص ٤٥) .

(٢) كتاب الاسس النفسية للابداع الفنى للاستاذ مصطفى سؤيف ص ٢٧٢ .

(٣) الدكتور ناجي ديوان وراء الغمام قصيدة الحياة ص ٢٩ .

(٤) الدكتور ناجي ديوان وراء الغمام ص ١٦٦ .

موامة الصياغة لموضوع القصيد عند ناجي :

أسلوب ناجي ينبع من موضوعه ويتكيف به ويؤديه في لدونة مطواع ولكن هذه الموامة بين الصياغة وموضوع القصيدة تفوته أحيانا في الرثاء والحماسة .. وقف ناجي يرثي الشاعر المرحوم طانيوس عبده في حفلة ذكراه :

موقف حان فاغتنم وتخبر من الكلم
كل لفظ أرق من ضحكة الزهر للديم
مستمد من الربى مستعار من الديم
أجمع الآن طاقة غضة النور تبتسم
أهدأ روح شاعر خالد بالذي نظم (١)

موقف حان فاغتنم ! ألا يشعرك هذا الاستهلال بأنك سامع عما قليل وصف لقاء كان ينتظره الشاعر طويلا وقد أعد لتحيته الزهر الضاحك والألفاظ الرقيقة . والا فقل لي أي اغتنام في الموت وأي فرصة فيه تهتبل ؟

وقد مر بنا كيف فتر في تأيينه لشوقي مبني ومعنى حين أجاد رثاءه في حفل ذكراه ، ويبدو أن المفاجأة لم تترك له وقتا وجود فيه .. فليس فتور تأيينه معناه أن خطب شوقي لم يفدح (ناجي) ... كلا .. إنه عندى الآية على عمق جرحه فيه ، وشدة تأثره بفقدته .. ولست هنا أدبج لفظا أو استملي عاطفة ، فان الدراسات النفسية تقرر أن الفنان يندفع (نتيجة لالتقاء تجربتين (٢)) يندفع في نشاط يهدف الى خفض التوتر وإعادة الاتزان ، ويكون هذا النشاط منظما بفعل الاطار ، فتكون النتيجة قصيدة . ومن المحقق أن اختلال الاتزان يختلف باختلاف التجارب التي يلقاها الفنان ، بحيث يمكن أن نتحدث عن اختلال سطحي واختلال عميق واختلال بالغ واختلال ضئيل ويبدو أثر ذلك في صعوبة عودة الاتزان الى الأنا وتآخر هذه العودة فترة طويلة أحيانا ، وعلى هذا الأساس نستطيع

(١) الدكتور ناجي ديوان وراء الغمام ص ١٦٦

(٢) يصف الأستاذ سويف خطوات الابداع عند الشاعر بهذا المثال : لقد (أثنى الآن تجربة متصلة بالأنا بعثت عنده آثار تجربة قديمة جرت على الأنا ، وقد تبادلت التجربتان التأثير والتأثير واختلط الأمر على الشاعر فكانه في دوامة .. ولا يمكن أن يستقر الأنا في مثل هذه الحال ، لأن الاستقرار لا يتم الا اذا كانت أجزاء المجال واضحة المعالم واضحة الصلوات ، أي أنها هي نفسها في حالة استقرار ، فاذا لم يتوفر ذلك ظهرت بالأنا توترات تدفعه الى محاولة التوضيح كيما يتحقق الاتزان) .
« كتاب الأسس النفسية للابداع الفني » ص ٢٦٧ »

أن نعلل كون فيكتور هوجو لم يستطع أن يبدع من معين وفاة الا بعد مرور عام على هذه الوفاة (١) .

وعلى هذا الأساس أيضا نستطيع أن نعلل تخلف ناجي في تأبين شوقي واجادته رثاءه بعد عام من وفاته ٠٠٠ ان التوتر والاختلال الذي أصابه بوفاة شوقي عميق بالغ جعل من الصعب عودة الاتزان الى الأنا ، وتأخر بهذه العودة عاما كاملا ، حتى استطاعت آثاره أن تقترب من الانتظام .

هذا في الرثاء أما في الحماسة فقد استعرضنا معا نداءه للشباب (٢) ، ورأينا أسلوبه فيه موسيقاه هينة لينة رقيقة كشأنها في سائر قصيده ٠٠٠

والموسيقى الوطنية مدوية متدافعة مستنفرة عالية ، يترامى صدها الى بعيد ٠٠٠ وشعر ناجي كما يصفه الدكتور طه حسين (كهذه الموسيقى التي يفسدها الفضاء الطلق وتضيع في الميادين الواسعة ، وتجود كل الجودة ، وتحسن كل الحسن حين تغلق الأبواب ، وترخي الأستار ، ويخلو النجى الى النجى ، ويفرغ الصفى للصفى ، ويتمتع العجيب بقرب العجيب) (٣) أو كما وصفه في مكان آخر بأنه (أشبه بما يسميه الفرنجة موسيقى الغرفة) (٤) .

الوحدة الشعرية عند ناجي :

يعرف الأستاذ السحرتي الوحدة الشعرية بأنها (الرباط الذي يضم التجربة ، والصور ، والانفعالات ، والموسيقى والألفاظ في وشاح خفي أثري ، وبهذه الوحدة يتكامل القصيد وتدب فيه الحياة) .

وتلمح هذه الوحدة ، ابتداء من دوران أبيات القصيد دورانا منطقيا شعريا ، وتنقل هذه الأبيات تنقلا فكريا ، ويتأتى هذا من توفر التجربة الشعرية وعرضها عرضا جميلا ، وصياغتها صياغة محكمة - صياغة لا هي بالطويلة المجرجة ، ولا بالقصيرة الكاشفة .

وتقوم كذلك الوحدة على اتجاه الصور الخيالية بالقصيد اتجاهها

(١) كتاب الأسس النفسية للإبداع الفني ص ٢٦٨ .

(٢) ديوان ناجي وراء القمام ص ١٥٨ - ١٥٩ .

(٣ ، ٤) كتاب « حديث الأرباء » للدكتور طه حسين ج ٣ ص ١٥٢ .

موحدا (١) ، ومما يزيد الوحدة حركة وتماسكا ، حدة الانفعال الشعري
وجمال الموسيقى (٢) .

(ولا يقف هيكل الوحدة الأثيرى عند التسلسل المنطقي ، ولا الصور
الحية ولا الموسيقى المتوائمة مع معاني القصيد ، بل ان للألفاظ وتموجاتها
وتوافقها وحرية نظامها دخلا كبيرا في تكوين هذا الهيكل . ونقص
نظام الألفاظ الحر عدم التقيد بالأسلوب النحوي الجامد في تركيب
العبارة) (٣) .

لقد مر بنا من شعر ناجي الكثير . . وهو - ما عدا أمثلة فردية
سنتناولها عند مناقشة «صحة الأداء» - زاهر بالتجارب الشعرية والصور
الملونة ، والانفعالات الهازة ، والموسيقى العنونة ، والألفاظ الموحية العذبة
وان لم يبلغ في ألفاظه مبلغ شعراء لبنان المولعين بالنحت اللفظي والاطراف
. . كل هذا في صياغة مشبعة ممتعة متسلسلة ، في غير فضول أو قصور
. . ولا أريد أن أضرب أمثلة جديدة تؤيد ما ذهبت إليه ، فليرجع الى
ديوانيه من يشاء . . .

أما الوحدة بمعنى اطراد القافية في القصيدة كلها فلم يتقيد
ناجي بها ، فقد زواج ورابع متحررا من القافية عامدا في رأيي ، تمثلا
بشعراء الغرب المحدثين الذين لا يلتزمون الوحدة الشعرية عن فكرة . . .
فهى عندهم تمسك بما لا يلزم لمجرد التقليد . . ويبدو أن (ناجي) كان
من أنصار هؤلاء . . .

صحة الأداء :

وصف الأستاذ دسوقي أباطلة (ناجي) في مقدمة ديوان (ليالي
القاهرة) بأنه (شاعر لا يكتب الا ما يتحرك له حسه ، ويفيض به خاطره ،
فالشعر عنده عاطفة نارية ، تتشكل في الأسلوب الذي يلائمها ، والقالب
الذي يتساوق معها . . ومن هنا أخذ بعضهم على الدكتور ناجي ، أنه
ينحرف في أسلوبه عن جادة الأسلوب العربي الصحيح ، من حيث اجلال
الألفاظ في غير معانيها . . .)

ولعل الأستاذ دسوقي كان يلمح الدكتور طه حسين الذي نصح

(١) كتاب (الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث) للأستاذ السحرتي ص ٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ص ٨٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ٨٥ .

الشاعر (ناجي) فى نقده ديوان (وراء الغمام (١)) بأن يعنى بلغته وكرر له النصح .

وهذا المأخذ فى رأى الأستاذ دسوقي مأخذ مردود (فاللفظ الواحد عند الشاعر ، يدور على أكثر من معنى . والشاعر مسوق بعاطفته نحو موضوعه ، وهى التى تلون أساليبه ، ولها من قوتها الجارفة ما تستطيع به أن تسم الألفاظ بأبعد معانيها . ولغة الشعر ، غير لغة القاموس . والشاعر يتأثر وينفعل ، ثم يعمد الى تصوير مرئياته فى حرية لا تتاح لغيره ، لأنه ينقل عن ذات نفسه ما يتفق فيها من معان مجنحة ، بعيدة على حد تصوير الشعر ، فيختار لها ألفاظا لا يقرأها القاموس ، ولا يستسيغها قلم الكاتب ، وذلك هو مفترق الطريق بين الشاعر الذى يستشرف الى الآفاق الجديدة ، وبين الشاعر الذى لا يجرى الا فى غبار القدامى) .

احسب أن المعانى المجنحة البعيدة على حد تصوير الشعر ، والاستشراف الى الآفاق الجديدة لا تقر هذا التشبيه :

واذا الدنيا كما نعرفها وإذا الفجر مطل بالحريق
وإذا النور نذير طالع وإذا الأحباب كل فى طريق (٢)

ان تشبيه الفجر النادى الألاق بالحريق غير موفق ، ولو أن عذره مائل فى أن الفجر هذا نم عليه ففزع ، وانتزع منه رفيقه فأسف . . .

ومما وقع فيه ناجي هذا التشبيه غير الموفق للجب :

يا غراما كان منى فى دمي قدرا كالوقت أو فى طعمه
قد قضينا ساعة فى عرسه وقضينا العمر فى مآتمه
ما انتزاعى دمة من عينه واغتصابى بسمة من فمه
ليت شعري أين منه مهرى أين يمضى هارب من دمه (٣)

على أن هذا التشبيه لم يمنع الأستاذ دسوقي أباطة من الاستشهاد بالمقطوعة على أن الشاعر بلغ القمة فى ملحمة الأطلال . وملحمة الأطلال من أروع ما قال . . . ولكن أولى بالتمثيل عندى هذه المقطوعة الرقيقة الحنانة :

لست أنساك وقد أغريتنى بغم عذب المنادة رقيق

(١) تحديث الأرباء للدكتور طه حسين ج ٣ .

(٢) الدكتور ناجي ، ديوان وراء الغمام . الوداع ص ٥٦ .

(٣) الدكتور ناجي ، ديوان (ليالي القاهرة) الإطلال ص ٤١ .

ويد تمتد نحوى كيد من خلال الموج مدت لغريق
آه يا قبلة أقدامى اذا شكت الأقدام أشواك الطريق
وبريقا يظما السارى له أين فى عينيك ذياك البريق (١)

أحسب أن ليس فى الدنيا أبر وأحنى من اليد المنقذة يلمحها الغريق
أشقى على الهلاك تمتد اليه من خلال الموج .. انها الحياة بعد الموت ..
انها الأمل فى قتام اليأس .. انها الروح الداهية تعود ...

ومن تناقض ناجى قوله :

فعرا الأفق قتام وبدت سحب تجبو الى وجه القمر
كلما تقرب تمتد له كاكف شرهات تنتظر (٢)
ان الكاف الشرهة لا تنتظر بل تتعجل وتلتهم ، ولكن لعل الشاعر
أراد بالانتظار التربص .

ومن أمثلة احوال الألفاظ فى غير معانيها عند ناجى قوله فى اهداء
ديوانه (وراء الغمام) : « فتقبل طاقة بالدم والدمع نديه » .

لعل الشاعر أراد (روية) فلم يسعفه اللفظ فى حينه ، لأن الندى
الريق المتلألئ لا يشبه به الدم وان دنا من الدمع الحنان شكلا ومعنى .

قد يتجاوز الناقد عن هنة كهذه لشاعر آخر ولكنها تلفته من ناجى
الريق القائل :

لك حسن نوار الخييلة ظل صبيحا قابتسم
لك نضرة الفجر الجميل على الذوايب والقمم
لك كل ما أوفى على قدر النهاية واستتم
فبأى قلب أتقى وبأى حصن اعتصم (٣)

وناجى شاعر القوافى المتعددة يفلت منه المعنى أحيانا فلا يمسك
به الا فى المقطوعة الثانية ، كقوله من قصيدة « لقاء فى الليل » :

عوذتها من شر أمسية تعيا بها وتضل أبصار
وكواكب ليست بمجدية ظلم مكديسة وأحجار (٤)

- (١) ديوان ناجى « ليالى القاهرة » قصيدة الأملال ص ٤١ .
- (٢) ديوان ناجى « ليالى القاهرة » قصيدة أحلام سوداء ص ١٧٨ .
- (٣) الدكتور ناجى ، ديوان وراء الغمام . ليالى الأرق ص ٧٦ .
- (٤) الدكتور ناجى - ديوان ليالى القاهرة قصيدة لقاء فى الليل ص ٣٦ .

هنا يستبهم المعنى فلا يتجلى الا فى البيت الذى يليه ، ولكنه لا يتفق معه فى قافيته اذ هو من مقطوعة أخرى بقافية جديدة .

عثرت بها فرفعتها بيدي جسمها يكاد يشف فى الظلم (١)

وحيثما يتعثر لفظ الشاعر فى الأداء مثل قوله :

يا حياة اليأس المنفرد يا يبابا ما به من أحد (٢)

الست ترى معى ان تجاوز اليأس ثقل على اللسان ؟ وحيثما تتناثر ألفاظه فى مثل بيته :

وسمعنا صرخة فى رعدا سوط جلال وتعذيب اله (٣)

ما وقع هذا البيت فى حسك . . انى أحس به تنافرا . . أين الجلال من الاله ؟ على أن الله لا يجب أن ينسب اليه التعذيب بدليل قوله « وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم رشدا » فبناء الفعل للمجهول فى الشر له دلالة لا تغيب عن فطنة ناجي . . ولكنه سها .

وفى شعر ناجي هذا البيت :

تعالوا نشيد ملجأ رب ملجأ

يضم حطام البؤس والأوجه الصفرا (٤)

وفى شعره :

هيا أجل هيا الى أيننا

لحيث تحكى حلم روحينا (٥)

لحيث . . هل هى ضرورة شعرية استوجبت (اللام) بدلا من (الى)

ويروق لناجي أحيانا وشي البديع ، فيجانب كقولته :

ابن ؟ أعن قلبى الممزق وارحم (٦)

(١) المصدر السابق ص ٣٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٤٣ - قصيدة الاطلال .

(٣) المصدر السابق ص ٤٥ - قصيدة الاطلال .

(٤) الدكتور ناجي . ديوان ليالى القاهرة - قصيدة مصر ص ١٧٩ .

(٥) د د د من ن الى ع ص ١١٢ .

(٦) د د د وراء الغمام ص ٥٨ - الزاوي .

ويطابق كقولته :

تراامت كما شاءت وشاء لها الهوى
وتلك الكروم الدائيات لقاطف
فيالك عندي من ظلام محبب
ألا كل حسن في البرية خادم
وكل جمال في الوجود حياله
إذا كان في لحظيك سيف ومصرع
إذا جردا لم يفتكا عن تعمد
فاني إذا جن الظلام وعادني

تميل على خد وتصدف عن خد
بياض الأمانى من عناقيدها الربد
تألق فيه الفرق كالزمن الرغد
لسلطانة العينين والجيد والقد
به ذلة الشاكى ومرحمة العبد (١)
فمنك الذى يحيى ومنك الذى يردى
وان أغمدا فالفتك أروع فى الغمد
هواك فأبديت الذى لم أكن أبدى (٢)

ومن التدبيج قوله :

وهذى المنايا الحمر ترقص فى دمي
وهذى المنايا البيض تختال فى فودى (٣)
ولو أننا لا نوافق أصحاب البديع فى أن التدبيج مجرد حلية لفظية ..
فإن أحياء الألوان له من التأثير الفنى ما يجعلنا نضعه فى مصاف مسرور
التعبير الفنية . والفنان الذى يدرك ما للألوان من أثر ينفذ إلى آفاق
فسيحة من رهافة الجس والسجام الصور ، أو تألقها ...

إن أبا تمام حين قال :

تردى ثياب الموت حمرا فما دجا لها الليل الا وهى من سندس خضر
لم يقل حبيب هذا البيت عبثا .. هو يعرف أن القرآن وصف
ثياب أهل الجنة بالحضرة ، فاللون الأخضر اذن له تأثير خاص على نفوسنا .
والفن تعبير عن المعانى بأشياء .. والانسان قبل أن يستعمل اللغة
أبان عن وقع الأشياء فى نفسه بأشياء ، فأحيانا يعبر بحركات عضوية
أو حركات صوتية أى بمبهمات ، ثم أبان بالكلمات ، فالإبانة بالأشياء
هى الإبانة الأولى وهى المستمرة .. والتدبيج بيان بالألوان والأضواء ،
فهو فنية قوية فى باب البلاغة .

وفى بعض شعر ناجى شية من التقليد لمن سبقوه تلمحه فى مثل
بيته :

-
- (١) الدكتور ناجى . ديوان وزراء الغنام ، العودة من ١٨ .
(٢) ديوان الدكتور ناجى ليلى القاهرة - قصيدة فى الظلام من ٢٣ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٢ .

انظري ضحكى ورقصى فرحا وأنا أحمل قلبنا ذبحا (١)
انه يلمح البيت المشهور :

لا تحسبوا أن رقصى بينكم طربا فالطير يرقص مذبوحا من الالم
ويقول ناجى :

شجن على شجن وحرقة نار من مسعدى فى ساعة التذكار (٢)
كما قال المتنبي :

أرق على أرق ومثل يأرق وجوى يزيد وعبرة تترق
ويبدو أن ناجى شديد الإعجاب بهذا البيت فهو يقول على مثاله
أيضا :

سهد على سهد وذك رى فوق ذكرى تزدهم (٣)
ويبدو أنه يؤيد رأى شوقى فى مولد الحب .. فكما يقول شوقى :
نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء
ففراق يكون فيه دواء أو فراق يكون منه الداء
يقول ناجى :

صدفة ثم وقفة فاتفاق فاستباق فموعد فلقاء
فقليل من السعادة لا يكمل فيه ولا يطول الهناء
فحين فلوعة فاحتراق فجحيم وقوده الشهداء (٤)
ومن شعر ناجى :

عندك قد حط رحال المنى وفى حمى حسنك ألقى عصاه (٥)
فأسلوب (ألقى عصاه) تعبير تقليدى قديم يبدو أنه راق المدرسة
الحديثة المجددة ولكنها على كل حال شواهد قليلة فى شعره لا تكفى

-
- (١) ديوان ناجى ليالى القاهرة ص ٤٣ - قصيدة الاطلاق
 - (٢) ديوان ناجى (وراء الغمام) قصيدة ساعة التذكار ص ١٧٢
 - (٣) ديوان ناجى (وراء الغمام) قصيدة ليالى الأرق ص ٧٤
 - (٤) ديوان ناجى (ليالى القاهرة) ملحمة السراب ص ٩٢
 - (٥) ديوان ناجى ليالى القاهرة قصيدة أنوار ص ٢٥

للحكم ، عليه وهى المآخذ التى قلما ينبجو منها شاعر محتم عليه أن يدرس شعر من سبقوه • والدارس لشيء متأثر لا محالة به •

••• قد يبدو هذا الأثر صريحا وقد يتوارى حتى يكاد يختفى ولكنه موجود ، فان الأستاذ مصطفى سوف يقرر أن عملية الإبداع يوجهها الاطار (١) ، وان نفى قضاء توجيه الاطار على جوهر الإبداع من حيث انه الخلق على غير مثال •

ان عنصر الخلق مضمون اذ تتكفل به الشخصية التى تتها من مركبات كثيرة لا يمكن أن تتشابه فى شخصين ، وهذه المميزات الخاصة بكل فرد هى التى تكيف الخلق فى العبرى أو الفنان •

يقول الدكتور مراد « ليس الإلهام شيئا خارجيا يتلقاه المبتدع كما يتلقى الربة ، فان ما ألهم به الشاعر كولريج هو خلاف ما ألهم به نيوتن عندما رأى التفاحة تسقط على الأرض • فالإلهام يصدر عن الشخص ولا بد له من تهيئة التربة التى سينبت فيها ، فان أرباب الفن الذين يحدوثونا عن الهاماتهم الخاطفة ينسون عادة أن يذكروا لنا أبحاثهم السابقة ومحاولاتهم العديدة ، وكل ما قاموا به من القراءات والمشاهدات والتأملات التى تدور حول المشكلة التى تشغل ذهنهم • وربما يتناسون الإشارة الى هذه المحاولات الشاقة لكى يرفعوا من قدرهم • وحرصا منهم على ألا يطلعوا العامة على الوسائل المتواضعة التى يلجأون اليها فى اخراج المعانى والأفكار فى زيتها النهائى » (٢) •

على أن (ناجى) كان يحمل أطرا عدة فى وقت واحد ، لقد كان فى ثقافته يستقى من موارد متعددة ، ويرى مناهل مختلفة • ومع هذا بل ولهذا تتميز شخصيته التى تطالعك فى كل قصيدة ان لم يكن فى كل بيت من قصيدة •

••• ولنتكلم عن شخصية ناجى الشاعر •

شخصية الشاعر :

كان (ناجى) سريع الانفعال ، كثير الأوهام ، قلق الظنون ، طامى الحس ، رفاف النفس ، هفاف المشاعر • وكلها عوامل تظهر أثرها فى

(١) كتاب الأسس النفسية للإبداع الفنى للأستاذ مصطفى سوف ص ١٦٢ •
(٢) كتاب مبادئ علم النفس العام للدكتور يوسف مراد ص ٢٤٤ • النص منقول عن كتاب « الأسس النفسية للإبداع الفنى » للأستاذ مصطفى سوف ص ١٦١ •

صاحبها فى حديثه ، فى أسلوبه ، قسما ت وجهه ، فى كل ما يصدر عنه
 .. وكذلك كان شأنها مع ناجى ، كان لها انطباعات فى أسلوبه فتركته
 متوثبا نابضا بالحركة حتى ليعديك فتهتز باهتزازة .

وصورة ناجى تظالمك فى كل بيت من شعره ، وروحه تطل عليك
 فى كل قصيدة من قصائده حتى شعره الذى يجوز عليه النقد يشمل
 شخصيته أيضا ، فهو حين يقول :

آه من ساعة بث وشجون وإقاء لم يكن لى فى حساب (١)

فالببيت من الناحية الفنية بيت عابر من ذلك النوع الذى كان يطلق
 عليه المغفور له حافظ ابراهيم (شعر السلام عليكم) السلام عليكم التى
 يقولها كل الناس دون أن تدل على مقدرة خاصة ، أو كفاية بعينها .
 وألفاظ البيت بعد هذا ألفاظ بليت من استعمالنا لها فى حديثنا اليومي
 .. (لم يكن لى فى حساب) هذه الجملة التى نرددها كثيرا هى تقريبا
 شطر بيت ناجى ، ومع هذا كله يدل البيت ببساطته الطبيعية وتحلله
 من الرصانة التقليدية وفضائه السريع الصريح ، يدل البيت بهذا كله
 على ناجى البسيط الواضح السهل الطبيعة ...

يقول الأستاذ دسوقي أباطة ، وهو يقدم ديوان (ليالى القاهرة) :

وهناك ظاهرة تسيطر على هذا الشعر من ألفه الى يائه ، تلك هى
 أنك لا تستطيع أن تلمح فيه ظلا لشاعر غير الدكتور ناجى ، فهو فيه
 بذائته وطابعه وطريقة تفكيره وألوان عاطفته ، ونوازع شعوره ، لا فى
 شعر الحب فحسب ، بل أيضا فى المناسبات والمداعبات ..

....

ليست هذه مجاملة صديق ، ولكنها كلمة الحق التى قالها دسوقي
 أباطة بالأمس وأقولها مع الكثيرين اليوم ، وسوف يقولها غدا كل منصف
 طيب النفس ينسب الفضل الى ذويه ..

وهنا نكون قد فرغنا من تحليل ونقد شعر ناجى ... ولكن هناك
 صفات أخرى لم يستوعبها التحليل ، وهو من حقه أن نستجملها له ومنها
 الحوار فهو لا يحب المنصة ليلقى عليك منها ما لم يتوصل اليه علمك ولكنه
 يسر اليك ويشاكيك ويقص عليك ويحاورك تارة ويحاور قلبه أخرى :

لم عدنا ؟ أو لم نطو الغرام وفرغنا من حنين وألم

(١) الدكتور ناجى ، ديوان (وراء الغمام) ص ١١ - ساعة لقاء ..

ورضينا بسكون وسلام وانتهينا لفراغ كالعدم (١)

ويسترسل :

أيها الوكر اذا طار الأليف لا يرى الآخر معنى للسماء
ويرى الأيام صفرا كالخريف نائحات كرياح الصحراء (٢)

ومن قصيدته (ساعة لقاء) :

كيف يفنى ما كتبناه بنار ويشهد الليل عليه والنهار
وخططنا به يشهد ودموع ويشهد المتوارى في الضلوع (٣)

كناية لطيفة هي إحدى طرائف ناجي في فنه . . .

ويخاور حبيبته في شاعرية توهم بالذم ، وهي تمدح أغلى المدح
وأزكاه :

أغر حسنك أن الخلد جدوله وأنه من غريب السحر منبعه
هيئات يخلد حسن لا يؤلهه شعر من النسق الأعلى ويرفعه
كم بت منتبها أصغى لخطوته أراه في الوهم أحيانا وأسمعه
كانك النسم النشوان منطلقا أظل كالنفس الحيران أتبعه

وشعر ناجي كثير الهمس . . . حتى في وحدة الشعاع :

يا وحدتي جئت كي أنسى وهأنذا ما زلت أسمع أصداء وأصواتا
مهما تصامت عنها فهي هاتفة يا أيها الهارب المسكين هيئاتا
جرت على الأمانى من مجاهلها وجمعت ذكرا قد كن أشقاتا
ما أسخف الوحدة الكبرى وأضيعها اذا الهوائف قد أرجعن ما فاتا (٤)

وشعره متوثب دائما لا يقر له قرار ولو ريع بالموت :

عجبا لقلب هيض منك جناحه وجرى به نصل الندامة يذبح
ومضى الحمام يدب فيه فان جرت ذكراك طار اليك وهو مجنح
لهفى على الناقوس بين جوانحي وعلى بقية هيكلي لا تصلح
لا فرق بين أنينه ورثينه وصداه في وادي المنية أوضح (٥)

(٢٠١) ديوان الدكتور ناجي ، وراء الغمام . العودة ص ١٨ .

(٣) » » » ساعة لقاء ص ١٣ .

(٤) ديوان الدكتور ناجي ، وراء الغمام . قصيدة أصوات الوحدة ص ١٨٨ .

(٥) » » » الختام ص ١٩٠ .

وفى شعر ناجى اذا رضى خفة وانطلاق ؛ الا تحس رفرفته وورفته
وهو يقول :

من أنت ؟ لا أدري ولا من أنا فيا اله الحب ماذا اسمنا
انا حبيبان وذا حبنا انا وليدان وهذا وليد (١)

....

ويتصل بهذا الفصل طريقة ناجى فى صوغ شعره فقد كان يسبح
بالشعر ، فهو يفيض به بينه وبين نفسه فى مجلسه وفى المنتدى وفى خلوته
وبين الجلوس .. وكان اذا هطل عليه منه هاطل هم يتسجيلة لساعته ..
على أى شئ يقع له .. وريقة .. بطاقة .. وبين يدي الآن بطاقة تحمل
اسمه وتحمل فى الوقت نفسه شعره طولا وعرضا فلم يترك بها فراغا غير
منغوم حتى لتخال اسمه - المطبوع فى وسط هذا الزحام من شعره المخطوط
- معنى من المعانى رف على البطاقة مع سرب الاشعار ..

وعندما عرض الأستاذ مصطفى سوييف لقصائد بعض الشعراء
بالتحليل كتب عن هذه الظاهرة أنها تدل (على حقيقة هامة ، مؤداها أن
الشاعر كان يعاني من ضغط شديد فى نفسه) ، وأنه كتب هذا الجزء
تحت وطأة هذا الضغط . لم يكتبه على ورقة تدل على استعداد المكان الذى
كان يكتب فيه ولا استعداده هو نفسه للكتابة ذلك الاستعداد الذى يقوم
على نوع من التنظيم والاعداد من قبل (..) (٢)

كما كتب فى موضع آخر مفسرا ما يقوله بعض الشعراء فى
استخباراتهم ومذكراتهم من أنهم يواجهون فى لحظات الابداع مشكلة
المسارعة الى كتابة ما يشرق فى أذهانهم ولا يكادون يتابعونه (٣) .. وهنا
استشهد بقول ساشفرل سييتول « تلك هى المباحج التى لا تطرأ على الكاتب
فى حياته الأدبية الا نادرات ، عندما تتوالى على ذهنه الصور العقلية ، كما
كانت تتولد من سن القلم وهو يكتب ، بل ان القلم فى بعض الاحيان يكون
ابطأ من أن يلاحقها تسجيلا .. » (٤)

وبين يدي من مخططاته صفحة (مسودة) فى صدرها عنوان (عامان)
وهو يدل على وضوح الغرض من القصيدة فى ذهنه . وبعد
العنوان هذان البيتان :

-
- (١) ديوان الدكتور ناجى ، (ليالى القاهرة) - قصيدة من ن الى ع ص ١١٣ .
(٢) كتاب (الأسس النفسية للابداع الفنى) للأستاذ مصطفى سوييف ص ٢٤٢ .
(٣) المصدر نفسه ص ٢٤٧ .
(٤) المصدر نفسه ص ٢٤٧ .

عام مضى وأخوه فى الأثر مرا كمثل اللبح بالبصر !
يتهاديان بمسبح العمر كالزورقين بلبلة السم !

ثم يلى هذا خط فاصل بينهما وبين ما يليهما • فهما يمثلان وثبة متكاملة ، ولفظة يتهاديان كانت أصلها (يتهادين) ، ويبدو أن عقله فى فورة العاطفة نبهه الى النحو ، فكتب فوق (ين) من يتهادين (يان) لتصير يتهاديان •

ثم يلى هذا بيتان آخران أولهما ناقص ، أو كما يقول الأستاذ سويف (فى طور التجريب) ••

أما الثانى فمكتمل :

أبصرتها فى صفحة الماء ••

مسحت أسى وأبرأت دائى رؤيا الحقيقة غير شوهاء
ثم خط فاصل ••

ويلى هذان بيتان • أما أولهما فهو :

أدركتها فكرا وتحليقا شارفتها حلما وتحقيقا
أما الثانى فقد استهله بقوله :

أدركتها مندفا ، بالآلية اللفظية •• ثم أدركته تهويمه شعرية فوسم البيت على هذ الصورة :

أدركتها ————— وغنمتها عطرا وموسيقى !

ثم يلى هذا خط فاصل يعقبه هذا البيت :

عينى وعينك حينما التقتا روحى وروحك حينما صفتا

وفى المسودة (حينما صفتا) فى الشطر الاول ثم شطب لفظة صفتا وكتب فوقها (التقتا) ••

أرايت أظاه وهى متواكبة ، بل انها فى سباق تتدافع فيسبق لفظ القافية لفظ المصراع الأول ؟ •

وفى الورقة غير هذا ألفاظ متناثرة ، ولكنها متبلورة تبشر بمعان أكبر تلوح فى أفق الشاعر ولكنها لم تظهر بتمامها مثل :

وتزاحمى فى حيك النسب :

وغريمي الأضواء

وخصمي ! تلتهب

وغريمي الأنظار تلتهب

ويؤيد حالة الغموض الشطب والتغير البادى فى لغظتى عليك ،
وتزاحمى الأضواء ، فأبدلت (فى حيك) بالأضواء .

لقد كان ناجى شاعرا موعودا، تخايله أطياف المعانى فيختلج ويختلج
القلم فى يده معه ، وتباكرها صورها فيرف رفيق الحزامى بات طل
يجودها ..

وبعد : فهذا تسجيل وتحليل لفن ناجى الشعري ، هو على توسعه
لم يحظ بكل ما يمكن أن يقال فى شعر الشاعر ، ولكنه خطوط كبيرة
حاولت قدر المستطاع أن تظهر محامده دون أن تغفل فى هذا الشعر هبات
قلما يسلم منها انسان فنان ، اذا استثنينا الذين لا يعملون .. فهؤلاء
السادة وحدهم هم الذين لا يخطئون ..

الفنان فى ناجى الشاعر

لعل الكتابة عن الفنان ناجى الشاعر أسهل الموضوعات على الكاتب لأنه هنا يستقى من معين ثر الجوانب .. ففى ناجى من الفنان غزارة الشعور والصدق ، وتجنيد الخيال ورهافة الحس ، وهى مقومات الخلق فى العمل الفنى ..

وفى ناجى من الفنان خبه للخير وهيامه بالجمال .. الجمال فى الطبيعة ، والجمال فى الانسان .. وفيه من الفنان عطفته على القبح واستقطاره للجمال من ينابيع خفية فيه ..

وفى ناجى من الفنان عبادته للفن ومغالاته به واعزازه له .. وفيه منه تواضعه واسرافه وطربه للنكتة وابتداعه لها وحبه للحياة .. وأخيرا فيه من الفنان الأصيل شخصيته ذات الطابع الغلاب الذى يترك أثره فى فنه وفى متذوقه معا ..

أما غزارة الشعور والصدق فيه فيتجلى فى غنائه الذى لا يمل بالعاطفة .. العاطفة بمعناها الواسع الذى يتصل بالحياة والاحياء .. وقد كان ناجى فنانا أصيلا يستوحى قلبه ويستلهم عاطفته ويفهم الشعر على أنه عاطفة لا أكثر ، ويأسى (لأن فى مصر مدرسة جلييلة الأثر يقودها زعماء لهم خطرهم يقولون بعكس ذلك) ويقص فى هذا الصدد قصة بيير ميل الذى (ذهب ليزور اناتول فرانس فوجده قد وضع كتابا على ركبتيه وظهرت عليه هيئة الطفل المذنب النادم ، فسأله : ماذا بك يا أستاذ ؟ فأجاب : هذا كتاب بيير لوتى عنوانه (الصحراء) كله وصف للرمل والضوء ، والضوء والرمل .. ليس به فكرة واحدة ، ومع ذلك فهو

آية من آيات الأدب الخالدة ، انى حزين لأنى أضعت حياتى اعتقد أن
الأدب يجب أن يعتمد على الأفكار أولا ، فالآن يتضح لى عكس ما كنت
أعتقد ٠٠ (١)

ولعل ما يرضى الشاعر هنا ما وصفه به ابراهيم المصرى حين قال
عنه ، (وهو لا يفكر أولا ثم يحس • بل يحس بجميع حواسه وأعصابه
ثم يرسم ويحلل ويتغنى ، ومن خلال أغانيه تلمح فكره كعنصر مكمل
لعاطفته منطلق من صميم وجدانه ٠٠

واذن فعاطفته لا تنحدر من فكره كمعظم شعراء هذا العصر المثقفين ،
بل هو فكره الذى ينبع من عاطفته ، لأنه شاعر قبل كل شيء ، بالعاطفة
يعيش ، ومن العاطفة يستلهم ، وفى سبيل الاحساس بالعاطفة وتصويرها
يضرب فى مناكب القاهرة ليلا ، ويغشى أنديتها وملاهيها ويفرح ويهزل
ويضحك ويبكى ! (٢) •

فان هذا بعينه يتساق مع رأى شاعرنا فى الفنان ويلتقى •

**ويضرب ناجى مثالا آخر فى العمل الفني يدل على أن الفنان يجب
ان يفكر بالقلب فيسوق تعريف الشاعر عن الشاعر دنسانى :**

(رجل يرى جلال العالم فى لمحة واحدة ، ويرى الجمال فى كل
نواحيه ، ويطعنه القبح كخنجر • يأبى أن يرى الظلم يقع على الآخرين
كأنه يقع على نفسه ، رجل يعرف العالم بأجمعه كما يعرف الآخرون الفرد
بالتفصيل ويعرف الزهور كعلماء النبات ، رجل يظن مجنوننا ، بينما هو
فى الحقيقة رجل يسمع صوت الله من حين لحين) (٣) •

وآية الصديق فى شعر ناجى أنه كان فى جملة من نفسه واليها ،
فقد غنى عواطفه هو ، وبكى آلامه هو ، والفن أصديق ما يكون اذا ما حكى
عن النفس بالسليقة دون تعمل من الفنان ٠٠

وفى شعر ناجى غير عواطفه وآلامه تماس وإع للحياة والأحياء ،
وهو فى انفعالاته صادق يعبر عما يحسه ويتصور ما يراه ، فان خالف
الواقع المادى فى هذه الصورة أو تلك من صوره الشعرية فذلك من املاء
عاطفته عليه ، عاطفته هى التى تكيف احساساته وتلون مرائيه ٠٠٠
يقول رودان (اننى لا أغير الطبيعة أبدا ٠٠ اننى أرصدها كما أراها ،

(١) من مقال للدكتور ناجى (معنى الشعر) فى مجلة الفن •

(٢) كتاب (صوت الجيل) للاستاذ ابراهيم المصرى ص ١٤٠ •

(٣) من مقال للدكتور ناجى (معنى الشعر) •

وإذا كان يبدو للبعض أنى غيرتها فذلك يكون قد تم فى لحظة لم أدرك فيها أننى أغيرها فعلا . . . وبعبارة أشد وضوحا إن العاطفة تؤثر فى وجهة نظرى ، هى التى تغير الطبيعة كما تبدو لسائر القوم ، لأن عاطفتك تكشف لك الحقائق الباطنية الكامنة وراء المظاهر . . . ولكن يبقى بعد ذلك المبدأ الرئيسى للفن ، وهو أن تنسخ ما تشهد وأى منهج آخر مآله إلى الفشل حتما . . . وليس على الفنان أن يجعل الطبيعة فانه لن ينشئ عملا فنيا . . . لأنه ينظر Regarde دون أن يرى Voir (١) .

وهكذا كان ناجى يرى وينفعل ، ويعبر عما رآه ، ويسجل انفعاله به فى بساطة الفن الأصيل الذى ينبع من نفس سهلة وفطرة سمحة مواتية . . .

وخيال ناجى المجنح دليله تلك الصور الكثيرة المعروضة فى ديوانه . . .

ويتصل بغزارة الشعور رهافة الحس ، وناجى شاعر مرفرف كأنه يهفو بجناحين . . .

وشاعرنا كبير النفس واسع المروءة . . . كم آسى من جراح وكـم بذل من معروف . . . لم ترض رحمته بالطب لمرضاه فحسب ، بل تكلفت بتقديم الدواء للعاجز ، وكان يعود الفقراء منهم فى بيوتهم متظوعا . . . لقد كان رجلا ، وكان نبىلا وكان عطوفا رحيما . . .

وعندما استأثرت رحمة الله بالطبيب الآسى غلب على رثاء الرائي حديث رحمته حتى كادت تنتظم منها ملحمة رفيعة ، فشعره حنان وطبه شعر ، وهذه دمعة واحدة من الدموع التى أريقته عليه لا تدرى معها أيهما أحق بالبكاء : الفنان . . . أم الانسان ؟

(كذلك كان صاحبى « ابراهيم » ما ترك من حياتنا وجها الا مسيح بيد الشاعر عليه ، ولا موضعا الا رف بجناحيه لديه ، ولا مروءة الا بادر اليها متوثبا ، ولا مكرمة الا استبق اليها ، صداجا طروبا ، ولا خيرا الا كان لندائه فى مطالع المستجيبين . . .

لقد جعل الطب أيضا شعرا ، وذهب فيه مذهبا مبتكرا ، اذ أدخل عليه الرفق ، فجعله صناعة حنان ، وانكمش فى دراسته ، ليجمع فيه بين المهنة والفن ، حتى لترجم دار علاجه بأهل الفاقة والحرمان ، وهو

(١) النص منقول عن كتاب الأسس النفسية للإبداع الفنى للإستاذ سوييف من ٢٧٧

المتهم لهم ، لا يسألهم أجرا ، بل قد يشتري لهم الدواء ، ويذهب يبحث
عن الغائبين منهم والمدنفين . .

كان ابراهيم ناجي طبيبا رحيمًا ، لا يابه بالمال ، ولا يحفل بمركز
العليل بل يؤثر الفقراء على أصحاب اليسار ، لأنه يجد في علاج المساكين
(انسانيته) الكريمة ملتقى مع آدميته النبيلة ، كشاعر بديع ، ملهم
الخاطر ، رقيق الوجدان . . (١)

ليس هذا القول من فعل الموت ولهفته ، وليس هذا من تعلق النفس
بالممنوع ، وتشبثها بالمسلوب الذي لا أمل لها في استخلاصه ، وليس
هذا من حنين الحي الى الميت . . ليس هذا من فعل الموت الذي يضرع
حب الميت في قلوب الأحياء وكأنه ولد فجأة ودفعة واحدة . . ولكنها
صفات الرجل ترفع من ذكره بعد وفاته ، كما كانت تعلو من قدره في
الحياة .

انها صفات الرجل التي وصفه بها راثوه ، فلم يزيدوا شيئا عما
قاله فيه ابراهيم المصري قبلهم منذ عشرين عاما ، حسين كعب عن ناجي
الشاعر يقول والعجب عليه باد :

« للدكتور ابراهيم ناجي (٢) شخصية غريبة تستهوي كل من
اتصل بها . شخصية شاعر قلق يحيط بها ويغمرها السر الذي قذف
بها الى هذا العالم والذي لا تنفك تتساءل عنه ، وتتطلع اليه ، مبهوتة
مما ترى حولها من ألم وجمال ، شخصية خفيفة مجنحة لا تلبث أن ترف
على الاشخاص والأشياء حتى تحلق في أجواء غير منظورة أسعد ما تكون
بالصمت والتأمل والصفاء » .

تلتقي بالدكتور ناجي فتشعر كأن نسيما منعشا يهب عليك .
وتصافحه فكأنما هو يفتح صدره لك ، وتجلس اليه وكأنك في حضرة
روح حائر ، وتستمتع لحديثه ، فيأخذك العجب من طهارة قلبه وبراءة
نفسه وسلامة طويته وغذوبة صوته وطلاقة محياه ، فتذهل ويتضاءل
شخصك في عين نفسك ، ويعز عليك نقصك ، ولا يغريك في النهاية
الا يقينك بأن الخير الذي غادرك استقر في سواك وتمثل نابضا حيا في
قلب هذا الشاعر النبيل الشاب ا

(١) للاستاذ عباس حافظ .

(٢) كتاب « صوت الجيل » للاستاذ ابراهيم المصري ص ١٣٨ - ١٣٩ وقد صدر
هذا الكتاب سنة ١٩٣٤ .

وتحدق اليه فتري رجلا هزيلا متوسط القامة منكش الأعضاء ،
أصلح مقدمة الرأس ، ناعس العينين مديد الذقن ، أشبه بالصورة التي
نعرفها للشاعر الايطالى دانونزيو ، يمشى وكأنه يتعثر ، يصمت وكأنه
غير موجود ، يقبع فى ركن من القهوة وغليونه فى فمه وكان سنة من
النوم قد استغرقته . ثم يتكلم بغتة ويقبض ولا يفتأ يتحرك ويتلفت
وبلوح بذراعيه تلويحا عصيبا متداركا ، فتحس لفورك رجابة نفسه
واضطرابها وضيقها بما تحمل .

وتسمعه يجادل ويحتد وصوته أبدا صرّيج ، وجبينه أبدا منبسّط
والابتسامة الرقيقة لا تفارق شفثيه ، وعينه الحاملة أصفى ما تكون محبة
وعطفا ، فيخطر لك أن تداعبه بنكتة طريفة ، وسرعان ما يتبدل ويستضيء
وجهه ويتألق وتشيع فيه نضارة معبودة كنضارة الأطفال ، فيأخذ فى
إرسال النكتة تلو النكتة ، حاضر البديهة عبقري الفكاهة جم الحيوية ،
يضحك ضحكات حرة عريضة كأنما الفرح كله قد اجتمع فى فؤاده ،
وكانه قد نسي فى لحظة واحدة كل ما استشرفت عليه نفسه من هم
الحياة ! »

هذا جانب الخير فيه ، أما جانب الجمال فحديثه ذو فنون . . لقد
هام بالحسن فى الانسان والطبيعة . . وغناؤه للناعمات الفيد قد سمعناه
فى فصل (شاعر الغزل) . . فليستعده من يشاء . . أما الطبيعة ففي
حسبها غالبا كانت وقفاته وملتقاه حتى ليخيل الى أن كمال هنائه فى
جمعه وجه الحبيب الحسن والخضرة والماء . .

وهو يطلب بدوره التجاوب مع ما حوله ، فيتساءل :

هل يسمع النيل اذ سرنا بجانبه	والموج مجتمع فيه ومفترق
صوتا تماوج فى روجي فجوابه	من جانب القلب موج راح يصطلق
تظل تنهب أذننى من أطايبه	كأنها من خفايا الغيب تسترق
يا جنة من جنان الله أعبدتها	لن تبعدى ولدى السحروالعبق(١)

ان الفصن الصغير يستوقفة . . و . . يجذبه . . ويوحى اليه كيف

هذا ؟

لا تسلنى ، بل سله هو يقص عليك :

رأيت غصنا صغيرا	منورا ونضيرا
أرق ما تشتهى النة	س منظرا وعيرا

(١) ديوان الدكتور ناجي . . ليالى القاهرة - قصيدة المنصورة ص ١٠٨ .

قد كاد يذوى الزهورا	جذبته جذب عنف
وكان غصنا صبوراً	فلم يثن لجذبي
حتى علا مسرورا	لكنني لم أدعه
ضرباً عنيفاً مثيراً	وارتد يضرب وجهي
ذا الحديث المثيراً	وعاد ينشر في الأيك
لان شامتاً مسرورا	تضحك الأيك جذ
قد فاز فوزاً أخيراً (١)	ضحك الذي بعد صبر

هذه إحدى قصصه مع الطبيعة فيها اشتها المنظر واسترواح العبير ،
وفيهما المعاشة ، وفيها المساجلة وفيها التأمل والاندماج ، وأخيراً فيها الرمز ،
كل هذا في بساطة ينبل بها الفن لأنها بساطة الأستاذية المبدعة . .

ونأجي يعرف كيف يتحد بالطبيعة . ومن لمخطوطاته هذه الصورة
من صور امتزاجه بها :

قاسمتني الورقاء أحزان قلبي	وشجاء ، وغردت حين غرد
ثم ولت ، والقلب كالوتر الدامي	يتيم الدموع واللحن مفرد
ما بقائي ! أرى اطراد فنائي	وانتهائي في صورة تتجدد

وهذا الشاعر المولع بالجمال في الطبيعة والانسان صدمه مرة
كاتب بمقال عنوانه (شعراء الجمال معزومون من الجمال) وسلكه
بينهم . .

فرد عليه مثنائاً : على أي صورة تفهم الجمال ؟ ثم انبرى في الدفاع
عن الشعراء الذين لم يشأ حظهم أن يروا كاتب المقال ، ثم انتهى بنفسه
مخاطباً الكاتب في سخرية قائلاً (. . الصحيح أنك لم ترني أبداً ، ولم
تقرأ لي أبداً . فلماذا لا تزورني لفنجان قهوة . . لعل أعلمك وأقول لك
ما هو الجمال !!

الجمال أيها المحرر العزيز فكرة ومعنى ، وحركة وحياة ، وإشراق
ولعان . . وليست الوحاشة في أنف كبير ولا في خلقة (زرايبي) ولا في
شفة غليظة ولا في نظارة سميكة ولا في قوام « متداع » .

الجمال أيها المحرر العزيز هو ذلك الشيء المبهم الذي يطالعك من
عينين ، ولو ذابتين ، فينتزع إعجابك وأنت لا تدري بالضبط لماذا . . ؟

(١). ديوان الدكتور ناجي . ليلي القاهرة - قصيدة غصن صغير ص ١٩٨ .

اجلس مع أى من هؤلاء الوحشين ، وتحدث الى أى أحد منهم وأنت تعلم معنى الجمال .. جمال النفس ..)

وليس الجمال وحده هو الذى يستهويه فان الأديب عنده هو الذى يعلمنا أن نحب الحياة (ورسالة الأديب تجعلنا نؤمن بجمال الوجود وبأنه ما من شيء الا وله قيمة ، وأن القبح الظاهر قد يستتر جمالا بارعا ، ان فى الشر صورة قد تكون أروع من الخير . وبعبارة أخرى أن الأديب الحق هو الذى « يرى » والذى يستطيع بدوره أن يجعلنا « نرى » ونحس ونلمس ونؤمن ..) (١)

ها هو ذا ناجى فى رحابة قلب الفنان يشفق على كل شيء ويتفرق فى الاتصال بالأشياء والناس ، ويسكب الفن سلامه ونوره فى نفسه فيلمج الجانِب المضى كما يدرك بنفاذه الجانِب المظلم من كل شيء . ويفقر هذا من أجل ذلك .. كان يرى لكل شيء جانِبين فإذا أخذ على المتنبى تصويره الدنيا كمعركة دامية لا أثر للرحمة فيها ولا للإنسانية ولا للخير ، أردف قائلا فى عزاء (ولكن لا بأس ، لنعلم أولادنا القوة والبأس والاعتداد بالنفس ، ولنتركهم للحياة بعد ذلك فسيرون فيها الخير والشر جارِين ، والطيب والخبيث شيئين ضروريين متلازمين ، وفى رأيي أن الشعور بالقوة هو الذى يولد الرحمة ، لأن الضعف يولد الحقد والثورة الكامنة) (٢)

وناجى الذى يحب الخير ويعشق الجمال ويدين بالرحمة ، يفضالى بفضله على البغس وهو المستهين بالمال ، السخى به .. دعتة محطة الاذاعة المصرية ليسجل ملحمة المعروفة « الاطلال » فأرسل اليها نسخة منها .. وقد سجلها مديرها فى ذلك الحين فى شريط استغرق نصف ساعة .. وأذاعتها مرارا .. كل هذا دون أن يفتحها ناجى فى القيمة المادية لتسجيل الملحمة .. وإذا بالاذاعة تعرض عليه .. مائة وخمسين قرشا .. أتدري ما الذى فعله ناجى ؟ لقد غضب الفنان لفنه الذى صاغه من قلبه وروحه ثم ارتخصته محطة الاذاعة .. لقد ذهب ناجى الى مدير الاذاعة وقال : ان هذا ثمن تغريدك ، لا ثمن شعري أنا (٣)

كان هذا آخر عهده بالاذاعة ..

على أنه لا يعنيه التقدير الحكومى ، وتسأله عن السر فيقول :

(١) من مقال « أدب السخط وأدب الدرع » فى مجلة الفن

(٢) من مقال « معنى الشعر » فى مجلة الفن

(٣) من مقال « دردشة أدبية » فى الجمهورى المصرى

(انى مؤمن بهذا الشعب ، وقد كنت أعتب على صديقى الدكتور زكى أبو شادى ضجره بالحياة فى مصر ، فقد تخطته الحكومة فى الترقية مرارا حتى مل الانتكار وهاجر إلى أمريكا • كنت أعتب عليه هذا المل وأقول له ان لدينا رسالة نؤديها للشعب وعلينا أن نؤديها مهما لقينا فى سبيلها • أما هو فهاجر يائسا ، وأما أنا فقد كانت تعترينى فكرة الهجرة من حين لآخر ، فأذكر نفسى بما قلته لأبى شادى ، وهو أننى أحمل قلما أودى به رسالة لبنى قومي) (١) •

ان (ناجى) يكبر الفن هذا الاكبار ، لأنه يحبه غاية الحب ، هل تصدق أنه كان يتداوى بالفن ! يتداوى به حقيقة لا مجازا • وكيف ؟ سأترك له الجواب • (مرت الأيام ، وتقدمت بى السنين ، واعترتنى أمراض وأزمات فأخذت أتداوى بقراءة أغاني شاكسبير • وهذه الأغاني لا يعرفها الا القليلون لعمقها وصعوبتها •

وكان تسليشى أن أقرأ وأترجم ، ولم اكده افرغ منها حتى برئت من مرضى جسمى ونفسى ، وعدت الى شبابى ولازمت محتفظا به بأغاني صديقى شاكسبير •) (٢) •

وفى ناجى من الفنان روح الفكاهة ، فهو يطرب للنكتة ويعرف كيف يخلقها • وهو يرى النكتة فنا ، ويستشهد على فنيته برأى ذلك الفريق من علماء النفس الذين أكدوا أنها فن • اذ (الفن طاقة حيوية فائضة ، لا تتيسر الا للذين وهبهم الله من الحيوية معينة طيبا لا تستنفده شواغل الحياة العادية ، ولا تبتلعها الدنيا بمتاعبها المألوفة ، وهم يستبدلون على ذلك بأن النكتة الصافية كالفن العالى ، لا توجد الا عند الأذكاء •

هو يعقب على هذا الرأى متسائلا : ولكن ما الذكاء ؟ لا شك انه ضرب من البريق اللامع • انه استخلاص للنتيجة ، وإدراك لمخرج ، أو ملاحظة لما يفوت الكثيرين ، أو حدة فى الذاكرة ، ونحن نسميه تيجورا بسرعة البديهة ، ولو أن سرعة البديهة ضرورة لكل فنان أصيل ، ولكل رجل عبقرى ، وهل النكتة البارة الا نوع من الخلق والابتكار ؟ فهسى اذن فن ، لأنها وليدة الذكاء ؟ • ولا يعرف فنان أصيل الا وله باع فى النكتة •) (٣) •

(١) نفس المصدر •

(٢) من مقال للدكتور ناجى بعنوان (كتب أثرت فى حياتى) • • • • • الجمهور المصرى

• ١٦/٢/١٩٥٣ •

(٣) من مقال « فن النكتة » فى مجلة الاثنين •

ومن طرائف ناجي تلك القصة التي يرويها : (اشترى العمارة التي أسكنها بقال ثرى ، ثم شاء أن يسكن شقة فيها ، فأذرنى بالاختلاء ورفضت بالطبع ، فسارت القضية الى المحكمة وهناك تبين أن صاحب العمارة سيسكنها هو وأولاده ، وأن بناته على وشك الزواج ، فشرد ذهني، والتفت فجأة أسأل القاضى :

أريد أن أعرف أولا ، لماذا اختارنى وحدى دون سكان العمارة جميعا ؟ • ولم يكن محامى البقال قد أعد ردا لهذا السؤال الذى فوجئ به فالتجأ الى اختراع سبب ••

(وهنا دمانة فى الوصف اذ المراد (اختلق) فخففت ولطفت حتى صارت اختراع) - حين قال :

- الدكتور غنى •• ومالك عمارة فى شبرا •

فسألنى القاضى •

- هل أنا حقا أملك عمارة ؟

فقلت على الفور :

- عمارة ايه بس •• هو أنا حتى « مالك » أعصابى ؟

فضحك القاضى ، وضحك جميع الحاضرين ، وكان الحكم بعد ذلك فى صالحى •• (١)

.....

حدث أن زار ناجى الطبيب مريضا من المعذبين فى الارض ولما فحصه وقف على السر الرهيب •• إن العلة لم تكن سوى الجوع ! وأحنى الطبيب رأسه ثم رفعها ليطمئن مريضه • وأقبلت زوجة الرجل تسأل (الحكيم) عما به فطمأنها ثم أسرت يده الى يدها خمسين قرشا وطلب اليها أن تشتري له بها دجاجة ولحما وتطعمه ثم انصرف •

وجرت الأيام فى سيرها فاذا بناجى الشاعر يرى نفسه مصادفة أمام زوجة الرجل فى بعض الطريق •• فتذكر وسألها عنه وعما فعلته وهل أطعمته الدجاج كما وصف لها ؟ فقالت على الفور :

(لا أنا اديت الفلوس لحكيم بيقيم علشان يكشف عليه)

(١) من مقال فن النكتة فى مجلة الاثنين •

كان ناجي يروى هذه الطرفة في مجالسه متفكها ويعقبها بضحكة طويلة مستغرقة فيها من سخرية العارف ، وألم الأسوان أضعاف ما فيها من سرور المتندر الخلى ..

وناجي ضحك طروب .. ولا يتنافى هذا مع شعره الحزين الكابي فان أسرع الناس استجابة لأسباب الضحك عند الحاجة أعظمهم احساسا بالألم .. وقد كان شعره صورة من نفسه ، ونفسه طالما عصرها الألم .. أما النكتة فهي تنفيس عن ذلك الألم من نوع آخر ، تنفيس ضاحك حين كان الشعر تنفيسا باكيا .. وقد رأينا طرفا من دعاياته عند عرضنا لشعره ، دعاياته التي نال بها آخرين .. وهاك دعاية ، ولكنها تدور حول نفسه وتمثل روح الفكاهة عنده .. (كل من رأى من اخواني يقول لي أنت طفل كبير .. وسنحت الفرصة لاستغل هذه الهيئة ، فتقدمت لمسابقة الطفولة ولكني للأسف منعت من الاشتراك بحجة أنني طفل عجوز ، مع أن لدى من الأدلة ما يثبت أني طفل ويجوز لي أن أتطفل على الطفولة .. فانا أبذل أسناني الآن ، ووصف لي الأطباء الاكثار من شرب اللبن والفيتامين المركز الذي يوصف للأطفال للبن العظام .. وليس لي شعر ، وقد أخذ ينبت أخيرا ، وألبس مريلة في العيادة ، وأستطيع أن أضحك في أعصب الاوقات ، وأنا شاعر والشاعر دائما طفل كبير .. فطمت من كل شيء الا من صفتي الطبيعية ، وأطير من نفخة ، وتقلبني الريح رأسا على عقب اذا اشتدت قليلا ، فبناء عليه أطالب (الاثنين) بأن تشركني في مسابقة الطفولة ، وسواء اعتبرت طفلا أو متطفلا (١) .

لشد ما تذكرني هذه القطعة بأسلوبها وروحها وسخريتها بالمغفور له الأستاذ المازني .

.....

ومن نوادر الفنان في ناجي الشاعر هذه القصة فاسمع اليه .

كنت في امتحان البكالوريا أحفظ (هملت) كلها وأمثلها كاني على مسرحه .. فلما جاء دوري في الامتحان الشفهي سألتني الممتحن البريطاني كما يسأل الطلبة ، ماذا تحفظ ؟ فقلت (هملت) قال : أسمعني .. فنهضت واقفا وأخذت ألقى وأمثل .. ونسيت نفسي ونسى الممتحن نفسه ووقته ، حتى أفاق فنظر في ساعته فاذا به قد استمع الى ساعة كاملة بينما الناس في الخارج يتساءلون عن سر هذا الامتحان الطويل لطالب واحد .

(١) من مقال لناجي في مجلة الاثنين بعنوان (طفل متطفل) .

وأخيرا نظر الى وقال : « هل جئت تمتحن في البكالوريا .. اذهب
بارك الله فيك » (١) .

.....

وهو فنان طالبا في الطب .. وكيف ؟ .. عنده لا عندي الجواب :
(أخذت أدرس الطب على طريقة فنية ، فقد كنت أبتدع لرفاقي الصور ،
واخترع لهم من فنون الكتابة ما يعينهم على الحفظ . وظللت كذلك الى
الساعة التي أكتب فيها هذا ، أزالو الطب كأنه فن . وأكتب الأدب كأنه
علم ، أى أراعى فيه المنطق والتحديد والوضوح) (٢) .

وفى ناجى من الفنان تواضعه واسرافه وليس التواضع والاسراف
بصفتين موجبتين فى الفنان فقد يكون على النقيض : اذ الفنان كشخص
غير عادى لا يعرف الوسط الشائع بين الناس فهو فى صفاته اما فى هذا
الطرف أو ذاك ..

وتواضع ناجى دليله أنه كان طبيبا وكان شاعرا وهما صفتان
نايغتان ، ولكنهما لم تحفزا الى الفخر والتعالى بل كان لين الجانب رقيق
الخاصية .. قلم يفتر على عادة الشعراء .. ولم يحرز بطبه المال على
كثرة مرضاه لأنهم لم يكونوا فى عينيه يوما وسيلة للكسب ، بل مجلى
للرحمة والانسانية والفنية فيه ..

وفى ناجى من الفنان شخصيته التى تمهر العمل الفنى بامضاء غير
منظور . وأحسب أن لست فى حاجة الى من يدللك على القائل اذا سمعت
هذه الأبيات :

انى على يأس وكأسى كابى	وعلى سرايى عاكف وشرايى (٣)
ولقد فرغت من التخلل بالمنى	الا وميضاً فى الرماد الخابى
رمقا يعللنى بأنك عائد	يوما لقلبى قبل يوم ذهابى (٤)
حتى اذا الأقدار شئت وعدت لى	راجعت نفسى واتهمت صوابى
أأرى شروكك فى أفول مغاربى	وأشم عطرك فى ذيول شبابى

(١) من مقال « كتب أثرت فى حياتى » الجهور المصرى ١٦/٢/١٩٥٣ .

(٢) من مقال « الأدب فى سيرجاله » للدكتور ناجى .

(٣) ديوان ناجى « ليالى القاهرة » يأس على كأس ص ٥٩ .

(٤) يجوز أن يروى هذا البيت :

رمى يعللنى بأنك عائد يوما لقلبى قبل يوم ذهابى
على سنبل الالتفات . ولعل هذا أحسن وقعا فى النفس .. ولكن لنلجأ للشاعر بيته
يتحكم فيه ذوقه وحده .

انه ناجى بلا مرء ٠٠ ناجى بياسه وكأسه وسرايه وأمله وشكه
وحذره ٠ انه ناجى وهذه الفاظه واللحن من موسيقاه ٠

ويعرف ناجى « الانتاج الفنى » بأنه (ولادة وأن الفنان الصحيح
يعانى فى سبيل فنه ما تعانى الأم حتى تضع مولودها ، وما يسبق ذلك
المولود هو نفس ما يحدث للفنان حين يهبط عليه الوحى فتملؤه الفكرة
ولا تزال تطارده حتى تندمج فيه ، وما تزال تلح عليه حتى يخلص منها
ما نسميه الصل الفنى (١) ٠

ويذكرنى هذا التعريف بقول المغفور له الأستاذ المازنى (٠٠ ليس
ثم أدنى فرق فيما أعلم وأحس بين التمثيل بالجنين ، وبين حركة التوليد
فى النفس ٠ وكما تفتت المرأة بعد أن تضع طفلها ، ولا ينازعها فى ذلك
الوقت شوق اليه أو تحس فرحاً به ، وإنما يكون احساسها بالفرح بعد
الضيق الذى كانت فيه ، والكرب الذى كانت تعانى به ، والراحة بعد
الجهد والمشقة والعذاب ، والتفتير الذى يورثها اياه ما تجشمت ، كذلك
يكون الأديب بعد أن يستريح من أزمة النفس والفكر (٢) ٠

والرجلان صادقان فيما ذهبا اليه ٠٠ ان كلا منهما يصف تجربة
عائناها ويعانيها كل فنان أصيل ٠

وبعد ٠٠ فقد عاش ناجى حياته فناً ، أخرى بالواصفين أن يقولوا
فيه ما قاله هو فى الحكيم (قضى زهرة الحياة يقترب من معين السماء ،
ويقتبس من النجوم ، يريد أن يرفع أهل الأرض الى تلك العوالم المضيئة
المتألقة العالية ٠٠) (٣)

سألوه عن شبابه فبرقت عينه وهو يتمتم ٠٠ (ظفرت بالجمال ،
وعبدت الفن ، ونعمت بالموسيقى ، ولعبت بالمال ، واحتملت العذاب ،
وتلذذت بالكفاح) ٠

الجمال والفن ، والموسيقى معابد فنان ٠٠

واللعب بالمال طبيعة فنان ٠٠

والعذاب والتلذذ بالكفاح ضريبة الفن ٠٠

٠٠٠ وقد أداها وأوفى غاية الوفاء ٠

(١) (الخبر) العدد الصادر فى ١٩٤٥/٢/١ ٠

(٢) العدد ٢٣٠ من مجلة الرسالة ٠ السنة الخامسة ٠ من ١٩٢٥ بتاريخ ٢٩/١١/٣٧

(٣) كتاب (توفيق الحكيم) للدكتور اسماعيل أدهم والدكتور ابراهيم ناجى ص ٢١٦

صور

وقبل أن نودع (ناجى) فى شعره ، بعد أن ودعناه فى الحياة ،
يحسن بنا أن نتطلع الى هذه الصور القليلة من شعره ٠٠ وقد رأيت أن
أخصها بركن خاص حتى لا تخطئها العين العابرة فى زحام المعرض الحافل .
واليك الصور باسمائها :

حبيبان :

هل رأى الحب سكارى مثلنا	كم بنينا من خيال حولنا
ومشيئنا فى طريق مقمر	تشب الفرحة فيه قبلنا
وتطلعنا الى أنجمه	فتهاوين وأصبحن لنا
وضحكنا ضحك طفلين معا	وعدونا فسبقنا طلبنا (١)

صورة فيها نبض وفيها مرح ، وفيها خفة تكاد تطير ٠٠

فداء وولاء :

أبحرم حتى وهم حبك من ردى	بمهجته فى ناره دون أحجام
وأنفق فيه قلبه وشبابه	فلم يبق الا الجرح والشفق الدامى
ومن عجب أحنو على السهم غائرا	ويسألنى قلبى متى يرجع الرامى (٢)

لقاء :

أيها النور سلاما وخشوعا أيها المعبد صمتا وركوعا

(١) ديوان وراء الغمام قصيدة الوداع ص ٥٥ .

(٢) ديوان وراء الغمام ، قصيدة مناجاة الهاجر ص ٨٨ - ٨٩ .

ملكيت قلبي ولبي رهبة رب قول كنت قد أعـددته
عصفت بالقلب واللب جميعا لك اذ ألقاك يأبى أن يطيعا
وحبيبي من عتاب في فمي قد عصاني فتفجرت دموعا (١)

مناجاة :

قربي عينك مني قربي ظلليني واغمريني بصفاها
وأريني هداة البحر اذا انبسط البحر جلالا وتناهي
وأريني لجة السحر التي ضل في أعماقها الفكر وتاها
المسح اللؤلؤ في اغوارها وأرى الطيبة تطفو في سناها
وأراها تخبأ الخلد لمن باع دنياه وبالروح اشتراها (٢)

ثناء :

وأناديك في الثداني وما أظلمع الا أن يستجاب النداء
باسمك العذب أنه أجمل الأسماء مهما تعددت أسماء
لفظة لا تبين تنطلق الأقدار عن قوسها ويرمى القضاء
وهي بين الشفاء ناي وتخريد وطير وروضة غناء
وهي في الطرس قصة تذكر الأحباب فيها وتحشد الأنباء (٣)

تدليل :

ماذا صنعت بناظر لا ينثنى متطلعا مثلقنا مسرتادا
وأنا غريب في الزحام كأنني آمال أجفان حرمن رقادا
ولقد ترى عيتي الجموع فماتري دتيا تموج ولا تحس عبادا
فاذا رأيتك كنت أنت الناس والأعمار والآباد والآمادا
وأراك كل الزهر ، كل الروض، أنت لدى كل خميلة تنهادي (٤)

حسرية :

وعفا القيد عنك كفا وساقا فاذا الأرض كلها لك دارا (٥)

(١) ديوان وراء الغمام قصيدة الفد من ١٠٠ .

(٢) المصدر السابق الى س من ١٥٥ .

(٣) ديوان ليالى القاهرة ملحمة السراب من ٩١ - ٩٢ .

(٤) ديوان ليالى القاهرة . آمال كاذبة من ١٠٤ .

(٥) المصدر نفسه السراب في السجن من ١٠١ .

ذكرى :

يا زهرة عذراء تنشر عطرها
لاقيتها والريح تجمع شملها
عانقتها ظمآن أشرب راحها
فاذا الريح نزعنها عن خافقى
وتذيع فى جفن الضحى أحلامها
والسحب تجمع برقها وغمامها
واستقطرت قلبى لتملأ جامها
ضمت على أنفاسه أكمامها (١)

وفاء :

لك فى خيالى روضة فينانة
يحمى مغارسها ويرعى نبتها
فاذا النوى طالت على وشفنى
نسق الخيال زهورها وورودها
غنى على أغصانها شاديها
راع يجنبها البلى ويقيها
جرحى وعاد لمهجتى يدميها
فقطقتها وشممت عطرك فيها (٢)

(١) من شعره المخطوط من قصيدة بعنوان « قصة حب » .

(٢) المصدر السابق .

المراجع والمصادر

- ١ - دكتور ابراهيم ناجى ديوان وراء الغمام
- ٢ - دكتور ابراهيم ناجى ديوان ليالى القاهرة
- ٣ - دكتور ابراهيم ناجى رسالة الحياة
- ٤ - دكتور ابراهيم ناجى كيف تفهم الناس
- ٥ - دكتور ابراهيم ناجى شعر مخطوط
- ٦ - دكتور ابراهيم ناجى توفيق الحكيم
والدكتور اسماعيل ادهم
- ٧ - دكتور طه حسين حديث الأربعاء
- ٨ - الأستاذ مصطفى سويف الأسس النفسية للإبداع الفنى
- ٩ - الأستاذ مصطفى السخري الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث
- ١٠ - الأستاذ ابراهيم المصرى صوت الجيل
- ١١ - صحف ومجلات : الرسالة - أبولو - الفن - الاثنين -
الكواكب - الجمهور المصرى - الخبر

شعب وشاعر

— أبو القاسم الشابي —

الإهداء

الى الروح المضيئة التي تنير لي الطريق
بأخائها وصداقتها وتجاوبها وفهمها
الذكي العميق لرسالة الأدب ، ودور
الأديب .. الى « طاهر زوجي

أهدي هذا الكتاب »

نعمات أحمد فؤاد

مقدمة

الشابى ٠٠ الشابى ٠٠ ردد العالم العربى هذا الاسم كثيرا فى الفترة الأخيرة قبيل ظهور ديوانه « أغاني الحياة » ، فى اهتمام ظاهر وتقدير ملحوظ . ومن قبل العالم العربى احتضنت مصر الشابى وادعت شعره فى مجلتها (أبولو) (١) ٠٠ ثم صمت البلبل وبعد عهد الاسماع به حتى كادت تنساه وإذا بالشاعر الذى تألم طويلا من الجحود تقف الأقلام على دراسته فجأة وتجول العين الدارسة والقارئة معا فى نواحي شعره جولات تستأنى وتسرع وتنصف ، أو يميل بها الميزان أحيانا ولكن الحركة بمظاهرها المختلفة ، الثقافة كانت واجبة منذ بعيد وحياء لا شك فيه ٠٠ غير أنك لو جمعت ما كتبه الكاتبون عن الشابى على اختلاف بينهم فى الرأى والهوى وحاولت أن تجمع منه دراسة منسقة متكاملة تنهض مرجعا عنه أو حتى ترسم صورة متماثلة له ، لما ظفرت بطلبك على الجهد والصبر وصدق الرغبة فى التوفيق ٠٠

ان الكرام الكاتبين الذين أقبلوا على الشابى بالدرس أو التعليق واجهتهم صعوبة ليست بالقليلة أو الصغيرة الشأن فقد عرضوا لشاعر أشعاره متفرقة هنا وهناك ، وآثاره فيها المطمور والبدد . وما كان لشاعر أو صاحب أثر فنى أن يدرس دراسة كاملة أو متكاملة على الأقل ، ما لم تجتمع الخيوط كلها فى يد الدارس تجمعا يوائى معه العرض ؛ وتتوافر

(١) يقول أبو شادى من دراسة له عن الشابى (ان لأبى القاسم الشابى روائع كثيرة ظفرت « جمعية أبولو » ومجلتها التى عنيت قبل سواها بإبراز فنه ، ظفرت بالقسط الأوفر منها) .

كتاب (رائد الشعر الحديث) ص ٧١ محمد عبد المنعم خفاجة .

معه أسباب المقارنة ؛ و يتهياً به الترسل والانتقال ؛ ويتبلور فى ظله الرأى ويتضح المنهج ٠٠ وأحسنست أن ظهور ديوان الشاعر « أغاني الحياة » يعين على هذا أو أكثره ومن ثم لم تكن الدراسات التى سبقت عن الشايبى - على جهد أصحابها - قد بلغت بالموضوع حد الاشباع الذى يصرف الدارس الجديد الى غرض آخر ، فما زال فى الحديث عن شاعر الحضراء بقية عريضة يتشاجن معها الحديث ويطرف ، وهو ما أحاول مخلصاً وخالصة أن أسهم به فى دراسة شعرنا الحديث فى ولاء وطموح يشعله اعتزاز الحى بنفسه ، ويضرمه احساس عارم بوعى القومية العربية الجديدة التى تتلمس كل سبيل الى التطور والتجدد والبحث وتعلق بكل أمل فى النجاة .



والدراسة التى بين يديك تعتمد فى الاستقراء والبحث على ديوان « أغاني الحياة » باعتباره الأثر الوحيد الوافر له ، وباعتباره أهم انتاجه وباعتباره - وهو الأهم عندي - السجل الجامع لصيحات الوطنية فى شعره ٠٠ لست أدري لم أحس أنى موكلة بمثل هذه الحفقات أتتبعها بل أتلسمها تلمساً واستافها حيثما وجدت عند كاتب أو شاعر فى مصر أو أى بلد عربى فنحن أحوج الى هذا اللون وقوداً وغذاء ٠٠ يضمن للصحة الحاضرة النماء ويهبها من قوة الدفع ما يلهب خطواتها فتتواصل على الطريق الوعر الطويل ٠٠

لو لم يتوافر لدينا من شعر الشايبى الا « وطنياته » المتسعة لنهضت وحدها حافزاً على دراسته وإشاعة دعوته فى النفوس ٠٠

بودى لو تواجدت بين يدي آثار الشايبى الأدبية جميعاً لاكتب عنه فى احاطة وشمول ، ولكن ضياع ما ضاع ليس حكماً على الباقي المائل بين أيدينا بالاهمال ، ولو حسنت النية فلتكن هذه الدراسة باعثاً موحياً بدراسات أخرى أوفى ، تعين عليها الأيام بكشف ما انطمس من آثاره ، فان قراء العربية كما يقول الدكتور أبو شادى لن يملوا من قراءة ما كتب وما سيكتب عنه ولو تعددت التراجم والدراسات (١) .

انى أومن أن دراسة البيئة ضرورة لازمة لدراسة الشاعر وموجهات شعره ولكنى أرى معالم بيئة الشايبى : فى شعره ، وفى كتابات مواطنيه أصحاب البيئة نفسها ، فقد وصفها أو جانباً منها هو الجانب الأدبى ،

(١) كتاب الشايبى للأستاذ أبى القاسم محمد كرو ص ٢٥ .

الأستاذ كرو في كتابه (كفاح الشابي) (١) ولكنى أطمح الى شمول
يتناول جوانب الوطن التونسي جميعا . . . الجوانب المادية والاجتماعية
والعقلية والنفسية والتاريخية . . . ومن أولى بهذا من الأدباء التونسيين
الذين عرکوا هذا كله ، وعاشوا فيه وورثوه ، وتقاعل به وجدانهم
وواقعهم بما فى نفوسهم من رواسب تاريخهم وقومهم .
حسبنا نحن فى مصر الدراسة الموضوعية التى يسرها لنا ديوان
الشابي « أغانى الحياة » . .

نعمات أحمد فؤاد

يناير سنة ١٩٥٨

القسم الأول

لمحة من حياة

حياته من شعره

فى ضاحية من ضواحي الجنوب التونسي ، وشتها الطبيعة بألوانها وظلماتها كمروس بالظلال من أشجار النخيل والثمار من بساتين البرتقال ورققت بين يديها الماء عذبا فياضا ، وحصنتها من جمال ، بالصحراء تكبد الطامعين التيه واللغوب ..

فى الشابية احدى ضواحي توزر على مرأى من شط الجريد الهادى الحافل بالأسرار ولد شاعر ، هادى على الدنيا فنان عرفه أهلها ثم تاريخها باسم « أبو القاسم الشبى » .

واذا كان بعض الاطفال يولدون وفى فمهم أو يدهم ملعقة من ذهب كما يصفون أبناء المال ، فان وليد الشابية كان بين ضلوعه لا فى يده قلب من حرير ، أو ورق الورد ، فيه الشفافية والنعومة والنفاسة من الحرير ، وفيه الرفيف والرقّة والعطر والحساسية وقصر العمر أيضا من الورد . وهكذا يهب الله قوما الذهب ، ويهب آخرين معانى الورد أى الفن .. ويسعد أولئك أو هكذا يظنهم الناس ويشقى هؤلاء بالمعاني العطرة ، أو هكذا يبدون ، ولكن من وهب الفن عندى هو السعيد ..

ولكن القلب الشاعر الذى فوفته الطبيعة بمعاني الورد على مثال رفيع رائع ، كانت به من الورد أيضا ابر الشوك من الداء والاعياء والأعداء والمظالم ، تلك الآفات التى تتسلل منفردة أو مجتمعة الى الموهوب ، وخاصة اذا بلغ القمة ، كما يزحف العطب الى التفاحة الرائعة فى اكتمال نضجها وتوهجها ...

وتزعرع وليد الشابية واستوى شابا ، ولكن لا كالشباب .. فهو

متوفر الحس والعصاب .. يطيل الحديث بينه وبين نفسه .. وأنه لطويل
النظرة بعيد التأمل .. هدوؤه هدوء البحر الذي يبدو أحيانا ساكن
الصفحة ، ولكن وراء السكون تيارات متباينة ، وعوالم لا يعرف سرها الا
من يطيل صحبته ، ويعيش في دنياه .

وفي هدأة السكون عادة تطيف أرواح المرض . ثم تتداعى خيالات
العذاب فتلح على المسكين القابع في ركن قصي يرقب الحياة والأحياء .
كلمات الجحود ومظاهر الغبن ، ومناغم الصحة تلك المناغم التي يجسدها
المرض .. ويغوص الفكر ويطفو فيلج عوالم شتى ويلم بمعان شتى ،
فيتمضى صاحبه الرأي تلو الرأي في الحياة والناس .. في الطبيعة وما
وراء الطبيعة .. في الشر والخير .. في الفن والعلم .. وفي التيه
الفنى يصنع الشارد الحائر ، الحكمة ، ويأتى بما يشبه الفلسفة في نظرتها
المتجردة وشطحاتها أيضا .. وستجد معنى مصداق هذا كله في حياة
الشابى من شعره ..

ومن تأملاته هذه الخطرات :

ينقضى العيش بين شوك ويأس	والمنى بين لوعة وتاسى
هذه سنة الحياة ، ونفسى	لا تود الرجى فى كأس رجبى
ملء الدهر بالخداع ، فكى قد	ضلل الناس من امام وقس
كلما أسأل الحياة عن الحق	تكف الحياة عن كل همس
لم أجد فى الحياة لحنا بديعا	يستبينى سوى سكينه نفسى (١)

ولكنه ابن الحياة ، وان خيل اليه فى أزمت اليأس انه قلاها :

غننى انشودة الفجر الضحوك
أيها الصداح

فلقد جرعتى صوت الظلام
لما علمنى كره الحياة
ان قلبى مل أصداه النواح

غننى ، يا صاح (٢)

لقد ضج بأحزانه يود لو يزيحها عن صدره .. ولكنه بعد أن هفا
الى انشودة الفجر الضحوك وتلمس الغناء عند الصداح ، عاد فزهد فى
الحان السرور وأغاني التور ..

(١) ديوان « أغاني الحياة » قصيدة المدوح ص ٤٦ .

(٢) الديوان - قصيدة « أغنية الأحزان » ص ٤٧ - ٤٨ .

لا تغنينى أغاريد الصباح
بلبل الأفراج
ففؤادى وهو مغبور الجراج
بتباريح الحياة الباكية
ليس تستهويه الحان السرور
وأغاني النور (١)

ما وراء ٩

ان من أصغى الى ضنوت المتون
وصدى الأحداث
لنبتل تستهويه الحسان الطيور
بين أزهار الربيع الساحرة
وابتسامات الحياة السافرة
عن جلال الله (٢)

ولكنه فى ديوانه يشعر أن هذه الآلام كلها خاصة به هو ، أما أنت
فإنه يدعوك دعوة جادة الى الحياة . . الى الكفاح . . الى الاقتحام . .
والانتصار . .

سر مع الدهر ، لا تصدك الأهوال ، أو تفرعنك الأحداث
سر مع الدهر ، كيفما شاءت الدنيا ، ولا يخدعك النفاق
فالذى يهرب الحياة شقى ، سخرت من مصيره الأحداث (٣)
وفى سائحة أخرى يرسم للحياة صورة دأكنة . . فهو يراها :

فى ظلام الكهوف أشباح شؤم
وحلال القصور أنات حزن
والفضاء الأصم يعتسف النـ
وبهذا الفضاء أطراف نحس
وبتلك الأكواخ أنضاء بؤس
أنس ويقضى ما بين سيف وقوس (٤)

أى صورة هذه ٩

صورة للشقاء دامعة الطرف
ولكن هذا رأيه على كل حال

(١) الديوان - قصيدة « أغنية الأحرار » ص ٤٧ - ٤٩

(٢) ديوان « أغاني الحياة » قصيدة « أغنية الأحرار » ص ٤٧ - ٤٩ .

(٣) الديوان - قصيدة « سر مع القمر » ص ٥٢ .

(٤) الديوان - قصيدة « شجون » ص ١٠٨ .

لم نجد في الوجع الا شقاء سمرديا ، ولذة مضجعه
وأمانى يفرق الدمع أحلاها ، ويفنى يم الزمان صداها
وأناشيد يأكل اللهب الدامي مسراتها ويبقى أساها
وورودا تموت في قبضة الأشواك ، ما هذه الحياة المله ؟ (١)
انسان ممرور ، فلا تعجب ان صاح بك :

فقل لي : « ما جدوى الحياة وكربها »
وتلك التي تدوى وتلك التي تنمو ؟
« وفوج تغذية الحياة لبانها ،
« وفوج يري تحت التراب له ردم ؟ »
« وعقل ، من الأضواء في رأس نابغ
وعقل من الظلماء ، يحمل له قدم ؟ »
« وأفئدة حسرى تذوب كآبة
وأفئدة ، سكرى ، يرف لها النجم ؟ »
« لتعسى الورى ، شاء الاله وجودهم
فكان لهم جهل ، وكان لهم فهم ؟ » (٢)

ما دام الأمر كذلك فهو ينصح بالعزلة .. العزلة دائها هي الدواء
عنده :

وان أردت قضاء العيش في دعة
فأترك الى الناس دنياهم وضجتهم
واجعل حياتك دوحا مزهرا نضرا
دائما العدم في خاطره :

واجعل لياليك أحلاما مفردة
ان الحياة وما تدوى به حلم (٣)
وقد هتف بالعزلة أكثر من مرة وتلهف عليها في قصائده :

وأود أن أحيا بفكرة شاعر
الا اذا قطعت أسبابي مع الدنيا
في الغاب ، في الجبل البعيد عن الورى
وأعيش عيشة زاهد متنسك
فأرى الوجود يضيق عن أحلامي
وغشيت لوخدتى وظلامي
حيث الطبيعة ، والجمال السامي
ما ان تبتسه الحياة بدام

(١) الديوان - قصيدة «الأشواق الثالثة» - ص ١٩٣

(٢) الديوان ص ١٩٦

(٣) الديوان - قصيدة «السعادة» - ص ١٥١

هجر الجماعة للجبال ، تورعها عنها ، وعن بطش الحياة الدامي (١)
ولكنه يحمل نفسه حملا على العيش في دنيا الناس .. أسباب قوية
تربطه بل تقيدته :

لكنني لا أستطيع ، فإن لي
وصغار اخوان . يرون سلامهم
فقدوا الأب الحاني ، فكنت لضعفهم
ويقيهم وهج الحياة ، ولفجتها
فأنا المكبل في سلاسل حية .
أما ، يصد حنانها أوهامي
في الكائنات معلقا بسلامي
كهفا يصد غوائل الأيام
وينذود عنهم شرة الآلام
ضحيت من رأفي بها أحلامي (٢)

ويخرج من عزلته فيحن إلى الحياة التي رضى عليها ويشتاقتها في
الربيع والفجر والزهر والشمس ، ويشتهيها في المرأة .. المرأة التي
يتخيلها بلسمًا لجراحه ، ومهريا من آلامه عندها الدفء والقبل .. فمن
ذا يلوه وقد ارتدت عنه أحزانه ، أن هتف والشجن في تهويم :

ان في المرأة الجميلة سحرا عبقريا . يذكي الأسى ، وينيمه (٣)
روح مضطربة أو هكذا يبدو للناس (روح تراها تارة سناخرة هازئة
بالحياة وما فيها وأخرى عابثة بها متعلقة بأهدابها . والحقيقة هي روح
مضطربة ما لها من قرار) (٤) .

وقلب هو عوالم شتى ...

يا قلب ! كم فيك من دنيا محجبة
يا قلب ! كم فيك من كون ، قد اتقدت
يا قلب ! كم فيك من أفق تنمقه
كانها ، حين يبدو فجرها « ارم » (٤)
فيه الشموس وعاشت فوقه الأمم
كواكب تتجلى ، ثم تنعدم

مرارة من الموت يخترم الشباب :

يا قلب ! كم فيك من قبر ، قد انطقت
فيه الحياة ، وضجت تحته الرمال

(١) الديوان - قصيدة « قيود الأحلام » ص ١١٥ .

(٢) الديوان - قصيدة « قيود الأحلام » ص ١١٥ .

(٣) الديوان - قصيدة « الساحرة » ص ١٤٥ .

(٤) مجلة الامام - العدد الخامس - السنة ٣٢ في ١٩٣٤/١٢/٣١ مقال للاستاذ

محمد الصادق دسيس الشريف ص ٣٦ :

(٥) ارم : مدينة أسطورية أحاطتها الخرافات بجو خيالي مسحور ، فزعت أنفسا
بنيت على ضفة من الجنة : أرضها من مسك ، وقصورها من خالص الذهب واللؤلؤ
والمرجان ، وسماؤها من سحر مرصع بالأحلام .. وأنها ما زالت إلى يومنا هذا في صحراء
المرب ، ولكنها محجوبة لا يراها أحد . :

اعزاز للحياة يرى فى عمودها نورا ينطفىء ، وحقد على الموت يتمثل
فى ضجة الرمم .

يا قلب ! كم فيك من غاب ومن جبل تدوى به الريح أو تسمو به القمم

رؤى :

يا قلب ! كم فيك من كهف قد انبجست منه الجداول تجرى مالها جسم

حلم بالحرية :

تمشى .. فتحمل غصنا مزهرا نضرا أو وردة تشوه حسنها قدم (١)

زراية بقبح الواقع :

أو نحله جرهما التيسار مندفعاً الى البحار ، تغنى فوقهما اللذيم
أو طائرا ساحرا فيتا قد انفجرت فى مقلتيه جراح جمة ودم (٢)

تنديد بقسوة الحياة :

يا قلب . انك كون مدهش عجب ان يسأل الناس عن آفاهه يجموا
انسان واع حساس ، تلمس وعيه وحساسيته فى قوله :

كرهت القصور ، وقطانها وما حولها من صراع عنيف
وكيد الضعيف لسعى القوى وعصف القوى بجهد الضعيف (٣)

وقد كانت رهافة الحس هذه بيت الداء عنده ، فهو منها متوفز
الأعصاب دائما ، يضح كيانه بالحياة والطموح وشعور الاقتحام والتوثب ،
ثم يرى حوله قوما عزيز عليه ما هم فيه من خمول وتأخر وبلادة ..

لا قلب يقتحم الحياة ، ولا حجبى يسمو سمو الطائر الجواب
بل فى التراب الميت فى حزن الثرى تنمو مشاعرهم مع الأعشاب
الشاعر الموهوب يهرق فنه هدرًا على الأقدام والأعتاب
ويعيش فى كون عقيم ميت قد شيدته غباوة الأحقصاب
والعالم التحرير ينفق عصره فى فهم ألفاظ ودرس كتاب
والشعب بينهما قطيع ، ضائع دنياه دنيا مأكلا وشراب

(١) الديوان - قصيدة « الأبد الصغير » ص ١٥٦ .

(٢) الديوان - قصيدة « الأبد الصغير » ص ١٥٦ .

(٣) الديوان - قصيدة « بقايا الخريف » ص ٦٢ .

وما أعظم الله من هذا الوضع ، وهو الوطني المتوقد غير شعبي ،
مع فرط حساسية ورحمة :

الويل للحساس في دنياهم ماذا يلاقى من أسى وعذاب (١) .

وقد أزهقه حسه . . . واعترف بالارهاق في حسرة لا تخفى :

واليوم أحيا مرهق الأعصاب ، مشبوب الشعور
متأجج الاحساس ، أحفل بالعظيم ، وبالحقير
تمشى على قلبي الحياة ، ويزحف الكون السكبير
هذا مصيري ، يا بني الدنيا ، فما أشقى المصير (٢)

لقد عاش كما قال : مرهق الأعصاب ، مشبوب الشعور ، متأجج
الاحساس ، يحفل بالعظيم وبالحقير . فلا عجب أن ثقل عبء الحياة عليه
وأحسها (تمشى على قلبه) (٣) .

ويرى أحد النقاد أن شعور الشابي بالامتياز قد أوهمه أن لا مكان
للصواب الا في جانبه ، وأنه وحده البصير بمعاني الحياة فانهى الى كفر
يحاضر الانسانية وماضيها ومستقبلها وانكار قيمة الحياة (٤) .

توسع في الأحكام ليس من طبيعة النقد العلمي . وفيه كان هتاف
الشاعر اذن بالطموح والبناء اذا كان كافرا يحاضر الانسانية ومستقبلها ؟
كيف والكاتب نفسه يقرر أن رومانسية الشابي (لم تكن مغلقة ، في
نطاق ذاته . وفي عالمه الداخلي ، ولكنها كانت رومانسية مفتوحة على
مشاكل قومه ، وقضايا الوجود الانساني ، تلك القضايا التي كان يعيشها
باحساس الفنان الذي يرى نفسه مسئولاً عن الحياة الانسانية) (٥) .

أو ليس بين الكفر والمسئولية من التناقض ما بين السلبية
والايجابية ؟ وعلى أي الرأيين نقبل قول الناقد بعد قليل (نقطة الاحساس

(١) الديوان - قصيدة « الدنيا الميتة » ص ١٨٤ - ١٨٥ وقد صرح بدايه من دقة
حسه في غير هذا الموضوع حين اتجه الى الله بشعره قائلا :

والبت عذبتني بدقية حسي . . . الديوان ص ٩٩ قصيدة « الى الله »

(٢) الديوان - قصيدة « الجنة الضائعة » ص ١٥٠ .

(٣) وهو يؤثر هذا التعبير حتى ليكرهه ص ١٥٧ كقوله : قصيدة « الأبد الصغير

يا قلب . كم من مسرات وأخيلة ولذة ، يتحامي ظلها الألم

غلت لفجرك صوتا حالما ، فرحسا تشوان ثم توارت ، وانقضى النغم

وكم مشيت فوقك الدنيا بأجمعها . حتى توارت ، وشار الموت والعند

(٤) كتاب « الشابي وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسي ص ١٠٤ .

(٥) كتاب « الشابي وجبران » للأستاذ التليسي ص ١٠٦ - ١٠٧ .

هى التى خلقت لنا منه ذلك الشاعر الطموح ، الذى يعيش لأمال وأحلام
المستقبل ، ويرسل صرخات مدوية داعية الى السير فى موكب الحياة
المتطورة (١) ؟

وانه لمن فرط حسه ، توجسه من الغد ، ذلك التوجس الذى شاع
فى مثل قوله :

فاذا سرنى من الفجر نور
ساونى ما يسر قلب الظلام (٢)

فى حياته أطياف سود :

كم بقلب الظلام من أنة
ونشيج مضرم من فتنة
ونواح يفيض من قلب أم
وأنين من معدم ، ذى سقام
تهفو بغصات صبية أيتام
أبهظتها قوارع الأيام
فجعت فى وحيدها البسام
عضه الدهر بالخطوب الجسام

وفى حياته غبن :

ما أخال النجوم الا دموعا ، ذرفتها محاجر الأعوام (٣)
فلقد ضرم الشجون بنوها ، فاذا بالشجون سيل طام
واذا بالحياة فى ملعب الدهر تدوس الرؤوس بالأقدام

رؤوس .. وأقدام ... وأوضاع معكوسة أورتته تلك النظرة الكابية
التي ترى لآلىء النجوم دموعا .. دائما عين المغبون متشائمة ...

وفى شعره أشباح كثيرة (٤) .. أشباح وغيلان وعرائس .. غاب
وجن وعوالم مسحورة وتهاويل وأطياف .. انها أعصاب مشدودة ..
ويله من نفسه .. ويحه من رؤاه ...

« فى الليل ناديت الكواكب ساخطا
« الحق يملكه جبابرة الدجى
« والنهر ، للغول المقدسة التى
« وعرائس الغاب الجميل ، هزيلة
« ما هذه الدنيا الكريهة ؟ ويلها
« الكون مصنع ، يا كواكب ، خاشع
« الفجر يولد باسمها ، متهللا

متأجج الآلام والآراب ،
والروض يسكنه بنو الآراب »
لا ترتوى .. والغاب للحطاب »
ظمأى لكل جنى ، وكل شراب ،
حقت عليها لعنة الأحساب ،
طال انتظارى ، فانطقى بجواب ،
فى الكون ، بين دجنة وضباب (٥)

- (١) كتاب « الشايبى وجبران » للأستاذ التليسى ص ١٠٨
(٢) (٣ ، ٢) الديوان - قصيدة « يا رفيقى » ص ٧٤
(٤) اقرأ قصيدة « الأبد الصغير » الديوان ص ١٥٧
(٥) اقرأ قصيدة « صوت من السماء » الديوان ص ١٥٨

هل هو عزاء أم حكمة مرسله ؟ كلاهما خير ان هدمد ثورته وقرت عليه اشجانه .

وله فى الاستعلاء ضروب شتى ، فعندما حشد له الزمان فى حربه معه اعداء يكيلون ، نفس عن نفسه ما يكابد من ضراوتهم فى ذم الناس تارة ، وفى غناء بروميشيوس تارة أخرى :

سأعيش رغم الداء والأعداء	كالنسر فوق القمة السماء
أرنبو الى الشمس المضيئة . . هازئاً	بالسحب ، والأمطار ، والأنواء
لا أرمق الظل الكثيب . . ولا أرى	ما فى قرار الهوة السوداء
وأسير فى دنيا المشاعر ، جالماً	غرداً - وتلك سعادة الشعراء -
أصغى لموسيقى الحياة ، ووحيتها	وأذيب روح الكون فى انشائي
وأصيح للصوت الالهى ، الذى	يحى بقلبي ميت الأصداء (١)

وقد كان هذا القصيد أو النشيد بداية تطور جديد لف روحه كلها . يقول الشابى من رسالة الى صديق :

« وقد أحسست ببداية هذا التطور لما اصطفت فى عين دراهم ، ولعل جمال الطبيعة هناك قد كان له الأثر الأكبر فى تلوين نفسى بهذا اللون الجديد ، كما أن مصيف هذا العام وما رأيت فيه من صور الطبيعة الرائعة ، قد أكمل هذا التطور ونما . . أما الآن فاننى أشعر بانقلاب عميق قوى فى نفسى كل القوة وستدرك هذا التطور فى نفسى حينما تطلع على قصائدى الجديدة . وقد عبرت عن هذا الانقلاب الروحى بقصيدة « الصباح الجديد » الذى أرسلته الى أبولو ، وقصيدة « نشيد الجبار » هو صورة صادقة لنفسى فى طورها الحاضر الجديد . . » (٢)

حتى القدر خاله من أعدائه والمتربصين به :

ياليل . ما تصنع النفس التى سكنت	هذا الوجود ، ومن أعدائها القدر؟
قد كبل القدر الضارى فرائسه	فما استطاعوا له دفعا ، ولا حزروا
وخاط أعينهم ، كى لا تشاهده	عين ، فتعلم ما يأتى وما يذر
وحاطهم بفتون من حباله	فما لهم أبداً من بطشه وذر
لا الموت ينقذهم من هول صنولته	ولا الحياة تساوى الناس والحجر (٣)

(١) اقرأ قصيدة « نشيد الجبار أو هكذا غنى بروميشيوس » ص ١٧٩ .

(٢) مجلة الفكر - العدد ١ السنة ٢ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ص ١٣ .

(٣) الديوان قصيدة « شكوى ضائعة » ص ١٨٦ .

المس سخرية وأسى . . .

ولا تستطيع أن تلومه على بغض القدر خاصة بعد أن عرفت
استبشاعه للموت ومقته له ، ولعل كراهيته للقدر تسربت إليه من هذه
الناحية :

وانما الموت ضرب من حباله

لا يفلت الخلق ما عاشوا . فما النظر ؟ (١)

فما النظر ؟ يلتمس النجاة من الموت . . ليتها ممكنة يا صديقنا
الشاعر . . ولكن هل تستحق الحياة عندئذ تلك اللفظة الحارة التي تنفذ
عليها . . تلك اللفظة بما فيها من شوق ونار تحرق وتضيء . . تحفز
وتلهي . . تشقى وتسعد . . نار تغري بالسعى والكفاح والانتصار . .
ولفظة تغري بالجمع السريع أو الزهد العارف ؟ . . بالجرى وراء اللذة . .
بإقتناص المتعة . . باهتبال الفرصة أو الصد عنها جميعا ما دامت زائلة
بزوال الحياة . . ما النظر ؟

حار المساكين ، وأرتاعوا ، وأعجزهم أن يحذروا ، وهل يجديهم الحذر
وهم يعيشون في دنيا مشيدة من الخطوب ، وكون كله خطر ؟ (٢)

هنا مفتاح من مفاتيح نفسه عثرت عليه في كتاب (مع الشابي)
للاستاذ الحليوي ، يطلعنا على سر الخوف والقدر والموت الذي كان يطارده
الشاعر حتى في منازحه . . حتى في نجوى الحبيب . . لم يخل بينه وبين
هواه . . .

« انى لا زلت كالماضى أشعر في صميم نفسي بأن الأقدار تحاربني
وانما الفرق بينى وبين نفسي الأولى ، أننى كنت أتقبل الآلام
الحياة وأتخسس أشواكها بنفس ضارعة وقلب دامج باك ، أما
الآن فإننى ألقاها ببسمة السباخر ونظرة الحالم ، المنتشى بجمال
الوجود » (٣)

لم يبق هناك ما يدعو الى تكهن الأسباب وتلمس وجوه التفسير . .
إن الشاعر يكشف عن نفسه في خطاب الى صديق ، خطاب برىء
- كخطابات الأصدقاء - من سمة التكلف والتعليل المرسوم . . .

انه الشعور بالاضطهاد . . الاضطهاد ومن القدر نفسه . . انه

(١) الديوان قصيدة « شكوى ضائعة » ص ١٨٦

(٢) لديوان قصيدة « شكوى ضائعة » ص ١٨٦

(٣) كتاب « مع الشابي » للأستاذ الحليوي اقرا ص ٩٤ - ٩٥

تفسير الشاعر على كل حال لمرضه الوبيل ... ويتمه الباكر ... وجهه
الفقيد ... لا عجب ولا ملامة ، بل العجب كله ألا يفعل والعمر ينحسر
كلما طلعت الشمس ، فلم يبلغ ضحى ولم يعرف الآصال ، وتجاوز سحر
القدر ، الفرع الى الأصل ، فغاله والعود غص لا يقوى على هوج الريح
أو تهور الأحداث ... وظل القدر سادرا فساق الحب الى الشاعر حتى اذا
تفتح بين يديه كتب عليه الذبول والعدم ...

كأذا لا يشعر الشبابى بالاضطهاد أو يتصوره ... لا عجب أن جار
بهذه الشكوى يرفعها الى مولاه :

يا اله الوجود ! هذى جراح فى قوادى ، تشكو اليك الدواهي
أنت أنشأتني غريباً بنفسى بين قومي ، فى نشوتي وانتباهي
أنت عدتني بدقة حتى وتعقبتني بكل الدواهي
بالأسى ، بالسقام ، بالهم بالوحشة ، باليأس ، بالشقا المتناهي
بالمنايا تغتال أشهى أمانى وتذوى محاجرى ، وشفاهى
فاذا من أحب حفنة ترب تافه ، من ترائب وجباه
وإذا فتنة الحياة وسحر الكون ضرب من الغمام الزاهي
يتلاشى فوق الحضم ، ويبقى اليم كالعهد ، مزبد الأمواه (١)
ويضرب الشاعر فى الأرض مبهور الأنفاس ينشد من يهدده وهو
يتمزق :

غنى ، يا أخى ، فالكون تيهاء بها قد تمزقت أقدامى
غنى ، على أنيم همومى اننى قد مللت من تهيمامى
يا رفيقى ! لقد ضللت طريقى وتخطت محجتي أقدامى
خفى بكفى فأننى تائه ، أعمى كثير الضلال والأوهام (٢)

تائه ... أعمى ... ضال ... لقد برح به العذاب ... ان قدميه تجرانه
من حيرة الى المقابر ... مسكين ... ظن عند الصمت الطويل جواباً ...

وهناك فى عالم الصمت توزعت نفسه الهواتف والأشباح فغاب عنا
وعن ديوانه من ١٣٤ - ١٤٠ ولكنه كان يتعزى أحياناً فيستريح الى العزاء
... تأمل ...

تأمل ... فان نظام الحياة نظام ، دقيق ، بديع ، فريد
فما حجب العيش الا الغشاء ولا زانه غير خوف اللحود

(١) الديوان - قصيدة « الى الله » من ٩٩

(٢) الديوان - قصيدة « يا رفيقى » من ٧٤ - ٧٥

ولولا شقاء الحياة الأليم لما أدرك الناس معنى السعود
ومن لم يرعه قطوب الدياجير لم يغتبط بالصباح الجديد (١)

وتلك سائحة أخرى من سائحاته في تيه الغائبين

إذا لم يكن من لقاء المتأبيا مناخى لمن حل هذا الوجود
فأى غناء لهذه الحياة وهذا الصراع ، العنيف ، الشديد
وذاك الجمال الذى لا يمل وتلك الأغاني ، وذاك النشيد
وهذا الظلام ، وذاك الضياء وتلك النجوم ، وهذا الصعيد ؟؟
لماذا نمر بوادى الزمان سراعاً ، ولكننا لا نعود ؟ (٢)

صراع ... لم يصل به الى قرار :

فاذا قفل راجعاً الى دنيا الناس وواقع قومه حاجته أشجان وأحداث
ووقائع ، فهو يهور ويثور على الوضع القائم الذى يعيش فيه مواطنوه .
ومن مسارب الثورة فى أدبه قصائد ... ومن صرخاته فى الزاكدين :

خلقت طليقاً كطيف النسيم ، وحرأ كنور الضحى فى سماه
تفرد كالطير أين اندفعت ، وتشددو بما شاء وحى الاله
وتمزج بين ورود الصباح ، وتنعيم بالنور ، أنى تراه
وتمشى - كما شئت - بين المروج ، وتقطف ورد الربا فى زباه
كذا صاغك الله ، يا ابن الوجود ، وألقك فى الكون هذى الحياة
فما لك ترضى بذل القيود ، وتحنى لمن كبلوك الجباه ؟
وتسكت فى النفس صوت الحياة القوى اذا ما تغنى صدام ؟
وتطبق أجفانك النيرات عن الفجر ، والفجر عذب ضياء ؟
وتقنع بالعيش بين الكهوف ، فأين النشيد ؟ وأين الاياه ؟
أتخشى نشيد السماء الجميل ، أترهب نور الفضا فى ضجاء ؟
ألا أنهض ، وسر فى سبيل الحياة ، فمن نام لم تنتظره الحياة
ولا تخش مما وراء التلاع ... فما ثم الا الضحى فى ضباه
والا ربيع الوجود الغرير ، يطرد بالورد ضافى ردها
والا أريج الزهور الصباح ، ورقص الأشعة بين الميساه
والا حمام المروج الأنيق ، يغرد ، منطلقاً فى غناه ...
الى النور ! فالنور عذب جميل ، الى النور ! فالنور ظل الاله (٣)

لقد تخففت نفسه من أثقالها فى هذه القصيدة فهو ينطلق خفيفاً متوثباً

(١) الديوان - قصيدة « حديث المقبرة » ص ١٣٨

(٢) الديوان - قصيدة « المقبرة » ص ١٣٨

(٣) الديوان - قصيدة « يا ابن أمى » ص ٨٨

يشرب النور ، ويعمل منه ويعنى له ، ويدعو الى الحرية ويعين عليها بالاثارة •
الى النور • الى النور • انه يهتف بك فى فرحته فبارك نشيده ولب
نداء • • حقا ان النور يبهره • • لقد سال على الدنيا دفقة واحدة فغمر
الضياء السماء والمروج والتلاع • • ونفس الشاعر • • نفس الشاعر التى
شفت حتى أصبحت ترى رقص الأشعة بين لياه • •
يارب • • يانور النور • • ان الشاعر يؤمنا فى محرابك فتقبل منه
ومنا الصلاة •

•••••

ولم تقف ثورته عند حد الوطنية السياسية ، بل اندلعت تحتاج
كل شيء • •

يقول الأستاذ كرو (وبدأ ثورته بفك قيود الأدب وأغلاله ، وخلص
بنفسه من طرائقه القديمة الممقوتة ، وأساليبه الرثة الميتة • فبحث طرائق
فنية رائعة ، وأساليب حية ممتعة ، قوية فى روحها وموضوعها ، خلاصة
فى فنها وجمالها ، ساحرة فى تعابيرها وصورها) (١) •

ولم يشذ الشابى عن القاعدة • فوجد من مسخ دعوته الموقظة (ولقد
رمى الشابى • • بنكران الماضى ومحاربة أمجاده ، وبالعقوق لآبائه
وأجداده ، وبالثورة على المقاييس الشائعة ، والطرائق الذائعة ، وبالسخرية
من التراث « المقدس » الجليل وتشويه محاسنه ومسخ جماله !!) (٢) •

ولأدع الشابى نفسه يكشف عن حقيقة موقفه • • • كتب الشاعر فى
معرض الرد على الدكتور مختار الوكيل الذى نقد كتابه (الخيال الشعري
عند العرب) (٣) •

(• • •) اننى اذا كنت أدعو الى التجديد الأدبى وأعمل له • فان
ذلك لا يدفعنى الى الهزء والسخرية بأداب الأجداد • • كما قد
حسب • بل اننى لأؤمن كل الايمان بما فيها من جمال فنى
وسحر قوى ، وأعتقد أنها قد آتت فى عصورها الحية لأجدادنا
كل ما نظمحت اليه أشواقهم من غذاء معنوى دسم ، ولكننى
أؤمن الى جانب ذلك أن فى الحياة آفاقا مجهولة ساحرة ، غير
ما فى الأدب العربى من آفاق ، وأن هذا الأدب اذا كان قد
سد خلة آبائنا الروحية ، فانه لعاجز كل العجز عن أن يشبع

(١ ، ٢) كتاب « الشابى » لابی القاسم كرو ص ٥٥ - ٥٦ •

(٣) نشر النقد بمجلة أبولو ص ٨٣٣ سنة ١٩٣٣ •

ما فى أرواحنا من جوع وعطش وطموح . وأنه إذا كان لزاما علينا أن نعجب بهذا الأدب ونفخر به ، كحلقة من سلسلة ذاتيتنا العربية ، وكمنجم ذهبى نرجع اليه كلما أردنا أن نصوغ لأفكارنا حليها الساحر الجميل ، فإن ذلك الاعجاب لا ينبغى أن ينقلب فى نفوسنا الى تقديس فعبادة فجمود ، فمطابق لأبصارنا عن كل ما فى السماء من أشعة ونجوم (١) .

● أن فى الحياة آفاقا مجهولة ساحرة ، غير ما فى الأدب العربى من آفاق ...

● الأدب العربى إذا كان قد سد خلة أبائنا الروحية ، فإنه لعاجز كل العجز عن أن يشبع ما فى أرواحنا من جوع وعطش وطموح

● الأدب العربى حلقة من سلسلة ذاتيتنا العربية .

* الأدب العربى منجم ذهبى نرجع اليه كلما أردنا أن نصوغ لأفكارنا حليها الساحر الجميل .

فهم واع للقيم والمفاهيم الأدبية . وتعبير ذكى لا يتأتى الا من انسان نافذ ، أسفر المعنى فى نفسه سفورا مضيئا مشرقا ، فهو يعرف كل لفظة على مقدار ..

جوع وعطش وطموح .. معان ما أحوجنا الى اشباعها فى الشرق ، وبين الشباب خاصة ، اذا كنا جادين فى احداث انقلاب فكرى واجتماعى ، تصح عليه النفوس المريضة والعزائم البالية ..

الأدب العربى منجم ذهبى للأسلوب .. أدبنا العربى غنى بحسنة وموسيقاه ، وايحاءات اللفظ واشعاعاته فيه . ولكن هناك أيضا فى الحياة آفاقا مجهولة ساحرة غير ما فى الأدب العربى من آفاق ...

حقيقة لا ينكرها الا مكابر ، ثم لا ينفعه الانكار ، أو يجدى الأدب العربى شيئا ، ولكن الحقائق دائما مرة المذاق ، ومن ثم كان الفسارق (كبيرا جدا بين الشبابى وبين شعراء الحضرة المعاصرين له ... ذلك أن أكثرهم لم يألوه ولم يستطع فهم ما يعبر عنه ، أو يرمى اليه) (٢) .

والى هذا الجو يعزو مواطنه الأستاذ أبو القاسم كرو ، فيما يعزو شعور الشبابى بالغرابة ، ذلك الشعور الذى يراه أبو القاسم أول احساس وضع تضطرم به نفس العبقري بين بقية النفوس الحاملة الحانعة ، والذي

(١) كتاب « الشبابى » للأستاذ كرو ص ٥٧ - ٥٨ .

(٢) كتاب « كفاح الشبابى » لأبي القاسم محمد كرو ص ١٠٧ .

يراه مرة أخرى مصدر الهام العبقري وتبوغه (١) .

وهذا الغبن يحسه الشابى احساساً عميقاً جارحاً ، فإذا فضفض
وما أكثر ما يفعل .. سمعت منه هذا الأثن

فصيت أدواز الحياة ، مفكرا	في الكائنات ، معذباً ، مهموما
فوجدت أعراس الوجود مآتما	ووجدت فردوس الزمان جحيما
تدوى مخارمه بضجة صرصر	مشبوبة تذر الجبال هشوما
وحضرت مائدة الحياة ، فلم أجد	الأشرايا ، أجنا ، مسموما
ونفضت أعماق الفضاء ، فلم أجد	الأسكونا ، متعبا ، محموما
تتبختر الأعماق في جنباتها	وتتموت أشواق النفوس وجوما
ولست أوتار الدهور فلم تفض	الا أثينا ، دافنيا ، مكلوما
يتلو أقاصيص التعاسة والأبي	ويصير أفراح الحياة هموما (٢)

ان لك أن تقول لماذا ؟ والشاعر يتوقع هذا السؤال فيأتيك الجواب :

وانا الشقى فعشت مشطوز الفؤاد يتيما
في غربة ، روحية ملعونة أشواقها تقضى عطاشا ، هياما
يا غربة الروح المفكر . انه في الناس يحيا ، سائما ، مستوما (٣)
أذن هو تفرد الامتياز فلا هو راض عن الناس ، ولا الناس عنه
راضون ، فهو يحيا فيهم سائما مستوما .. وقديما قالوا (لا كرامة
لنبي في قومه) ..

هذه واحدة :

ما للرياح تهب في الدنيا ويدركها اللغوب
الا رياحى قهى جامحة ، تمردها عصيب ؟
مالى تعذبني الحياة ، كائننى خلق غريب ؟
وتهد من قلبى الجميل ؟ فهل لقلبنى من ذنوب ؟ (٤)

وعذاب

ماذا عنه أيضاً ؟ سام الم أوجاع كثيرة فوق طاقة الشعر
والشاعر ..

سئمت الحياة ، وما فى الحياة وما أن تجاوزت فجر الشباب
سئمت الليالى ، وأوجاعها وما شعشعت من رحيق بصاب

(١) المصدر السابق ص ١٠٧ .

(٢) ، (٣) الديوان - قضية - ص ٨١ - ص ٨٢

(٤) الديوان - قضية - ص ٨٣ - ص ٨٤

فحطمت كسائي ، والقيتها
فأنت ، وقد غمرتها اليموع
وألقي عليها الأسى ثوبه
وألقي عليها الصمت والاكتئاب (١)

ولا شك أن عندهم من بواعث الألم
والغنى . . .
وانها لكبيرة غير أنها على هولها لا تسئم شاعراً لم يتجاوز فجر الشباب ،
فهو أقدر من غيره على التنفيس ، بل الاستعلاء والتعويض .

وقد تهادنه الأيام أو يكف عنه الزمن فيهتف من أعماقه متهللاً
للمصباح الجديد :

اسكني يا جراح
مات عهد النواج
وأطل الصباح
من وراء القرون (٢)

وقد كرر هذه الأبيات مرتين أخريين في القصيدة ، فهل التكرار
للموسيقى أم للمقاومة ؟ هل تلج عليه الجراح فيصرخ فيما بين لحظة
وأخرى :

اسكني يا جراح
واسكني يا شجون

لترعوى ؟ أم تراه غير مصدق نفسه فيؤكد لها بالتكرار . . . أرى
وراء الأبيات علامة استفهام . . .

ليت أيامه اتصلت في (عين دراهم) ليلاً أدبنا أفرحاً تغنى

أقبل الصبح جميلاً ، يملأ الأفق بهاء
فتمطي الزهر ، والطير ، وأمواج المياه
قد أفاق العالم الحسى ، وغنى للحياه
فأفيقي يا خسرافى ، وهلمى يا شياء

واقطفي من كلاً الأرض ، ومرعاهها الجديد
واسمعي شبايتي تشدو ، بمعسول النشيد
نغم يصعد من قلبي ، كأنفاس الورود
ثم يسمو طائراً ، كالبلبل الشادى السعيد
وامرحى ما شئت في الوديان ، أو فوق التلال
واربضي في ظلها الوارف ، ان خفت الكلال

(١) الديوان - قصيدة « السامة » ص ٤٤ .

(٢) الديوان قصيدة « الصباح الجديد » ص ١٥٩ .

وامضغى الاششاب ، والأفكار فى صمت الظلال
واسمغى الريح تغنى ، فى شماريح الجبال(١)

لقد نسى نفسه وتآلف القطيع كما تآلف مضغ الأعشاب مع الأفكار
الشاعر والقطيع العزيز كلاهما يعضغ زاده فى صمت الظلال ..

ان فى الغاب أزهيرا ، وأعشابا عذاب
ينشد النحل حوالها . أهازيجا طراب
لم تدنس عطرها الطاهر أنفاس الذئاب
لا ، ولاطف بها الثعلب فى بعض الصحاب(٢)

جراحه تتحرك ، حتى فى عين دراهم لم يستطع منها فككا .. لقد
تذكر أذى أعدائه المسافرين والمقنعين . فمن الناس ذئب ينم عليه حمر
أنفاسه ، ومنهم عدو فى ثياب صديق كالشعلب .

ويجتمع هذا كله فى يد النقد ، فينطلق يصفه بالتشاؤم والياس ،
ويفيض من تعليل وتبرير وملامة ، على خلاف فى الرأى والحكم .. ومن
الطريف أن أحد الناقدين راح يقسم تشاؤمه ويصفه ، وأعنى هذا الأستاذ
الحليوى الذى يرى أن التشاؤم طور من أطوار فلسفة الشبابى التى صبغ
بها شعره (٣) الذى دخل فى ثلاثة أطوار .

(فالطور الأول هو طور التشاؤم القائم ، وفى هذه المدة التى كان
ينحو نحو جبران وينكب على مطالعة المعرى انكبأبا كليا .. فلما نظم أول
أشعاره كان مفرطا فى اليأس والتشاؤم ، وكان هذا التشاؤم من النوع
السهل الرخيص الذى يشاركه فيه كثير من صغار الشعراء ومقلديهم ،
فهو تشاؤم لا تعرف مبعثه ولا الداعى اليه ولا علة ترديده وسبب
وجوده) (٤) .

أى أنه تشاؤم تقليد وأنسياق .

(ثم يجىء الطور الثانى من أطوار الشاعر ، فتراه يستمر متشائما
ولكن تشاؤمه فى هاته المرة مصحوب بالتعليل ، وخزته مبعثه الحيرة ،
وكأبته تعتمد على استمرار تساؤله وحيرته وتطلعه الى اليقين) (٥) .

(١) عين دراهم « من الشمال التوتسى » حيث الطبيعة العذراء الساحرة ، والجبال
الشمى المجللة بالسنديان .

(٢) الديوان - قصيدة « من أغاني الرعاء » من ١٥٢ - ١٥٤

(٣) كتاب « مع الشبابى » للأستاذ الحليوى من ٨٧ .

(٤) كتاب « مع الشبابى » للأستاذ الحليوى من ٨٧ .

(٥) « د » « د » « د » من ٩٠ .

ثم يصطاف الشاعر في بلدة عين دراهم ، فيرى الأستاذ الحلوي في مضيئه نقطة ارتكاز ، عندها دخل الشاب في الطور الثالث من أطوار حياته الشعرية ، (وجهت شعوره الى وجهة جديدة) (١) .

ويرى الأستاذ عمر فروخ الشاب (شاعرا متشائما يائسا ، يحاول أن يزين شعره أحيانا بشيء من روح الأمل والتفاؤل . الا أنه كان متقلبا بين الأمل واليأس ، وكان اليأس عليه أغلب) (٢) .

وممن يقولون بتشائم الشاب : الأستاذ علي سعد ، والأستاذ أبو القاسم محمد بدرى ، والدكتور شوقي ضيف ، والأستاذ مصطفى خريف . ويعزو كل منهم تشائم الشاعر الى سبب يراه .

فالأستاذ علي سعد يرى الأمر طبيعيا (أن يطغى على شعر الشاب ، وهو الذى قال : كل شعره في طور الصبا ، والذى عاش في وسط اجتماعي محتبس ، وفي بيئة عائلية محافظة ، هذا اللون من التشائم الرومنطيقي ومن انثقمة على نفسه وعلى الكون ، والمجتمع ، وهو النزعة القوية للالتجاء الى الحلم من أذى الواقع) (٣) .

اننى أسجل وجهها من وجوه النقد فحسب ، ولكنى لا أرى عند الشاب نقمة على نفسه أو على الكون ، لا ولا حتى على المجتمع ، فان سخريته اللاذعة وتنديده بالوضع الكريه الذى يعيش فيه وطنه وقومه ، إنما ولدها شدة حبه لهم . شدة اشتياقه عليهم . اضطرام شوقه الى عالم أفضل يعيشونه . فنقد الشاب وليد حب حار لا نقمة .

ولعل الأستاذ أبو القاسم محمد بدرى يرى معنى هذا الرأى أو قريبا منه ، فعنده أن الشاب والتيجاني قد تأثرا أيما تأثير بما يسود وطنهما من جمود وتقهر وانحطاط ، وما يحيط بلادهما من فقر وجهل وعرض . فسخطا على عيشهما ، وتبرما بقومهما ، وتشاءما من حياتهما تشاؤما مبعثه حب الإصلاح) (٤) .

ويضيف الدكتور شوقي ضيف الى هذا أن (كان احساس أبي القاسم الشابى حادا ، وجعلته حدته محبا للحياة صبا بها ، وشعر برؤوس أفاع تمتد اليه في طريقه فتمنعه من السير بل ترده الى داره

(١) كتاب (مع الشابى) للأستاذ الحلوي ص ٩٤ .

(٢) كتاب « شاعران معاصران : ابراهيم طوقان وأبو القاسم الشابى » للأستاذ

عمر فروخ ص ٥ .

(٣) كتاب « الشابى » للأستاذ أبي القاسم محمد كرو ص ٣٠ .

(٤) كتاب « الشاعران المتشابهان » للأستاذ أبي القاسم محمد بدرى .

ان لم يكن الى فراش علته ، فرجع محزوناً يجبر أذياله ، والكآبة قد ملأت نفسه ، وملاها أيضاً الاحساس الدقيق بالكارثة ، وما ينتظره من موت عاجل محتوم .

ولم يجد أمامه ما يبيته لواعجه سوى ناي شعره ، فأخذ يشدو عليه أغاني مشجية نظمها والدموع تنهمر من عينيه ، وهى لذلك تعد أشجى أغانيها فى العصر الحديث (١) .

ويرى الأستاذ مصطفى خريف أن هناك سببين أوجدا فى قلب أبى القاسم ذلك السخط والتشاؤم اللذين يبدوان على شعره ، السبب الأول : الحب ، حب جارف باكر فتح الشاعر بصره عليه ، فغمره وساقه فى موكب حافل من العواطف والأخيلة الواسعة ، ولم يمهل الموت فأختطف الحبيب الى القبر (٢) .

أما السبب الثانى ، فمتفرع من السبب الأول .

ففى ظلمات حزنه البالغ ، كان كل فكره وكل عاطفته وكل خياله التى يكمن فيها ، نبوغ وروحانية يتعمق وراء الكائنات ، وينظر بذلك المنظار الأسود القاتم فى تصرفات الدهر وتقلباته (٣) .



إنسان مريض حاد الاحساس متوقد الامتياز فى مجتمع آسن ، كالشعلة المتوهجة فى الرماد الخايب . . طعن الموت حبه فأصماه فتجههم فى عينيه الواقع وأغطش الليل بعد ضياء ، فهل تنتظر من قبل هذا الجريح فى نفسه وقومه ، وحبه خفة ومراحا وحقبة خيالية ؟ لا أخال .

ليس غريباً أن يئأس وأن يمضى يتحدث عن الظلام والألم وأن تبدو على شعره الذى اعتصره من قلبه المكبوم ، آثار الجراح . . فانا لا أنكر هنا أن الكثير من شعره مندى بالدموع ، ولكن الذى أنكره انما هو دعوى النقمة ، فالنقمة تقتن فى رأى بشر كمين فى نفس صاحبها ، ولكن الشبابى شاعر الألوان ، والظلال والرقيف . كان صفاء شابة كدر افتعلته معه الحياة والناس . . ولست وحدى التى أقول بهذا الرأى فان الى جانبى أستاذين يلقيان اللوم على الظروف التى أحاطت بالشاعر . . فالأستاذ محبوب يقول فى استنكار :

(. . لست أفهم كيف يتشدقون بتشأوم الشبابى حتى كادوا

(١) كتاب « دراسات فى الشعر العربى المعاصر » للدكتور شوقي ضيف ص ٥١ - ٥٢

(٢ ، ٣) مجلة « الامام » العدد الخامس - السنة ٣٢ بتاريخ ١٢/٣١/١٩٣٤ ص ٣٤

يجعلونه شوبنهو العرب بعد أن قال :

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبى ومشاعرى عميةً بالأحزان (١)
ثم نجد فى شعره من آن لآخر نبرات الحزن ، ولكن ذلك لا يرجع
الى طبيعة سوداوية له ، بل علتها هو الألم اذا طغى عليه ، هو حقوق الناس
وحسداهم له . ولئن ثار ثائرته وسخط ، فتورته وسخطه على الناس لا على
الحياة . .

أما الأستاذ أبو القاسم كرو فعنده أن ليس (خيالا شعريا ولا تشاؤمه)
ما نجده فى شعر الشابى من احساس قوى بالغربة ، وكره وازدراء
للمحيط ، فان العملاق لا يبدو ولا يكون بين الأقزام الا غريبا فى نظر
كل من يراه (٢) .

بل هناك من النقاد من لا يكتفون باعذار الشاعر أو تبرير صرخاته ،
فينجاوزون المدى فى اختيار الجانب المقابل من الرأى ، فلا يتردد الأستاذ
خفاجه فى القول بتفاؤل الشابى أشد التفاؤل ، ويعلنها صريحة واضحة
أن الشابى فى أعماق نفسه - على الرغم من هوم الحياة وأحداثها ، وحزنه
على بلاده ومرضه - متفائل أشد التفاؤل - يحب الحياة ويتذوقها وينصت
لمشاهدها والهام الجمال الأبدى فيها ، يتغنى بالطبيعة وسحرها ، ويتمنى
أن يعيش فى عزلة عيشة هادئة (للجمال والفن) (٣) .

لاشك أنه كان يحب الحياة انسانا ، ويتذوقها شاعرا والا لما حزن
على تسلسلها بالمرض . ولكن حبه هذا للحياة أقرب الى أن يورثه الأسى
عليها ، وهى تخيض من أن يشيع فيه (التفاؤل) . . لقد كان المسكين
ذكيا ، يرى ويحس الغروب يتعجله ، وما نعم بشعشة الفجر أو ألقى
الضحى . . فما الذى يدعو الى التفاؤل . . قصاره أن يتناسى أو يتلهى
كما فعل فى عين دراهم .

ان الشابى شاعر الألم ، وحسبى أن أقصر على هذا الوصف
ولا أتجاوزه مع الأستاذ عبد العزيز الشابى الذى يراه المثل الأعلى للكاتب
والحزن (٤) .

نمر بالديوان فلا نرى الا روحا تشكو وتتالم وأنفاسا تتصاعد من

-
- (١) مجلة الامام - العدد الخامس السنة ٣٢ بتاريخ ١٢/٣١/١٩٣٤ ص ٣٣ .
(٢) كتاب « كفاح الشابى » لأبى القاسم محمد كرو ص ١٧ - ١٨ .
(٣) كتاب « مذاهب الادب » للأستاذ عبد المنعم خفاجة ص ١٥٨ .
(٤) مجلة الامام - العدد الخامس - السنة ٣٢ بتاريخ ١٢/٣١/١٩٣٤ ص ٤٠ .

نعب التعاسة والشقاء ، لا تتصور الحياة الا ظلمة قائمة ، وترى في نظمها
لها سخرية متلونة ، فتراجع منزعة ، تبث ما بها الى الشعر قائلة :

يا شعر ! قلبى مثلما تدرى شقى مظلم
فلا تقلب صفحة أو تقرأ بيتا ، الا ترى البؤس يكسو روحا قرية ،
تصارع الشقاء الجبار (١) .

• فلئن كان في شعر الشابي بعض من بسمات الأمل ، والثبات
الى الحياة راضية ، فهو شيء ضئيل جدا ، لا يعدو ابتسامة مسجون ،
وأغنية طائر مأسور ، لا ينهض بحال على أنه مقبل على الحياة ، راض
عنها ، وكيف يكون ذلك من يقول :

أيها الشادى المفرد ههنا ثملا بغبطة قلبه المسرور
غرد ففى قلبى اليك مودة لكن مودة طائر مأسور (٢)

واذا كان الألم سببا من أسباب يعزى اليها ظاهرة أو أخرى فى
شعر الشابي •• بل لعله ظاهرة كبرى ، لفتت الكثيرين • فمن وفاء
الدراسة أن نفرد لألم الشاعر بابا خاصا تتسمع فيه أناته ، وتتقضى
انعكاساتها على شعره •

شاعر الألم

من النقاد من يعزو الى الألم وحده شعر الشابي كله بل عبقريته نفسها (فلولا على ما يظهر ، ما تحركت في داخل نفسه الباطنة عبقريته الشاعرة ، واقرأ فيما نشر وجمع من أغانيه وأشعاره ، فستراها كلها نبتت في تربة الألم ، وتمايلت أغصانها في ظلمة المرض وهمومه وأوجاعه) (١) .

والناقد يعنى هنا الألم الخاص والعام (٢) .

أيها السارى مع الظلمة ، في غير أنساة
مطرقا ، يخبط في الصحراء ، مكبوح الشكاة
تهت في الدنيا ، وما أبت بغير الحسرات
صل يا قلبى الى الله ، فان الموت آت
صل فالنازع لا تبقى له غير الصلاة (٣)

نعم هناك ثقل يثوده تترجم عنه (مكبوح الشكاة) . . .

وهو في قصيدة (يا شعر) (٤) كثير الانفعال يهسداً ويصخب ،
يضحك ويبكى تكاد تغتاله أوهامه ، ثم يفيق على شعاع من نور أو بسمة
من زهرة فتنتطلق نفسه ويتفاءل . وإذا بالوهم الدساس يتسلل اليه وهو

(١) كتاب « دراسات في الشعر العربي المعاصر » للدكتور شوقي ضيف ص ٥٧ .

(٢) يقول الناقد « ولم يقف احساس الشابي بالألم عند نفسه ، بل يتعداها الى

أمته » ص ٥٧ من المصدر السابق .

(٣) الديوان - قصيدة « ال قلبى التائه » ص ٩٢ .

(٤) الديوان ص ٣٥ - ١ .

يعزف فيريد من جديد ثم يعود . وظل على هذه الحال دون أن تدري
اتطرب معه أم تبكي من أجله ؟ ..

انه لا شك مكروب وحسبه راحة أن تنفس في شعره ...

يا شعر ! قلبي - مثلما تدري - شقي ، مظلم
فيه الجراح ، النجل ؛ يقطر من مغاورها الدم

يا قلب ! لا تسخط على الأيام ، فالزهر البديع
يصغى لضججات العواصف قبل أنغام الربيع

عنه ... عزاء وتأسية ...

يا شعر ! أنت نشيد أمواج الخضم الساحره
الناصعات ، الباسمات ، الراقصات ، الطاهره

تهليل وانطلاق .. لحظة ..

وبعد أن رقص شعره على وقع نشيد الموج تجهم من جديد ..

ها أن أزهار الربيع تبسمت أكمامها

أين التجهم إذن ؟

ترنو الى الشفق البعيد تغبرها أحلامها

هنا في (تغبرها أحلامها) .. هنا توجس وطيرة ..

في صدرها أمل ، يحدق نحو هاتيك النجوم
لكنه أمل ، ستلحذه جبابرة الوجوم

ألم أقل لك : لكان بينه وبين الموت ترات ، فهو دائما يتخيله
يترصده ، ويتحرش به .. مسكين شاباه يتفرع .. في الحياة .. من
الموت .. لقد بكينه عند بيتيه :

يا شعر ! هل خلق المنون بلا شعور كالجماد ؟
لا رعشة تعرو يديه اذا تملكه القوادر

أرأيت أزهار الربيع ، وقد ذوت أوراقها
فهوت الى صدر التراب ، وقد قضت أشواقها

أرأيت شحور الفلا ، مترنما بين الغصون
جمد النشيد بصدرة ، لما رأى طيف المنون ؟

فقضى ، وقد غاضت أغاريد الحياة الطاهره

وهوى من الأغصان ؛ ما بين الزهور الباسره؟(١)

شلت يده ... هذا الموت تمتد الى شباب ...

وهو حين يتسبح للألم أو لشعور الألم على وجه التحديد ، لا تقع عينه الا على مآسى الحياة ، فيطالعه أو تجره قدمه بوعى منه أو بغير وعى الى المقابر ، فيفزع من هول الفجعة ... فتاة يغيب أبوها فى الثرى أحوج ما تكون اليه فى دنيا الغاب ... وحبيب فى ميعة العمر ينطفىء كالومضة وما درى بنائحه تنهاوى عليه جازعة تجار (ويل لمن يتركونه) ... وتتوالى الصرخات فى أذن الشاعر . فهذه صرخة تمرق أقسى القلوب ... نعم هى صرخة أم ريعت فى صغيرها ، وهذه أنة شريد ، وتلك شكاة بأفس (٢) . وتشكائر الآلام فى طريق الشاعر حتى لتكاد تسد عليه طريقه ... ومن انطباعاتها فى نفسه قصائده .

ماتم الحب (٣) ، الكتابة المجهولة (٤) ، أيها الليل (٥) .

شكوى اليتيم (٦) ، الزنبقة الداوية (٧) ، السامة (٨) .

الدموع (٩) ، أغنية الأبحزان (١٠) ، الذكرى (١١) .

مناجاة عصفور (١٢) ، المساء الحزين (١٣) ، بقايا الخريف (١٤) .

أغنية الشاعر (١٥) ، فى فجاج الآلام (١٦) ، جدول الحب (١٧) .

يا رفيقى (١٨) الى الموت (١٩) الى غارف أعمى (٢٠) .

صوت تائه (٢١) نشيد الأسى (٢٢) ، قلت للشعر (٢٣) .

(١) الديوان - قصيدة « يا شعر » ص ٣٨ .

(٢) الديوان - قصيدة « فى فجاج الآلام » ص ٦٥ - ٦٨ .

(٣) الديوان ص ٢٠ - ٢١ . (٤) الديوان ص ٢٢ - ٢٤ .

(٥) الديوان ص ٢٥ - ٢٨ . (٦) الديوان ٢٢ - ٢٤ .

(٧) الديوان ٢٩ - ٣٠ . (٨) الديوان ٤٤ .

(٩) الديوان ٤٦ - ٤٧ . (١٠) الديوان ٤٧ - ٥١ .

(١١) الديوان ٥٣ - ٥٤ . (١٢) الديوان ٥٥ - ٥٦ .

(١٣) الديوان ٥٩ - ٦١ . (١٤) الديوان ٦٢ - ٦٣ .

(١٥) الديوان ٦٤ . (١٦) الديوان ٦٥ - ٦٨ .

(١٧) الديوان ٦٩ - ٧٢ . (١٨) الديوان ٧٣ - ٧٥ .

(١٩) الديوان ٧٦ - ٧٧ . (٢٠) الديوان ٧٨ - ٨٠ .

(٢١) الديوان ٨١ - ٨٢ . (٢٢) الديوان ٨٣ - ٨٥ .

(٢٣) الديوان ٨٦ - ٨٧ .

أغاني التائه (١) ، الى قلبي التائه (٢) ، أكثرت يا قلبي ماذا تروم (٣) ،
يا موت (٤) ، الى الله (٥) النبي المجهول (٦)
صفحة من كتاب الدموع (٧) ، شجون (٨) ، طريق الهاوية (٩)
الأشواق التائهة (١٠) ، أحلام شاعر (١١) ، قيود الأحلام (١٢)
أنا أبكيك للحب (١٣) ، أبناء الشيطان (١٤) ، رثاء فجر (١٥) ،
حديث المقبرة (١٦) ، في ظل وادي الموت (١٧) ، قال قلبي للاله (١٨)
الجنة الضائعة (١٩) ، أيتها الحاملة بين العواصف (٢٠) ، الأبد
الصغير (٢١) ، صوت من السماء (٢٢) ، الصباح الجديد (٢٣) ، نشيد
الجبار (٢٤) ، زوبعة في ظلام (٢٥) ، شكوى ضائعة (٢٦) ، فلسفة
الشعبان المقدس (٢٧) .

وهذه القصائد قد حشدت بالفاظ العذاب التي تبلغ ١١١٨ لفظاً
من مثل :

شجون - شقاء - ابتئاس - نوايب - البلايا - الرزايا - الارهاق -
لظى - اليأس - الوجل - الهول - الويل - دامية - ضجيج - كئيب -
غريب - أنين - حنين - حزين - اعتساف - اضطخاب - العذاب - ركود
- تائه - حيران - النحيب - غصات - الحزن المذيب - دموع - هدها -
لوعة - صرخت - قسوة - جهنم - ذكرى - قطوب - تتلوى - التعميس
- المكروب - يطفح - لذع - تبرمت - كرهت - يعصف - لغوب -
الخطوب - تهاوت - تجرع - نوح - تنهدت - شوك - أوجاع - لفع -

• الديوان ٨٩ - ٩٠	• الديوان ٩١ - ٩٢
• الديوان ٩٣ - ٩٤	• الديوان ٩٥ - ٩٧
• الديوان ٩٨ - ١٠١	• الديوان ١٠٢ - ١٠٥
• الديوان ١٠٦ - ١٠٧	• الديوان ١٠٨
• الديوان ١١٠ - ١١١	• الديوان ١١٢ - ١١٣
• الديوان ١١٤	• الديوان ١١٥ - ١١٦
• الديوان ١١٧ - ١١٨	• الديوان ١١٩ - ١٢٠
• الديوان ١٤١ - ١٤٣	• الديوان ١٣٤ - ١٤٠
• ١٤٣ - ١٤١	• الديوان ١٤٦
• الديوان ١٤ - ١٥٠	• الديوان ١٥٥
• الديوان ١٥٦ - ١٥٧	• الديوان ١٥٨
• الديوان ١٥٩ - ١٦١	• الديوان ١٧٩ - ١٨١
• الديوان ١٨١	• الديوان ١٨٦ - ١٨٧
• الديوان ١٩٢ - ١٩٤	

(شعره قد احتوى على الكثير من اليأس فى هاته الحياة
والتمعض من آلامها وأظن أن هذا ما جاء للشابى الا من
ناحية البؤس والشقاء والزهادة فى الحياة وزينتها • فمن
الواجب أن تكون تعاليم فلسفته فى شعره ، وأن يكون
شعره هو القينار الذى يترنم بفلسفته وميوله وآرائه
فى الحياة • ومن ناحية أخرى ما كان يقاسيه من أوصاب
وأمرض عضالة (١) •

ما أحسب الشابى زاهدا فى الحياة وإن شقى بها • وما كان
ليتحسر عليها كل هذه الحشرات ، لو كانت هيئة فى عينه لا تستهويه •
ولقد جأر الشابى بالشكوى الى الله وأفصح عن أسبابها فى شبه احصاء ،
فلم تكن الزهادة من بينها •

ولعلك تراجع الأسباب معي :

أنت أنزلتني الى ظلمة الأرض	وقد كنت فى صباح زاه
ثم خلفتني وحيدا فريدا	بين داع من الرياح ونساء
أنت أنشأتني غريبا بنفسى	بين قومي ، فى نشوتي وانتباهى
أنت عذبتني بدقة حسى	وتعقبتني بكل الدواهى
بالأسى ، بالسقام ، بالهم ، بالوحشة ، باليأس ، بالشقا المتناهى	وتذوى معاجرى وشفاهى
بالمنايا تغتال أشهى أمانى	تافه ، من ترائب وجباه (٢)
فاذا من أحب حفرة ترب	

وبالطبع •• بعد هذا كله •

واذا فتنة الحياة وسحر الكون ضرب من الغمام الزاهى
يتلاشى فوق الحضم ، ويبقى اليم كالعهد مزبد الأمواه
وحدة •• غربة •• دقة حس •• أسى •• سقام •• هم •• وحشة
يأس •• شقاء •• منايا •• انه حشد من الأسباب ، وليس سبباً واحداً
كما يذهب فى التعليل ناقد أو آخر ، كما فعل الأستاذ محمد الحبيب بن
بلقاسم فى عرضه لآلام الشابى فقد أشار الكاتب الى حب الشابى وقرر

(١) مجلة الامام - العدد الخامس - السنة ٣٢ بتاريخ ٣١/١٢/٣٤ ص ٣٦ - ٣٧ •

(٢) الديوان - قصيدة « الى الله » ص ٩٩ •

أنه كان صدمة عفيفة ، ولكنه لم يشأ أن يعزو اليه حزن الشاعر وجذته
أن (الشبان أو الشعراء الذين عانوا مثل تجربته في مثل عمره كثيرون ،
ولم تصطبغ أشعارهم بهذه الصبغة القاتمة) (١) . ومن ثم راح يبحث
عن تفسير آخر لكآبته غير تفسير الحب . . .

وقبل أن نعرض لتفسيره الأخرى نحب أن نقول أنه لا يتحتم
مطلقاً أن يستوى جميع الشبان في درجة الاحساس أو حرارته ازاء العاطفة
المماثلة ، حزينة كانت أو سارة . .

بقى أن نرى سائر التفاسير عل بينها ما يغنى أو يقنع . . .

يقول لكاتب (أما أحواله الخاصة فقد كان في درجة محسودة من
العيش ، ولم يعرف عنه التهاك على حب ملذات الحياة ، وأما مرضه فقد
صادفه شاعرا كامل الأداة فليس في أحواله الخاصة كذلك ما يعلل أحزان
هذا الشاعر . فإذا نظرنا الى أحوال تونس الأخلاقية والاجتماعية
والسياسية أيضا فاننا نجدها تورث الحزن لا محالة . ولكن كم هم
الشعراء الذين زاملوا أبا القاسم الشابي ، ولم تستبدل تلك الأحران
بأشعارهم ؟) (٢) .

كل هذا في نظر الكاتب « روافد متممات » انما ينبغي عنده (أن
يطلب تعليل آلام هذا الشاعر في داخل نفسه ، ويبحث عن التعريف
بكآبته المجهولة في نظراته للأشياء لا غير ، لأن البحث عن غيرهما غير
معجد ، وتعليق هذه الآلام بأمور أخرى خارجة عن ذاته لا تسكن اليه
النفس) (٣) .

والكاتب يعنى بداخل نفسه : (يقظة شعور الشابي التي وكلت
ياحساء ما يطوف حوالها) (٤) والكاتب يقدر أن الشاعر (لو عاش بهذا
الشعور ولم يرافقه حنين الى حياة أخرى ، لكان من الراجح أن يشتمل
شعره على اشراق وبهجة ، تنسينا أحيانا تلك الغيوم من السأمسة
والضجر) (٥) .

أى أن حلم الشاعر بحياة أخرى أفضل يعزز عامل يقظة الشعور في
تلوين شعر الشابي بصيغته القاتمة وهو كما يبدو من صياغة الكاتب ليس

(١) مقال « آلام الشابي » من كتاب « ذكرى الشابي » ص ٣٣ .

(٢) ص ٣٤ من مقال « آلام الشابي » من كتاب « ذكرى الشابي »

(٤) ص ٣٤ من مقال « آلام الشابي » من كتاب « ذكرى الشابي » .

(٥) ص ٣٥ من المصدر السابق .

من (الروافد المتممات) فحسب . ولكنه يتقاسم الأهمية مع السبب
الأوحد الذي التمسه الكاتب تفسيراً لحزن الشابى وهو نقطة الشعور . .

وعندى أن مرضه ، وفقد أجيته ، وتعاسة وطنه فى أيامه ، ويقظة
شعوره ، كلها عوامل لا يكاد يرجح أحدها الآخر فى تعليل ألمه بل انها
تتساوى تقريباً فى الوصول الى هذا التعليل . . .

بعد هذه الآلام الحادة كل سرور يغشيه الألم ، بل ان المحزون يثير
السرور أشجانه كالآلم سواء بسواء . . فاذا بالسرور كما أبدع الشاعر
فى وصفه غمام زاه وإذا به هدوء سطحي عارض ، على صفحة خضم
يتلاشى سريعاً فى صخب الأمواه أحاطت به وضيق عليه الخناق . .
وغير هذا يكون الزهد الذى يختاره صاحبه وله ندحة عنه من قدرة أو
وفرة . . ولكن شاعرنا يجب الحياة والمتعة والرفه . . ولوع بأسباب
السرور . ولكن ما حيلته فى الأسى والسقام والهم والوحشة واليأس
والشقاء ، كلها اصطلاحات عليه ، والتقى جمعها عنده . . فلم تترك له
الضيافة الثقيلة فسحة للاسترواح ، أو مجالا للسرور الخالص ، الذى
يشتهي ويتقتل عليه . .

ولا ننسى أن فى قلب الشابى جرحاً غائراً يخيل اليه معه أن البرء
منه بعيد . . وهو يلج عليه حتى فى سبحات الشعاعية فيحسد من
انطلاقه . .

فيك - ان عانق الربيع فؤادى - تتشنى سنبلى وورودى
أنت يا شعر - ان فرحت - أغاريدى - وان غنت الكأبة - عودى

الشاعر يستبعد الربيع والفرح . . . وليس أدل على السبخية
المرورة أو المرارة الساخرة - ان شئت - من اعلانه أن الكأبة تجسده ،
حتى لكأنها تمشى على قدميه ، وترى بعينه - فان جاز أن تغنى الكأبة
أى يغنى هو فالشعر . . عوده . .

ما أحوجنا الى رثاء . .

وهو اذا طفح ألمه لا يعود يرى فى الدنيا الا ظلاماً فى ظلام ،
ويتنادى (الى الموت) .

الى الموت . ان حاصرتك الخطوب ، وسدت عليك سبيل السلام
ففى عالم الموت تنضو الحياة رداء الأسى ، وقناع الظلام

وتبدو ، كما خلقت ، غضة يفيض على وجهها الابتسام
تعيد عليها ظلال الخلود ، وتهفو عليها قلوب الأنام (١)

ولكن هبه على حد تعبيره : حاصرته الخطوب وسدت عليه سبيل
السلام ، ففي الحياة منافذ للسلوى والعزاء والاستعلاء .. أنا لا أقر
شاعرا متفتح الشباب والموهبة ، على هذه النزعة ،

وهو حين يرقق الشعر للعازف المطبق الجفنين ، يأخذني منه
تهويله عليه الآلام (٢) حين توقعت منه أن يهون عليه ويفريه بالعزاء ،
يجسمه له في هبة الفن وسحر النغم ... ولكن الشاعر مغم القلب
بالمراة ، فهو يرى أن الحياة ..

قفر مروع مأؤه سراب
لا يجتنى الطرف منه الا عواصف الشوك والتراب
وأسعد الناس فيه أعمى لا يبصر الهول والمصائب

حسن تعليل كما يقول البلاغيون . ولكنه في نظر الحياة المتوثبة
التي تطفر من المرح والأمل والبهجة ، ليس بالحسن .

وما يجهل الشاعر هذا أو ينكره ، فهو نفسه يتساءل :

ما للمياه نقيّة حولى ، وينبوعى مشوب ؟
ما للصباح يعود للدنيا ، وضبحى لا يؤوب ؟
مالى يضيق بى الوجود ، وكل ما حولى رحيب ؟
مالى وجمت ، وكل ما فى الغاب مغترد طروب ؟
مالى شقيت ، وكل ما فى الكون أخاذ عجيب ؟
فى الأرض أقدام الربيع تلامس السهل الجديب
فاذا به يحيى ؛ وينبت رائق الزهر الرطيب
وهناك أنوار النهار تطل من خلف الغروب
فتخضب الأمواج ، والآفاق ، والجبل الحصب
ان الوجود الرحب ، والغابات ، والأفق الحصب
لم تخب أشواق الحياة بها ، فغادرها الخطوب
أما أنا ففقدتها ، والليل مربد ، رهيب
والريح تعصف بالورود فعشمت سخرية الخطوب

(١) الديوان - قصيدة « الى الموت » ص ٧٧

(٢) الديوان - قصيدة « الى عازف أعمى » ص ٧٨ - ٨٠

ولكنه بعد هذه المعرفة ، ورغم هذه المعرفة يقول وكان به اصرارا ::

مهما تضاحكت الحياة فاننى أبدا كئيب

(تضاحكت) لا يسلم بالضحك الخالص ولكنه كلفة وتضاحك !!

أصغى لأوجاع الكتابة ، والكتابة لا تجيب

فى مهجتي تتأوه البلى ، ويعتلج النحيب

ويضج جبار الأسى ، وتجيئ أمواج الكروب

انى أنا الروح الذى سيظل فى الدنيا غريب

ويعيش مضطلعا بأحزان الشبيبة والمشيب

ترى هل نقول معه :

يا اله الوجود ! مالك لا ترثى لحرز المعذب الأواء ؟

ان الله يغفر مثل هذه البادات ... ولعل الشاعر ليس أدنى منه

الى ربه ، والى قلوبنا فى هذه الأبيات من سائر شعره :

قد تأوهت فى سكون الليالى	ثم أطبقت فى الصباح شفاهى
وتغزلت بالحياة ، وبالحب	وغنيت كالسعيد الالهى
وزرعت الأحلام فى قلبى الدامى	وحوطتها بكل انتباهى
ثم لما حصدت لم أجن الا	الشوك، ماذا ترى فعلت ؟ الهى ! (١)

لقد لج به الألم حتى غاصت فى الطفح (يا) النداء ... انه فى
سعار يضيق بالحروف والكلمات ، الا ما يكاد يبلغ صوته ويشيع
صرخته ...

يا رياح الوجود ! سيزى بعنف	وتغنى بصوتك الأواء
وانفحينى من زوحك الفخم ما يبلغ	صوتى آذان هذا الاله
فهو يصغى الى القوى ، ولا يصغى	لصوت بين العواصف واه
والشرى الورد للثلوج بدادا	واصغى كل بلبل تيساه
فالوجود الشقى غير جدير	بالأغاني ، وبالجمال الزاهى
واسحقى الكائنات كونا بكون	قبل ان تنتهى آذل تمام
فالاله العظيم لم يخلق الدنيا	سوى للفناء تحت الدواهى (٢)

ان الشاعر الرقيق الناشج قد استحال الى عاصفة تدمدم ...

تسخط وتسخر ...

خبروني هل للورى من اله راحم - مثل زعمهم - أوام
يخلق الناس باسماء ويواسيهم ، ويرنو لهم بعطف الهى
لقد اعترف به ولما يفرغ من انكاره بعد ...

ويرى فى وجودهم روحه السامى ، وآيات فنه المتناهى
اننى لم أجده فى هاته الدنيا ، فهل خلف أفقها من اله ؟

انه يتخبط فى ظلام عابس مكفهر ... ويحه ! ما هذا ؟
ما الذى قد أتيت يا قلبى الباكى ؟ وماذا قد قلت يا شفاهى ؟
يا الهى ! قد أنطق الهم قلبى بالذى كان .. فاعتقر يا الهى
قدم اليأس والكآبة داسست قلبى المتعب ، الغريب ، الواهى
فتشظى ، وتلك بعض شظايا .. فسامح قنوطه المتناهى
فهو يارب معبد الحق ، والإيمان ، والنور ، والنقاء الالهى
وهو ناي الجمال ، والحب ، والأحلام ، لكن قد حطمته الدواهى (١)
اذن هو قنوط حجب عنه الرجاء ...

أنر قلبه يارب ، وسامح قنوطه المتناهى
فهو يا رب معبد الحق ، والإيمان ، والنور ، والنقاء الالهى
وهو ناي الجمال ، والحب ، والأحلام ، لكن قد حطمته الدواهى

ترى هل انتهت قصة حياته ؟ لعلك تقول : وماذا بقى فيها .. انها
لا تعدو الخمسة والعشرين ربيعاً .. نعم ولكنها يا صديقى حياة عريضة ،
وان لم تكن طويلة .. ومن الناس من يعيشون حياتهم بالعرض فتبذ
- على قصر فيها - حياة أولئك الذين يطوون الأيام الطويلة الرتيبة ،
كما يجتر الجمل غذاءه .. حركة مألوفة فلا جديد ..

لا تتعجلنى الدليل ، فسأتيك به فى فصول أخرى .

(١) الديوان - قصيدة « الى الله » ص ١٠١

قلب شاعر

والشابي من الشعراء العشاق ، الذين شغل النقاد بهواه كما شغله
هواه . قال قوم : انها واحدة بعينها التي رقرق لها الغناء ، وقال
آخرون : بل هي (المرأة) . وأقول والشواهد تتدافع نحو الصفحة لتقف
معى : ان في حياته حبا كبيرا معينا يملأ دنياه ، ويوشى رؤاه .

فاذا ما لاح فجر ، كان في الفجر سناه
واذا غرد طير ، كان في الشدو صداه
واذا ما ضاع عطر ، كان في العطر شذاه
واذا ما رف زهر ، كان في الزهر صباه
فهو في الكون جمال ، يملأ الأفق ضياه
وتوشى هذه الأكسوان بالسحر رؤاه
وهو في قلبى - الذى عانقه الفجر - اله
عبقرى السحر ، ممراح ، وديع في سماه
ينسج الأحلام في قلبى بأضواء الحياه
ويغنينى ، فأنسى في مسرات غناه
كل ما في الكون من حزن وأفراح عداه (١)

انه حبيب من الجنة فيه من الألق والعطر والرفيف والسحر ما يكفى
الربيع والفجر والأصيل والشفق .

وعنده معبد للحب يستهوى . . يقع في حضن الطبيعة . . هناك
في الغاب . . كل شيء هادئ ساكن . . كأنه يسترق السمع . . اصغ
معى :

(١) الديوان - قصيدة « أنا أبكيك للحب » ص ١١٧ - ١١٨ .

وسكتنا ، وغرد الحب فى الغاب ، فأصغى حتى خفيف الغصون
وبنى الليل والربيع حوالينا من السحر والرؤى والسكون
معبدا للجمال ، والحب شعريا ، مشيدا على فجاج السنين
تحت يزر الزمان ، ويجرى صامتا ، فى مسيله المحزون
وتمر الأيام ، والحزن ، والموت ، بعيداً عن ظله المأمون (١)

حتى فى خدر الحواس وغناء الحب يطارد الموت سبحاته وخيالاته ..

معبدا، ساحرا، مباخره الزهر، على الصخر، والثرى، والغصون
كل زهر يضوع منه أريج من بخور الربيع جم الفتون
ونجوم السماء فيه شموع أوقدتها للحب روح القرون

وقد لاحظ الأستاذ كرو أن هذا الحب الوثيد قد أحدث (فى حياة
الشابى ، وفى أدبه انقلابا بعيد الأثر ، متعدد الجوانب والصور) (٢) .

وقد أنصف الرجل حين قال : (والواقع أن قصة حب الشابى لم
تعرف فصولها بعد ، بل ان العنوان نفسه لا يزال مجهولا . وأحسب أننا
لن نستطيع كشف هذه انفصول وجمعها بما يتفق والحقيقة التاريخية ،
وبما جرى فعلا فى حياة الشاعر ، الا بعد الاطلاع على كافة تراث الفقيه
الأدبى ، ومعرفة جوانب معينة من حياة الشابى الخاصة ، وكلا هذين
يحتاج الى وقت طويل وجهد كبير . والى أن يتم كل ذلك ساطل مقتنعا
كل الاقتناع بأن الشابى أحب فى حياته حبا حقيقيا صادقا ، وبأنه أغرم
بفتاة معينة غراما غنيا مشبوبا ، وبأن تلك القصائد الغزلية الحسان
المملوءة بالحرارة والوجد ، ان هى الا صدى صادق لذلك الحب ، وتصوير
رقيق لاحتراق الشاعر به وتمجيده له ، وعكوفه عليه) (٣) .

كتب الشاعر الى صديق - وما أصدق هذه الرسائل عندي وأخطرها
فى تقييم الأثر الفنى واستشفاف نفس صاحبه من خلالها ..

أما رسالة الشابى فقد جاء فيها :

(أما هذه النفس فانها طائر معذب مطعون ، يسكب دماه فوق
الصخور القاسية ، بين أشواك السبيل دون أن يظفر بعشه ،

(١) الديوان - قصيدة « تحت الغصون » ص ١٧٣ .

(٢) كتاب « الشابى » للأستاذ أبى القاسم كرو ص ٩٢ .

(٣) كتاب « الشابى » للأستاذ أبى القاسم كرو ص ٩٦ .

الذى عبثت به العاصفة ولا بسر به الذى شردته النسور (١)

العش والسرب . . أحلام بيضاء عمرها بعض ليلة . . أو هي
حقائق كثيرة الوقوع ، ولكنها عزت على الشاعر الملهوف ، فبدت طيوفا ،
ورؤى ومنى بعيدة ، يزيدها حر الشوق ووقدة الحرمان ، وبرودة الوحدة
نعيمًا وروعة ، تأسر المتشوف بالفتنة الخلوب . .

ويشير الأستاذ السنوسى الى أن له حبيبة (وقد ماتت وتركته
يندب « جدول الحب » ولنا علم اليقين أنه قد أصيب بمرض القلب من
تلك الصدمة) (٢) .

ويخلص من هذا بعد صفحات الى أن شاعرنا (برغم الصدمة التى
لقيها فى حبه العذرى ، اذ ماتت صاحبتة الصغيرة ، فقد أحس فى نفسه
بدماء الشباب ونفحات « الحب » تغريه . ثم يقرر فى يقين أن الشابى
(كان زواجه سعيدًا موفقا . .) (٣) .

وقد أورد الأستاذ السنوسى قصيدتى الشاعر ومطلع الأولى :

أراك فتخلو لدى الحياة ويملا نفسى صباح الأمل

وأخرى مطلعها :

راعيا منه صمته ووجوهه وشجاءها شجوبه وسهوه
على أنهما قيلتا فى زوجته . .

ثم يعود فى ص ٦١ ليؤكد أن زواج الشابى كان (فى آخر أخريات
عمره ، قد أحس معه بالسعادة التى خففت من تَجْهِم شعره . ثم كان
لجملها وولادة ابنه الأول والثانى أثر أعظم قد ظهر بالاشراق على أدبه) .

ولكن الدكتور شوقي ضيف يرى فى هتاف الشاعر المعول ، بالحب
الفقيد رأيا آخر قد يبدو غريبا . فعند الدكتور شوقي ضيف أن هذا
الحب الذى يرثيه مع قلبه ليس إلا حبه للحياة (وما حبيبته التى يرثيها

(١) كتاب « مع الشابى » للأستاذ الحليوى ص ٩٠ - ٩١ .

(٢) كتاب « أبو القاسم الشابى . حياته . أدبه » للأستاذ زين العابدين السنوسى .

ص ٢٤ .

(٣) كتاب « أبو القاسم الشابى . حياته . أدبه » للأستاذ زين العابدين السنوسى .

ص ٢٩ .

فى شدوه الا دنياه ، وما يتألق فى بصره من جمالها الذى يسطع على الأشياء والأشخاص من حوله (١) .

وناقده آخر يرى أن الشابى انما كان يحب المرأة كجنس ، وليس هناك واحدة بعينها ، ودليله أن الشاعر (لا يذكر امرأة مخصوصة ولا واقعة بعينها ، وانما يذكر المرأة والحب ، ويسبغ عليهما من روحانيته العميقة كل المعانى الرقيقة والأفكار السامية التى تضاهى فى الأفلاطونية أسمى ما كتب عن هاته الأغراض) (٢) .

ليت الأستاذ الخليوى صاحب هذا الرأى يقرأ معى لشاعرنا الرقيق البهاء زهير الأبيات العذبة :

رد السلام رسول بعض الناس	بالله قل يا طيب الأنفاس
رد السلام وذاك عنوان الرضا	بشراى قد ذكر الحبيب الناسى
وأنزه اسمك أن تمر حروفه	من غيرتى بمسامح الجلاس
وأقول بعض الناس عنك كناية	خوف الوشاة وأنت كل الناس (٣)

ويقول الأستاذ خليفة محمد التليسى . .

(. . . والشعر الذى قاله فى المرأة لا نستطيع أن نعثر فيه على امرأة معينة ، لها شخصيتها وطبائعها ومزاياها التى تنفرد بها . أقول هذا وأنا على بيئة من المذهب الذى اتبعه الشابى فى شعره . فقد أخذ من الشعراء القدماء سعيهم وراء الجسد ، واهمالهم الصفات التى تميز امرأة عن أخرى . ولو كانت هناك امرأة معينة تختفى وراء هذا القصيدة ، لما صبح أن تترك شعره دون أن تسمه بميسم خاص يستطيع معه القارئ التعرف على شخصيتها بوضوح) (٤) .

(وحقيقة يخطئ فيها كثير من الباحثين ، وهى عدم تمييزهم بين هذه النعمة التى تصدر عن الحرمان فلا تصور الا اللهفة والحنين والشوق ، وتسبغ على المحبوب كل صفات الرقة والجمال ، وبين هذه النعمة التى تصدر عن الحب ، حب الذى عرف المرأة وعاشرها ففهمها وفهم طبائعها ، فلم يزد فى التشبيب بها على وصفها بصفاتها المميزة لها (٥) .

(١) كتاب « دراسات فى الشعر العربى المعاصر » للدكتور شوقى ضيف ص ٥٥ .

(٢) كتاب « مع الشابى » للأستاذ محمد الخليوى ص ٧٤ .

(٣) ديوان أبى الفضل بهاء الدين زهير ص ١٠٩ .

(٤ ، ٥) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسى ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

ولكن الناقد لم يبين لنا أى لون من الحرمان ، ذلك الذى يعزو اليه تحرق الشابي ولهفته ٠٠ ان الحرمان لوان ٠٠ حرمان ملتاح يتخيل ولا يجد ، وحرمان مشتعل يجد ولا ينال ٠٠

واذا كان مضمون كلام الناقد يرجح ميله الى اللون الأول من الحرمان فاني أذكرى اللون الثانى ، وهو عندى أورى نارا وأقدر على ارسال (صلوات فى هيكل الحب ٠٠) ويعزز هذا سيرة الشابي ، وشبه الاجماع المنعقد على وجود حببية له صوح بها الموت فى أعياد الربيع ٠٠

وناقده آخر يرى أن (الشابي لم يكن يحب حبا ماديا ، يبنى به قضاء رطر أو وصال حبيب ٠٠ بل كان قلبه يخفق بحب روحى علوى ، يتمثل له فى مشاهد الطبيعة الساحرة وفى مناظرها البهيجة) (١) .

ولكنى من دراستى الموضوعية أقف الى جانب الرأى القائل : بأن الشابي كان يحب امرأة بعينها ، رفع اليها صلواته فى هيكل الحب ، فهذه الحرارة والدفق والبهر لا تنبعث جميعا ، وبهذه القوة والعمق والذهول الا من قلب عميد ٠٠



عذبة أنت كالطفولة ، كالأحلام	كاللحن ، كالصباح الجديد
كالسما الضحك كالليلة القمر	كالورد ، كابتسام الوليد
يالها من طهارة ، تبعث التقدي	س فى مهجة الشقى العنيد
يا لها رقة تكاد يرف الور	د منها فى الصخرة الجلمود
أنت ٠٠ ما أنت ؟ أنت رسم جميل	عبرى من فن هذا الوجود
فيك ما فيه من غموض وعمق	وجمال مقدس معبود
أنت ٠٠ ما أنت ؟ أنت فجر من السحر	تجلى لقلبي المعمود
وتبش رقة الشوق ، والأحلام	والشدو ، والهوى ، فى نشيدي
أنت أنشودة الأنشيد ، غناك	اله الغناء ، رب القصيد
خطوات ، سكرانة بالأنشيد	وصوت ، كرجع ناي بعيد
وقوام ، يكاد ينطق بالألحان	فى كل وقفة وقعود
كل شيء موقسح فيك ، حتى	لفتة الجيد ، واهتزاز النهود
أنت ٠٠ أنت الحياة ، فى قدسها السامى ، وفى سحرها الشجى الفريد	والسحر والخيال المديد
أنت دنيا من الأنشيد والأحلام	وفوق النهى ، وفوق الحدود
أنت فوق الخيال والشعر والفن	

(١) كتاب « الشاعران المتشابهان » للأستاذ أبى القاسم محمد بدرى ص ٥٩ .

أنت قدسى ، ومعبدى ، وصباحتى وربيعتى ، ونشوتى ، وخلودى (١)
 رحيق يحتسى فى صمت معسول ... كافرة بالفن أنا ان حاولت له
 شرحا أو تحليلا ...

وهو يرسم للقاء صوراً موقنة تغرى بالحلب شيوخ الرهبان ...

أراك ، فأخلق خلقاً جديداً
 ولم أحتمل فيه عبثاً ، ثقيلًا
 وأضغاث أيامى ، الغابرات
 ويفمر روحى ضياء ، رفيق
 وتسمنى هاته الكائنات
 وترقص حولى أمان ، طراب
 كأنى لم أبل حرب الوجود
 من الذكريات التى لا تبيد
 وفيها الشقى ، وفيها السعيد
 تكلمه رائعات السورود
 رقيق الأغاني ، وحلو النشيد
 وأفراح عمر خلى ، سعيد (٢)

أفراح غامرة لا شك ...

أراك فتخفق أعصاب قلبى
 ويجرى عليها الهوى ، فى حنو
 فتخطو أناشيد قلبى ، سكرى
 وتملؤنى نشوة ، لا تحسد
 أود بروحى عناق الوجود
 ويليل يفر ، وفجر يكر
 وتهتز مثل اهتزاز الوتر
 أنامل ، لدنا ، كرتب الزهر
 تغرد تحت ظلال القمر
 كأنى أصبحت فوق البشر
 بما فيه من أنفوس ، أو شجر
 وغيم ، يوشى رداء السحر (٣)

ان الشاعر لم يعد من طين ... من لحم ودم ... جماعه الآن روح
 شفافه ... هفافة مجتحة ... أثر يهفو الى الليل والفجر والغيم والشجر .

ومن عجب أن هذا الفن لم يسلم من الغبن فكاتب كالأستاذ فروخ
 لم يكده يسلم فى ص ١٨٨ بأن الغزل فن عظيم عند الشبابى ، حتى ندب فى
 الصفحة المقابلة ص ١٨٩ وقال (أكثر هذا الغزل عادى صريح ، ضعيف
 الخيال والبناء ، كثير التقليد) (٤) .

وفى ختام فصل (الغزل عند الشبابى) يقول الناقد (ان كثيراً من
 الذين أحبوا حباً صادقاً ثم أصابتهم صدمة فى حبههم هذا قد انقلبوا

(١) صلوات فى ميكال الحب ص ١٢١ - ١٢٣ .

(٢) الديوان - قصيدة « أراك » ص ١٢٥ .

(٣) الديوان - قصيدة « أراك » ص ١٢٦ .

(٤) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ عمر فروخ .

منغمسين في الملذات ضالين في شعاب الهوى مهتكين ، ويبدو أن الشابى
- مما ترى من شعره على الأقل - كان من هؤلاء (١) .

هكذا كانت بداية الفصل ، وهكذا كان الختام ! وفى أى موضوع ..
فى الغزل الذى يعده الناقد أحد فنى الشاعر العظيمين (٢) . والذى يعد
الأستاذ محمد فهمى أحد قصائده فيه ، قصيدة « صلوات فى هيكـ
الحب » (عروس قصائد هذا الشاعر ، بل عروس جميع القصائد الغزلية
فى الشعر العربى) . تلك القصيدة التى يراها الأستاذ التليسى بحق
(أرفع صلاة توجه الى امرأة فى أدبنا العربى ، قديمه وحديثه) (٣)
ولكنه الأستاذ عمر فروخ .

ولكن هذا الحب الذى طار به على أجنحته الى آفاق من نور ، ليست
من طبيعة الناس ولا هى من دنياهم .. هذا الحب نفسه استولت عليه
السماء ، فظل هناك وأقفر منه يد الشاعر .. ولما ريع بالقدان ، هوى
على الأرض خطاما ، فيه دماء من روح تسخو بالدمع ، ولا تكف عن ذكر
الحياة والموت .. الحياة التى تعيش فيها ممتحنة بالجراح ، والحياة التى
أصبحت ذكرى .. والموت الذى رآته رأى العين ، يطبق عليها وينتزع
منها حبيبها ، ويمضى هو به ، حين يترك لها الشرود والدموع ، والزفرات
المحرقة ، والعذاب . ولكنه - على بشاعته - حين تركها جمرة تتلظى ،
ضمن لها الوقود الذى يحفظ عليها الوهج والضوء ، ومعانى الحياة ..
فان للحياة والموت فى شعر الشابى صدى بعيدا ، جعلهما ظاهرة من
الظواهر الكبرى فى شعره ..

فاذا انقطع هذا الفصل هنا فلأنه سيتصل فى فصل (الحياة والموت
فى شعر الشابى) .. سيتصل فى أكثر من موضع ، فان حب الشاعر
بما اكتنفه من وجدان وفقدان ، ألهمه الكثير من حكمة الحياة والموت ،
مما يلقي ظلالا على فصول أخرى أيضا غير فصل (الحياة والموت) ..
كان حبه حيا وميتا ، مفتاح الكثير من شعره .. امض معى ..

(١) المصدر السابق ص ١٩٩

(٢) المصدر السابق ص ١٨٨

(٣) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسى ص ١٣٥

الحياة والموت فى شعر الشابى

تقول الشاعرة نازك الملائكة : (ان مظاهر عشق الشابى للموت تنتشر عبر شعره) . (١) • ويلتقى مع نازك كاتب آخر يرى الشاعر مقبلا على الموت اقبالا ايجابيا واعيا ، راجيا أن يجد فى صدره الراحة من هذا العالم المظلم) (٢) ••

وكاتب يقول (ان أبا القاسم ما انفك يحيى فى شعره ، مشكلة الموت باعتبار أن الموت ينقذه من الشقاء ، ويفتح فى وجهه أبواب الجمال السرمدى • وبذلك أيضا يتضح لنا أن تشاؤم أبى القاسم بالحياة انما ينطوى على تفاؤل بما بعد الحياة • وبما أن الوجود السرمدى ، يمثل القيم القصوى من حيث الحقيقة والجمال ، فان تفاؤل أبى القاسم به ، يحسّر تماما معنى تشاؤمه بالحياة البشرية) (٣) •

وقد قرأت ديوان الشابى قراءة مستأنية دارسة ، فلم أر الا استعلاء فقط •• عندما أيقن أنه سيخترم سرما ، حاول أن يصرف نفسه عن مراة الكأس أو يهون هذه المראה على الأقل •• ولكنه أبدا ما عشق الموت ، وما كان الموت ليعشق حتى ولو شقيت الحياة •• ولا أحاج هنا بالمتحرين ، فهؤلاء المنهارون لم يستحضروا الموت حبا ، أو لساذا •• ولكن ضعفا وخورا وحربا •

يا موت ! ماذا تبتغى منى وقد مزقت صدرى ؟

-
- (١) مجلة الآداب العدد السابع السنة الثانية - يوليو سنة ١٩٥٤ ص ٥
 (٢) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسى ص ١٠٢ •
 (٣) مقال « الشابى وتجربة الفجر البعيد » للأستاذ الشاذلى القليبي مجلة الندوة عدد ١٠ السنة الأولى • أكتوبر سنة ١٩٥٣ •

ماذا تود ، وأنت قد سودت بالأحزان فكري
ان كنت تطلبني فهات الكأس ، أشربها بصبر
أو كنت ترقبني فهات السهم ؛ أرشقه بنحرى
خذنى اليك ! فقد تبخر فى فضاء الهم عمري
خذنى اليك ! فقد ظمئت لكأسك الكدر الأمر (١)

ما رأيك ؟ .. ان شقاءه كله أخف بلاء من الموت ... الأمر ...

وقد رأت نازك رأيها من خلال تعبير الشابي عن الموت بأنه (ذوبان
فى فجر الجمال) من قصيدة (هكذا غنى بروميشيوس) ..

ولكن مطلع القصيدة يفسر هذا التعبير الذائب فى فجر الجمال ..
فالقصيدنة تستهل بالتحدى . تحدى العزيز المغلوب على أمره ، فهو
يحس الواقع احساسا عميقا حتى اذا برح به الألم .. الألم النفسى
خاصة ، عكس الواقع المحسوس ، كمن يخادع نفسه ليهرب من
احاسيسها . والشاعر فى هذه القصيدة له عدوان عداوتهما غير خافية
فلا جدوى للكتمان .. الداء والأعداء .. الداء يفتك به ويستل منه الحياة
بضعة بضعة ، والأعداء تقربص به لتشميت فيه .. ما حيلته فى هذا كله
ان لم يكن فى الحر استعلاء ؟ ومن طبع الاستعلاء أن يستبض الخير من
الشمر ان عاجز عن تحويله . وهكذا صنع الشاعر وكأنه يقول للأعداء :
لا تظنوا أنى ساموت موتا حقيقيا ، ينطمس معه اسمى كجسمى ، ولكنى
سأعيش رغمكم ورغم الداء ، أى سأخلد بنفى .. ان الموت ليس نقمة
تحل بى دونكم .. ان هو الا ذوبان فى فجر الجمال ..

وأقول للجمع الذين تجشموا هدمى ، وودوا لو يخر بنائى
من جاش بالوحي المقدس قلبه لم يحتفل بحجارة الفلتاء

رحم الله الشابي .. لقد كان يدوب حسرة على نفسه التى تنداح ،
على الأيام .. ولأمر ما كرر لفظة الحياة فى شعره ١١٦ مرة ..

ويرى أحد النقاد أن (الألم الذى يقطر فى كثر من قصائده الأولى ،
انما هو نتيجة لخوفه من الموت ، فلقد كان يراه شبحاً مخيفاً لا يبقى على
شئ من آمال الانسانية) (٢) .

(١) الديوان - قصيدة « يا موت » ص ٩٦ .

(٢) كتاب « الشابي وجبران » للأستاذ خليفة محمد العلي ص ١٠١ .

كانت الحياة عنده نعمة غالية ، لا يطيق أن يذكره الداء البغيض
بزوالها . آه ! لو استطاع أن يجمع عليها يده ، كما نفع عند امتلاك
جوهرة في حصرة لص مفتوح العين . . . اذن لما أفلتت من انطباق اليد
الولوع . . . ولكن لص الشاعر أمهر من كل حريص . . . انه الموت الذي
يدرك ضحيته أينما تكون ، ولو تحصنت بالبروج المشيدة . . . الموت الذي
كان الشاعر في فزع دائم منه . . . ومع الفزع حسرة دامعة . . . فالحياة
لا تعباً بذهاب ، بل تجرى في سيرها المألوف كأن لم يحدث شيء :

والدهر يدفن في ظلام الموت حتى الذكريات (١)

اذن ليس للميت عزاء حتى من ذكرى . . . يا ضيعة الشباب ،
والشاعرية ، والآمال ، والأشواق يغتالها الموت من الشاعر . . . ويقتاله
معه . . .

والموت تجفر - أينما يخطو - المقابر والحدود
وتسر بين فجاجها اللذات ، حاملة ، تميد
سكرى . . . وأشواق الورى ترنو الى الأفق البعيد
وتظل ترقص للأسى ، للهو ، أشباح الدهور
حتى يوارىها ضباب الموت في وادي الدثور
وتظل تورق ، ثم تزهر ، ثم ينشرها الصباح
للموت ، للشوك الممزق ، للجداول ، للرياح
بسمات ثغر ، حالم ، يفتر في سهو السرور
وورود روض ، باسم ، يصغى لألحان الطيور
وتظل تخفق ثم ، تشدو ، ثم يطويها التراب
قبل ، وأطيار ، تغرد للحياة ، وللشباب
وتظل تمشي في جوار الموت أفراح الحياة

هل هو إحساس خفي بمصيره العجلا ؟ عذاب لا شك . . . هذا
الإحساس ، ولكنه ككل شيء في الدنيا لا يخلو من الخير - يحفز صاحبه
في أحيان كثيرة الى الجود بذخيره نفسه سريعا . . . سريعا قبل القطف . . .
ولعل من هؤلاء الشاعر أو هو كذلك في تقديرى .

وهذا الإحساس بالقطف وبالهدر . . . بالغبن . . . بحرب الزمان . . .
كل هذا تعكسه مقطوعته (قال قلبى لاله) (٢) :

(١) الديوان - قصيدة « قلب الأم » ص ١٣٣ .

(٢) الديوان ص ١٤٦ .

ففى جبال الهموم ، أذبت أغصانى
وتغشاني الضباب • فأورقت
وتمايلت فى الظلام ، وعطسرت
وبمجد الحياة ، والشبوق غنيت
ورمت للوهاد أفنانى الخضر ،
ومضيت بالشسلى فقلت : ستبنى
وتغزلت بالربيع ، وبالفجر

(فماذا ستفعل الريح ؟) وهم ملح يطارده حتى فى نشوة الحب
يرتعد فجأة من خاطر يلوح ...

الحب جدول خمر ، من تذوقه
الحب غاية آمال الحياة ، فما
يخفى خوفه فيعلمته • • لقد صرح به وما درى أنه يرتجف فزعا
من القبر • • ما أتعبه • • انتهى الحياة فاخترم ولما يبلغ وطره من
الحياة ...

الحب غاية آمال الحياة ، أحقا هذا أم عزاء ؟

وفى معبد الحب ، تحت القصور ، تخفف الشاعر من همومه
المركومة • وأقبل على الهوى ظامًا كهفان ، ينهل منه ويعل :

• • • وسكرنا هناك • • • فى عالم الأحلام
تحت السماء ، تحت الغصون

وتسارى الوجود عنا بما فيه وغبننا فى عالم مفتون
لا تصلق فأعصابه مشدودة ، لا يخدرها شيء ودليل بيته :

ونسينا الحياة ، والموت ، والكون وما فيه من منى ومثون (٢)
أين هو النسيان ، أعنى النسيان التام الكامل ، الذى لا يتذكر
ولا يحفل بالذكر • • رحمه الله • • كان يحس دائما أنه فريسة للموت
يطارده أينما كان • • حتى فى الغاب • • حتى فى معبد الحب • •

احساس بالمطاردة أراه ، وتراه نازك الملائكة مظهرًا لعشق الشابى

(١) الديوان - قصيدة « الحب » ص ٤٥ •

(٢) الديوان - قصيدة « تحت القصور » ص ١٧٤ •

الموت ! والا فكيف يذكره (عندما يتحدث عن الجمال والحياة والشباب والأمل والربيع في قصيدة (تحت الغصون) :

فلمن كنت تنشددين ؟ فقالت : للضياء البنفسجي الحزين

للشباب السكران ، للأمل المعبود ، لليأس ، للأسى . للمنون

ولكن هذا عندي من الحاح وهم الموت عليه . . وقد تساءلت الباحثة نفسها (أكان الغرام بالموت يتصل بالوفاة المبكرة عن طريق الإيحاء على وجه ما ، أم كان نتيجة لأدراك غامض للموت المبكر الذي ينتظره في زاوية المستقبل القريب ؟) (١) .

بل خرجت عن التساؤل الى التقرير حين قالت (ولعل هذه الحقيقة تبين لنا أن نعتقد أن هذا الولع الذي صبه شعراؤنا على الموت ، كان يتضمن ادراكا باطنيا سابقا للخاتمة المبكرة ، تسوقهم اليه ملاحظتهم الخفية لانعدام التوازن بين المبدول من طاقتهم العاطفية ، والرصيد الكامل منها في كل حياة انسانية . وكان الواحد منهم كان يشعر بأنه يقتل نفسه شيئا فشيئا ، حينما يسرف في طاقة الانفعال) (٢) .

وأرى أن هذا بعينه هو الذي حملهم على تجميل الموت ليهون عليهم البذل ولعلمهم فعلوا هذا لا اراديا . . أو لعله دفعا عند من يرون انفعالاتهم (حماقة) (٣) وكأنهم يقولون لهم : لتؤد هذه الانفعالات الى الموت . . ماذا في الموت ؟ انه (ذوبان في فجر الجمال) فما لكم أنتم ؟ انه على كل حال خير من حياة راكدة آسنة عفنة ، لا حركة فيها ولا نبض ولا انتفاض . .

ولكن يظل الموت بعد هذا كله حقيقة مرة مبغضة . . عند الشباب وعندى أيضا :

حقيقة ، مرة ، بالليل ، مبغضة
الموت ، لكن اليها الورد والصبر (٤)

قد تقول : كيف يهرب الموت وهو يناديه ؟ تعال . . أليس القائل :

(١ ، ٢) مجلة الآداب - العدد السابع - السنة الثانية - يوليو سنة ١٩٥٤

ص ٦ - ٨

(٣) تقول الشاعرة نازك الملائكة : (ولا شك في أن هذا يلوح حماقة للمتوسطين

من الناس وهم أغلبية البشر . .) مجلة الآداب يوليو سنة ١٩٥٤ ص ٨

(٤) الديوان قصيدة « شكوى ضائعة » ص ١٨٧

وردد الحياة مرتق ، والموت مورده معين
ولربما شاق الردى الداجي ، وأعماق المنون
قلبا ، تروعه الحياة ، ولا تهاده السنون
ومشاعرا حسرى ، يسير بها القنوط الى الجنون (١)

كلأ يا صاح .. هذه انقباضة اليأس ، وما كان يمض هذه المضاضة
نولا شغفه المنهوم بالحياة وأفراحها

لقد هتف بالحياة ... بالأمل ... ٣١٥ مرة في ديوانه ظفرت لفظة
(الحياة) وحدها ب ١٦ موضعا .. فعينك تأخذ في لمحة مثل هذه
الألفاظ في قصيدة : الأمانى - سرور - السلام - ابتسام - نغم - الجمال
- الطروب - بهجة - نشيد - الرجاء - الأفراح - خمير الحياة - يبنى -
الحب - شوق - رقص - غناء .. أليست هذه الألفاظ لبنات الحياة البناة
الأملة الراغبة ؟ ..

حقا ، لقد ذكر الموت ١٢٥ مرة في ديوانه وهو كثير ، ولكن
الموسوس لا يفتأ يردد الوهم الذى يعاوده ..

ولو أخذنا بدلالة العدد فلا ندحه عن التسليم بغلبة الحياة على الموت
في شعوره وشعره .. ان الحياة لم تفرز ب ٢١٥ لفظا فحسب ، بل ان في
رصيدها ١٦١ لفظا آخر ، هي ألفاظ القوة والاستشراف في الديوان مثل :
مجد - يثار - الحق - الحسام - القوة - تشتعل - اليقظة - أجج - يثير
- الجسور - أجنحة - متدفع - هب - بأس - اباء - أضرم - العز ..

أليست القوة والاستشراف من معانى الحياة ؟ من مقوماتها الأصيلة
... أليست القوة والاستشراف مساك الحياة الكريمة ، على صاحبها وعلى
النفاس ؟

وهو يعترف بالحياة والأمل اعترافا صريحا سافرا :

ما كنت أحسب بعد موتك يا أبى	- ومشاعزى عمياء بالأحزان -
أنى سأطعماً للحياة ، وأحتسى	من نهرها المتوهج النشوان
وأعود للندى بقلب خافق	للحب ، والأفراح ، والألحان
حتى تحركت السنون ، وأقبلت	فتن الحياة بسحرها الفتان
واذا التشاؤم بالحياة ورفضها	ضرب من البهتان والهديان
ان ابن آدم فى قرارة نفسه	عند الحياة الصادق الايمان (٢)

(١) الديوان - قصيدة « الذكرى » ص ٥٤

(٢) الديوان - قصيدة « الاعتراف » ص ١٨٢

انها الأحزان التي تعمى الحواس .. ولكن الشاعر في قرارة نفسه
كلف بالحياة مولع .. ولا أستطيع أن أقتبل بسهولة عزو أحد الكتاب
احساس الشاعر بالغربة الى ايمانه بعالم الموت (١) ! ولم لا يكون
احساسه بالغربة وليد شعوره بالتفرد والامتياز ، الذي يجعل اندماجه
بمن حوله صعبا عليه وعليهم أيضا . فهو غريب بينهم وهم غرباء ؟

انه ينكر التشاؤم فهل هو متفائل ؟ وكيف يتفائل من يحقق به الداء
والأعداء والغبن برحيل الأحبة ؟ كيف يتفائل من يرى قومه يغطون في
سبات عميق والمظالم تتخطفهم من كل جانب ؟ كيف يتفائل من يعيش
بقلب صريع غالى بحبه ، حتى رفعه الى منازل التقديس (٢) ، فإذا به وسط
قهقهة القدر الساخر ، يوسده الثرى ويودعه التراب فيصير حفنة من
تراب ... والوداعة والجمال والشباب المنعم والرقعة ، التي يكاد يرف
الورد منها في الصخرة الجلمود ، والخطو الموقع كالنشيد والصوت الحالم
كرجع ناي بعيد .. أين أين ؟ كل هذا أيضا حفنة من تراب ؟ علام
التفاؤل . إذن ؟ وما جدوى الحياة نفسها ؟ في رأيه على الأقل ..

لقد عاش الشاعر فهو ابن الحياة والأم حبيب وان عنفت ، جميلة
وان شأمت . ومات الشاعر في حياته أو مات بعضه في أبيه وحبيبته
فالموت غريمه .. وقد خلق شاعراً فامتلاً شعره بالحياة والموت ، وإذا أنت
في حضرته تتزاحم على سمعك أصوات مختلفة ، فبينما الضحكات ترن
في جانب من الديوان ، اذا بالنحيب يعلو في جانب آخر .. هنا دمعة
وشهقة وزفرات ، وهناك روعة وخفقة وبسمات . ولا أحسب أحدا تجتمع
له العوامل التي اجتمعت للشابى ثم يفعل غير ما فعل .. ويلتقى بى
الأستاذ خليفة محمد التليسى هذه المرة فيقول :

(على أن الشابى ظل عميق الحب للحياة ، وليس تشاؤمه الا صورة
من صور النقمة على الأوضاع المريضة التي كان يعيش فيها مجتمع . وهو
ينطوى على الرغبة في الحياة الرفيعة الخالقة المبدعة . أكثر مما ينطوى على
كراهية الحياة) (٣)

(١) اقرأ ص ١٠٣ - ١٠٤ من كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسى .

(٢) أنت من ريشة الاله ، فلا تلتقى بفن السما لجل العبيد

أنت لم تخلقى ليقربك الناس ولكن لتعبدى من بعيد

الديوان - قصيدة « أيتها الحاملة بين العواصف » ص ١٥٥ .

(٣) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسى ص ١٠٩ . ١١٠ .

(ومجمل الرأى أن الكآبة التى تطغى على شعر الشابى انما صنعها عصره بما كان يشيع بين شبابه من ألوان الحزن ، وصنعها مزاجه الموزون وببئته التى كانت ترسف فى تقاليد الأجيال الغابرة ، وقراءاته الرومانسية ونرضه العضال) (١) .

وبقول كاتب آخر :

(لعل الأقرب إلى الواقع أن نقول : ان الشابى كان يجب الحياة جبا مثاليا رفيعا ، كما يجب الناس جبا خالصا ساميا ، ويرنو الى الكون وما فيه بعين ملؤها الشوق الصادق والتعبد النزيه) (٢) .

ولكن واقع الشابى المزدوج لابد أن يخلف انطباعاته على نفسه ورأيه وشعره ، لابد أن يكون له فلسفته الخاصة به أو نظرات فى الحياة والأحياء ، وان كان يحلو للبعض أن يطابق عليها « فلسفة » بمعنى مذهب ، بل غلا بعضهم فأضفى عليها صفة التمام والكمال . فالأستاذ الحليوى يرى فى دهشة العجب ، أن الشابى (ترك لنا فلسفة تامة متصلة الأطراف ، على قصر حياته ، وقصر الزمن الذى اشتغل فيه بالأدب ، وعجيب حقا أن يصل المرء بمحض مجهوده الفردى وعقله المجرد ، فى ماى عشر سنوات الى بناء فلسفة فى الحياة تامة الحلقات ، لم يقلد فيها الا نفسه ، ولم يصف الا ما رأى وما جرى حوله من الأحداث ، وما اغترقه فى قلبه ، فى ذلك الأبد الصغير ، من دنيا محجبة وظاهرة ٠٠) (٣) .

هنا غلب الصديق الباحث العلمى فى الناقد ، فليست نظرات الشابى فى الحياة والحى ، فلسفة بمضمونها الصحيح ، ولكنها تأملات داعية ، ونفاذ فحسب ، لا فلسفة قائمة متكاملة أو تامة الحلقات ، كما يغالى الأستاذ الحليوى فى تقديره ٠٠

ويقسم كتاب الحركة الأدبية والفكرية فى تونس الشعر الوجدانى فيها الى مسلكين ٠٠٠ المسلك الحكيم والمسلك الغبىلى . فيتخذ (للمسلك الحكيم مثالا أبا القاسم الشابى) (٤) .

وأدنى الصواب عندى ما يراه الأستاذ محمد بدوى فى فلسفة

(١) المرجع السابق .

(٢) مقال « الشابى وهذه الحياة » للأستاذ عبد الله شريط - مجلة الندوة عدد ١٠ السنة الأولى أكتوبر ٥٣ ص ١٠ .

(٣) كتاب « مع الشابى » للأستاذ الحليوى ص ٨٥ - ٨٦ .

(٤) كتاب « الحركة الأدبية والفكرية فى تونس » للشيخ محمد الفاضل أبى عاشور .

اقرأ ص ١٧٨ .

الشبابى الخاصة - والفلسفة هنا كما سترى بمعنى الرأى . . الاتجاه
الشخصى . . . يتركب (من عنصرين هما مزاج السرور والأحزان ، أو
بتعبير آخر نشوة اللذة التى تعقبها مرارة الألم) (١) .

أى أنه شاعر يعيش بالشعور وللشعور كما يقول . . فهو يرسل
الحكمة كما يرسل الدمع كما يفتر عن الابتسامه . . . وراء كل حالة
شعور ما يلون رأيه وتفكيره . . . وكثيرا ما تكون له نظرات نافذة
وآراء واعية ، أنصبتها التجربة وطول الفكرة ، على طرأة السن وفوعة
الشباب :

ما قدس المثل الأعلى وجملته فى أعين الناس إلا أنه حلم
ولو مشى فيهم حيا لحطمه قوم ، وقالوا بخبث : (انه صنم)
لا يعبد الناس إلا كل منعدم ممنح ، ولبن حاباهم العدم
حتى العباقرة الافذاذ ، حبهم يلقي الشقاء، وتلقى مجدها الرمم (٢)

ويطيب له أحيانا أن يرسل الحكمة على طرأة عهده . ولكن لعل
له فى التجربة عمرا ثانيا يمهده فيقول :

خذ الحياة كما جاءتك ميتسما فى كفها الغار ، أو فى كفها العدم
وارقص على الورد والأشواك متثدا غنت لك الطير ، أو غنت لك الرجم
واعمل كما تأمر الدنيا بلا مضض والجم شعورك فيها ، انها صنم
فمن تألم لم ترحم مضاضته ومن تجلد لم تهزأ به القمم (٣)

بل ويصطنعها أحيانا كقوله :

إذا صغرت نفس الفتى كان شوقه صغيرا ، فلم يتعب ، ولم يتجشم
ومن كان جبار المطامع لم يزل يلاقى من الدنيا ضراوة قشعم (٤)

ومن شعره الفلسفى قوله :

ضحكنا على الماضى البعيد ، وفي غد ضحكنا على الماضى البعيد ، وفي غد
وتلك هى الدنيا ، رواية ساخر وتلك هى الدنيا ، رواية ساخر
ولو مشى فيهم حيا لحطمه عظيم ، غريب الفن ، مبدع آيات
ووسط ضباب الهم، تمثيل أموات ووسط ضباب الهم، تمثيل أموات
وكان يؤدى دوره . . وهو ضاحك على الغير، مضحوك على دوره العاتى (٥)

(١) كتاب « الشاعران المتشابهان » للأستاذ محمد بدرى ص ٢١ .

(٢) الديوان - قصيدة « الناس » ص ١٧٨ .

(٣) الديوان - قصيدة « السعادة » ص ١٥٦ .

(٤) الديوان - قصيدة « متاعب العظيمة » ص ١٤٦ .

(٥) الديوان - قصيدة « الرواية الغريبة » ص ١٦٤ .

ومن هذا الطراز قصيدته (شكوى ضائعة) .

وفي سهمة من حيرته وشروده يتساءل كالأدهل :

نحن نمشي ، وحولنا هاته الأكو
ن نمشي .. ، لكن لأية غايه ؟
نحن نشادو مع العصافير للشمس ،
وهذا الربيع ينفخ نايه !
نحن نتلو رواية الكون للموت
ولكن ماذا ختام الروايه ؟
هكذا قلت للرياح فقالت :
« سل ضمير الوجود : كيف البدايه ؟ »

وتغشى الضباب نفسي ، فصاحت
في ملال مر : « إلى أين أمشي ؟ »
قلت « سيري مع الحياة .. » فقالت :
« ما جنينا ، ترى ، من السير أمس ؟ »
فتهاقت كالشمس - على الأرض ،
وناديت : « أين يا قلب رفشي ؟ » (١)

وقد أورثه هذا كله مرارة ، تطفح حينما سخطا سافرا ، وأنا مقنعا ،
تلفه سخرية تكشف منه أكثر مما تدارى ...

أظمت مهجتي الحياة ، فهل يوما تبيل الحياة بعض أوامي ؟
يا رفيقي ! ما أحسب المنبع المنشود الا وراء ليل الرجاء (٢)

احسب ان طال انتظاره بليل حتى ظن الفجر ضل طريقه في حلك
الظلام . وخاض يوما الزحام مع الجموع المتدافعة ، وبلا الحياة والناس ،
وخبر الأشياء ، فخرج من التجربة يلهث وهو يتمتم :

كان ظني أن النفوس كبار فوجدت النفوس شيئا حقيرا
لوثته الحياة ، ثم استمرت تبذر العالم العريض شرورا
فاحصدوا الشوك .. يا بنيها وضجروا واملأوا الأرض والسماء جبورا (٣)

(١) الديوان - قصيدة « في ظل وادي الموت » ص ١٤١ .

(٢) الديوان - قصيدة « يا رفيقي » ص ٧٣ .

(٣) قصيدة « أبناء الشيطان » ص ١٢٠ .

ويبدو أن التجربة الأولى أعقبتها تجارب أخرى ، حتى عم غضبه فقال :

لو كان هذا الكون في قبضتي ألقيته في النار ، نار الجحيم
ما هذه الدنيا ، وهذا الوري وذلك الأفق ، وتلك النجوم ؟
النار أولى بعبيد الأسى ومسرح الموت ، وغش الهموم (١)

ولكنك تحس مع شعره أنه ليس متشائما ، بمعنى أنه مقفل النفس ، لا يرى إلا حللكا من ظلام ، ولكنه مجرد سخط على الواقع لبعد الفرق بينه وبين المثال الذي يشتهي شاعر مثله ، مملوء بأشواق الحياة ، كما تعلن هذه الأبيات :

كل ما هب ، وما دب ، وما نام ، أو حام على هذا الوجود
من طيور ، وزهور ، وشذى وينابيع ، وأغصان تמיד
وبحار ، وكهوف ، وذرى وبراكين ، ووديان ، وبيد
وضياء ، وظلال ، ودجى وفصول ، وغيوم ، ورعود
وثلوج ، وضباب عابر وأعاصير ، وأمطار تجود
وقعالم ، ودين ، ورؤى وأحاسيس ، وصمت ، ونشيد
كلها تحيا بقلبي ، حرة غضة السحر ، كأطفال الخلود (٢)

ولكنه كما يقول الأستاذ عبد العزيز عتيق :

(كان شديد الانحاء على الجمود والجامدين ، والجور والجائرين ، كما كان شديد البرم بالحياة والسخط على ما فيها من المتناقضات ، سخطا كان يدعوه أحيانا الى الثورة على الوجود والناس ، واليأس من صلاحهم ! حتى اذا ما انتهت ثورته اوى الى دنياه ، يتلمس فيها العزاء ، يتلمسه في النجوى العفيفة ، والزنبقة الحاملة ، والجداول النائمة ، والجبال الوقورة ، والأغوار الرهيبة ، والمروج الخضراء ، والرياض الفيحاء ، والآجام المتأشبة ، والسواقي النائحة ، والنجوم اللاغية ، والليل الغريب . أجل يتلمس العزاء في كل أولئك وغيره ، ثم يخرجنا لنا فنا خالصا ، وشعرا تهوج فيه العواصف وترخر ، وتتعانق فيه الرؤى والأحلام) (٣) .

وكان الشسابي لا يكتف حنقه على الجاهدين هؤلاء ، بل كان يعلنه غير هياب :

(١) قصيدة « زوبعة في الظلام » ص ١٨١ .

(٢) قصيدة « قلب شاعر » ص ١٨٣ .

(٣) مجلة الامام - المبد الخامس - السنة ٣٢ في ٣١/١٢/٣٤ ص ٣٠ .

كل قلب حنن الخشيف ، ومنا مل من ذل الحياة الأرذل
كل شعب قد طغت فيه الدماء دون أن يثار للحق الجلي
خله للموت يطويه ! ٠٠ فما حظه غير الفناء الأناكل (٣)

سخرية ولكنها من الشعراء هذه المرأة :

وفى المهامه أشلاء ، ممزقة تتلو على الفقر شعرا ، ليس ينتحل (٢)
وذاك لون من الشعر لا ينتحل ، لأنه مكتوب بالدم ومنظوم من
العمر كله ، فالانتحال هنا يكلف عزيزا ٠٠ يكلف الحياة نفسها ٠٠ ومن
هنا جاء الزهد فيه .

ومن أدواته في السخرية « اللفظ » أيضا :

رباه ! كم من فتاة ، تشكو الحياة وتبكي ،
ومعدهم ، بواته الدهور مقعد ضحك
تأمل (بواته) هذه ، وإذا كان من المسلم به أن مقعد الضحك
لا يبوأ ولكن يساق صاحبه اليه قسرا عرفت الى أى مدى يسخر
الشاعر ٠٠ من كل شيء ٠٠٠

ولكن هل امتدت سخريته هذه الى (الدين) ؟

لا يهولك السؤال ، فلم يكن ليخطر لي ، وقد قرأت شعره حرفا
حرفا فلم يأخذ عيني دليل ولا شبهة ٠٠٠ ولكن يدفعني الى الخوض في
الموضوع ، ناقد يرى الشبابي قليل الاحتفال بالدين كله (٣) .

بل يتجاوز هذا القول بأن الشبابي (غير متقيد بشيء منه - في
شعره - ثم هو ينحو في تشابيهه واستعاراته أحيانا منحى لا يقره
التوحيد ، أو هو زندقة في رأى النقاد القدماء . يتكلم الشبابي عن المرأة
فيقول مثلا :

أنت قدسى ، ومعبدى ، وصباحى ، وربيعى ، ونشوتى ، وخلودى
يا ابنة النور ، اننى أنا وحدى من رأى فيك روعة المعبود
وحرام عليك أن تسحقى ، أما ل نفس ، تصبو لعيش رغيد
فالاله العظيم لا يرجم العبد اذا كان فى جلال السجود (٤)

(١) الديوان - قصيدة « خله للموت » ص ١٤ .

(٢) الديوان - قصيدة « غرفة من يم » ص ١٧ .

(٣) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ فروغ ص ١٦٤ .

(٤) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ فروغ ص ١٦٦ .

أى زندقة ؟ ... شاعر يرى فى الجمال مظهر قدرة الله ... يرى فى الجمال روعة المعبود ... أتكون الزندقة فى البيت الأول (قدسى ... معبدى) واضح من الرفيف الشعرى أنه تعبد لا عبادة حقيقية دينية ... أتكون الزندقة فى البيت الأخير ؟ ... ان العرض لله هنا فيه تعظيم ، فهو يتوسل بالعظيم المتعالى بأن يجعل منه مثالا يرجو الحبيب أن يتطلع اليه ويتأثر به - وقد سبقه مع اختلاف فى الموضوع والجو الشعري ، أبو تمام وقصته مع أحمد بن المعتصم معروفة .

يقول الشابي فى إحدى وطنياته :

لست أبكى لعسف ليل طويل ، أو لربع غدا العفاء مراحه
انما عبرتى لخطب ثقيل ، قد عرانا ، ولم نجد من أراحه
كلما قمام فى البلاد خطيب ، موقظ شعبه يريد صلاحه
أحمدوا صوته الالهى بالعسف ، أماتوا صدادحه ونواحه (١)
ترى هل وصف الصوت « بالالهى » هنا يدخل أيضا فى باب استهتاره
بالدين ؟

ان الخطيب الموصوف فرض شعري لا انسان معروف بذاته ... ومن
ولع الشاعر بوطنه يرى صوت المصلحين وكأنه صوت من السماء ...
اذن أوصافه المنسوبة الى الله أقرب الى العقل أن تكون من شدة حبه
للمشبه ... ومن شدة تعظيمه للمشبه به .

ان العمر - أقصد عمر الناقد أيضا - أغلى وأضيق معا من تبديده
فى تصيد حرفية لفظ هنا أو هناك ... وحرام فى شرعة الدين ، وفى
شرعة الوطنية ، وفى شرعة القومية العربية العامة ، أن نشوه أصوات
المقاومة فى نواحي الوطن العربى ، بأحداث لغط قصاراه أن يشوش ...
ولكن هيهات أن يحول دون نفاذها الى القلوب ... والى التاريخ ...
تاريخ المقاومة الشعبية فى أفريقيا ...

ماذا على الشابي ، حتى يكون موقفه فيما يتعلق بالدين فى أشكاله
المختلفة ، واضحا لا يحتاج الى تعليق كما يقول الناقد ؟ الا أنه قال :

ملء الدهر بالجداع ، فكم قد ضلل الناس من امام وقس !
وهل نقده للامام والقس ، معناه نقس للاسلام والمسيحية ؟ ان
الأديان كلها يا صديقى صفاء وسلام وخير ومحبة ، ولكن معتنقيها أو

(١) الديوان - قصيدة « تونس الجميلة » ص ١٣ .

بعضهم على الأقل شيء آخر ٠٠٠ أو ماذا في رأيك ؟ هل جميع المسلمين
والمسيحيين كما شاء الاسلام والمسيحية لهم أن يكونوا ؟ اقرأ في
وجهك كلمة (لا) ٠٠٠ اذن فما العجب في بيت الشابى ؟ ماذا يرييك
من المسكين حتى (تبدى) عينك في شعره (المساويا) ؟ ٠٠٠

على أنه مما يهون النقد أن صاحبه لا يستقر على رأى بعينه ، فكم
ناقض نفسه في أكثر من موضع وموضوع ٠٠٠ فهو بعد أن رمى الشابى
مثلا بالنزقة من وراء ستار القدماء ، راح يقول :

(ان الشابى وان كان قد أدار ظهره للمدين ، لم يكفر بالله ولم يكن
زنديقا ، بل ظل له شيء من الايمان « بالعظيم المجهول » .

ان من أصغى الى صوت المنون
وَصَلَّى
وابتسمات الحياة الساخرة
- بين أزهار الربيع الساخرة
ليس تستهويه الحان الطيور
عن جلال الله

أما في المقطعين التاليين ، فنرى أن الشابى نفسه ، قد تحلل من
مدلول الالفاظ الدينى تحللا تاما ، ورفع المحبوب الى مكان الألوهية ، أو
أنزل الله الى درك المحبوب المادى (١) .

اذن كفر أو تزندق على الأقل ، وهذا مما نفيت عنه منذ قليل ٠٠٠٠
مسكين الشابى اذ قال :

في فؤادى الرحيم	معبود	للجمال
شيدته	الحياة	بالرؤى والخيال
فتلوت الضلال	في خشوع	الظلال
وحرقت البخور	وأضأت	الشموع

هل تفهم من أبيات الشابى هذه ما فهمه الناقد ؟ حتى ولو تعنت
وحملت الالفاظ أكثر من مدلولها ؟ لا أخالك تفعل ٠٠٠ وليس بضائقك
أن تعلن عجزك التام عن اصطناع طريقة الناقد ذات الأغوار ٠٠٠

(وأشد اغالا في التحلل من ذلك ، ما نجده في قصيدته « صلوات
في هيكل الحب » قال يخاطب محبوبته ، وقيمتها بمقام الألوهية ، في

(١) كتاب « شاعران معاصران » للاستاذ فروغ ص ١٧٢ .

القدس والعبادة ، وفى القدرة والارادة ، وفى الشفاعة والزلفى (١)

انت أنشودة الأناشيد غنا
انت ، قدسى ، ومعبدى ، وصباحى
يا ابنة النور ، اننى أنا وحدى
فدعيني أعيش فى ظلك العبد
عيشة الناسك البتول ، يناجى الـ
وامنحني السلام والفرح الرو
وارحميني فقد تهدمت فى كـ
فحرام عليك أن تسحقى آ
منك ترجو سعادة لم تجدها
فالاله العظيم لا يرجم العبد

ك إله الغنىاء ، رب القصيه
وربى ، ونشوتى ، وخلودى
من رأى فيك روعة المعبود
ب ، وفى قرب حسينك المعبود
رب فى نشوة الدهول الشديده
حى ، يا ضوء فجرى المنشود
ن من اليأس ، والظلام مشيد
مال نفس ، تصبو لعيش رغيد
فى حياة الورى وسحر الوجود
إذا كان فى جلال السجود



كلنا نعبد الجمال أيها السيد ٠٠٠ ومن أين أتيت بالقدرة والارادة ،
وسائر الصفات الالهية ، التى تزعم أن الشاعر خلعها على حبيبته ؟ أترك
شعراء الغزل مثل هذا وأكثر منه ؟ ودعك من الشعراء ٠ أليس كل
إنسان له قدرة وقدرات و ارادة والا فقيم حسابها إذا كان مهلوب القدرة
والارادة ؟ ٠٠ وهل قدرة الجيب على الإسعاد ، تعنى أنه إله أو شبيه ٠٠ ؟
تعنى أن قدرته كملك التى ندين بها لله الذى لا يعرف لقدرته أو رحمته
أو علمه حدود أو نهايات ؟ أحسب أن الناقد لا الشاعر هو الذى أساء
الى الله حين أنزله هذا المنزل ، أو استحضره فى هذا المقام ٠٠٠

ان النقد اذا كان تبصيرا أو هداية فما أحرانا أن نقول للسيد الناقد
(ياهادى الطريق جرت) ٠٠٠ وما أقلها بعد الذى قال ٠٠٠



سأل الأستاذ الخليوى الشابى ، فى إحدى رسائله رايه فى بيت
قاله :

حاملا كالاله قلبا كبيرا فيه ما فى الوجود من آكوان (٢)

(١) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ عمر فروخ ص ١٧٢

(٢) مجلة الفكر - السنة ٢ العدد ١ أكتوبر سنة ١٩٥٦ هـ ص ٣٠

فجاءه جواب الشابى فى هذه السطور :

(ان الفنان يا صديقى ، لا ينبغي أن يصغى لغير ذلك الصوت القوى العميق الداوى فى أعماق قلبه . . أما اذا أصغى الى الناس وما يقولون ، وسار فى هاته الدنيا بأقدامهم ، وراها بأبصارهم ، وأصغى اليها بأذانهم ، فقد كفر بالفن ، وخان رسالة الحياة . . .

ولو شئت أن أسوق الأبيات التى لى ، على غرار بيتك هنا ، فى التشبيه بالاله والآلهة لأكثر ، وخرج بى القلم عن غايته ، ولكنك سترى ذلك فى الديوان ان شاء الله : « واننى لأعشق ايهانا بالله من كل أحد حينما أعبر بهاته التعابير الكافرة ، فى نظر أولئك الناس . فالألوهية وما تعرف منها هى رمز للمثل العليا ، التى نصبو اليها بأرواحنا ونشخص اليها بأبصارنا فى هاته الحياة . . ولذلك فإذا أردنا أن نعبر عن معنى نحسن له بجلال المثل الأعلى وسموه فانما سبيلنا فى ذلك أن تفرغ عليه رداء الألوهية التى هى أسمى ما تتصوره الانسانية من جمال المثل الأعلى وجلاله (١) .

الحياة . . . الموت . . . كلاهما جنى على الشابى ، فلا الحياة مدت له من أسياؤها . . ولا الموت تباطأ وأمهله ، حتى يقضى وطرا . . أو لعلهما أحسنا اليه فلولا أن ألهمته الحياة بأشواقها ووخرته بأشواقها ولولا أن نازله الموت مرتين ظافرا من المعركتين بأبيه وحبيبه . . ثم ظل يطارده فى الشعور وفى الخيال . . . لولا هذا كله فيما يبدو ، لما عزف نايه ، وبكى وتره ، وضم ديوانه هذه الأنغام التى نعيش فى جوها وصداها الى يومنا هذا . . . ليته يدرى أننا الى اليوم نعيش فى ذكره . . .

القسم الثاني

فن الشاعر

ديوان الشابى

أنت يا شعر ، فلذة من فؤادى
فيك ما فى جوانحى من حنين
فيك ما فى خواطرى من بكاء
فيك ما فى مشاعرى من وجوم
فيك ما فى عوالمى من ظلام
فيك ما فى عوالمى من نجوم
فيك ما فى عوالمى من ضباب
فيك ما فى طفولتى من سلام
فيك ما فى شببى من حنين ،
تغنى ، وقطعة من وجودى
أبدى الى صميم الوجود
فيك ما فى عواطفى من نشيد
لا يغنى ، ومن سرور عهيد
سرمدي ، ومن صباح وليد
ضاحكات خلف الغمام الشرود
وسراب ، ويقظة ، وهجود
وابتسام ، وغبطة ، وسعود
وشجون ، وبهجة ، وجمود (١)

نحن الساعة أمام ديوان فيه : حنين ، وبكاء ، ونشيد ، ووجوم ،
وسرور ؛ وظلام ؛ ونور ؛ ونجوم ، وضباب ، وسراب ، ويقظة ،
وهجود ، وسلام ، وابتناس وشجون ، وبهجة ، وجمود ... ديوان
حافل لا شك • وهو خليق باحتفال ؛ لأنه فلذة من فؤاد صاحبه •
قطعة من وجود انسان • لا مجرد ألفاظ وقواف قد تطرب أذنك
بالرنين ، ولكنها لا تتجاوز الأذن الى ما بعدها ، فهي لا تملك قوة الخلق ،
ولا شعلة الروح ، التي تهبها القدرة على اسعادك وتجديدك والتخليق
بك

كتب الشابى الى صديق يقول :

« الشعر يا صديقى » تصوير وتعبير « تصوير لهذه الحياة التي

(١) الديوان قصيدة « قلت للشعر » ص ٨٦ •

تمر حواليك: مغنية، ضاحكة، لاهية، أو مقبضة، واجمة باكية،
أو وادعة حاملة، راضية أو مجدفة، نائرة، ساخطة، أو تصوير
لآثار هذه الحياة التي تحس بها في أعماق قلبك، وتقلبات أفكارك
وخلجات نفسك ورفرفة أحلامك وعواطفك... وتعبير عن
تلك الصور أو هاته الآثار بأسلوب فني جميل مأوّه القوة والحياة» (١)

وهو يقهم رسالة الشعر ومهمة الشاعر فهما قويما، فمقياسه أن
ان تنظر في الشعر (هل هو من ذلك النور الذي يوسع أفق الحياة في
نفسك ويجعلها تحس بتيارات الوجود، أكثر مما كانت تحس، وتدرك
من معانيه وأصواته أكثر مما ألفت أن تدرك، وينسبك وجودك الانساني
لحظة، لتستغرق في عالم الجمال المطلق الذي يخلقه الشاعر حواليك،
ويسبغ منه على نفسك) (٢).

الأستاذ محمد الحبيب شلبي يؤكد لنا أن أبا القاسم الشابي
(أعظم شاعر لا في الشمال الأفريقي فحسب، بل في الشرق العربي
بأجمعه، وجميع بلاد الناطقين بالضاد) (٣).

ومن يقرأ كتاب (كفاح الشابي) للأستاذ أبي القاسم كرو،
تأخذ عينه كثرة الأحكام القاطعة الجامعة المانعة بأولوية الشابي في
الشعر العربي في أكثر من موضوع واتجاه (٤).

ويراه صاحب كتاب (الحركة الأدبية والفكرية في تونس) آية
الشعر في هذا الطور، وأن منهجه السائر على خطة محددة مدروسة
مرتبطة بنزعته التجديدية العامة، هو كمال مثال للمنهج الشعري
الجديد (٥).

وليس هذا من قبيل التعصب الوطني، فان مصر أيضا تؤمن على
هذا الكلام فيعد الدكتور شوقي ضيف، الشابي (فلتة من فلتات
عصرنا الحديث في حدة الاحساس وعمقه ودقته) (٦).

وهو عند الأستاذ خفاجي () أحد أولئك الأفاضل العالميين الروح،

(١) كتاب « الشابي » للأستاذ أبي القاسم كرو ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٤١.

(٣) مجلة « الانام » العدد الخامس السنة ٣٢ الصادر في ١٢/٣١/٣٠.

(٤) كتاب « كفاح الشابي » اقرأ الصفحات ٧١، ٨٣، ٩٢، ١١١.

(٥) كتاب « الحركة الأدبية والفكرية في تونس » للشيخ محمد الفاضل أبي عاشور

ص ٢٧٨.

(٦) كتاب « دراسات في الشعر العربي المعاصر » للدكتور شوقي ضيف ص ٥٠.

الذين لم يبهروا النقد الموضوعى فحسب من ناحية الطاقة الفنية القوية الغنية ، بل بهروا كذلك مقاييس المثالية الرفيعة من خلقية ووطنية وإنسانية ، وكانت معجزتهم فى الازدواج بين هذه المزاي وفى الانسجام التام بينها ، وهذا قلما يكون الا للصفاة الموهوبين ٠٠٠ (١) .

بل يرى أن الشبابى (بضربه المثل الأعلى ، صار يحفز النقاد والمجلات الآن الى الاهتمام بأشعار الشرنوبى ، والفيتورى ، وتاج السر ، وأمثالهم) (٢) .

ولكنى مع احترامى لهؤلاء النقاد جميعا ، ولغيرهم أيضا ممن يخالفونهم فى رأى ، أرى ديوان الشبابى أوقع حكما وأوفى شاهدا

لقد دار النقادون حول جمال التعبير والتصوير وعمق الاحساس . .

فهل قالوا كل ما يمكن أن يقال ؟ ٠٠٠ هذا أحدهم يقول :

(اننى لم أقدم كل ما كان يجب أن يقدم من حياة الشبابى وجوانب شاعريته ، وإنما بذلت جهدى فى أن أعطي للقارئ صورة واضحة المعالم ، كاملة الخطوط ، عن حياة الشبابى وبيئته ، وجوانب أخرى تتصل بهذين اتصالا وثيقا مرة ، وغير وثيق مرة أخرى ٠٠ (٣) .

على أنى لا اعتقد أننى أسعد حظا من الباقين ما دامت آثار الشبابى جميعا لم تتواجد عندى ٠٠٠ ان للشبابى عدا ديوانه (أغاني الحياة) كتابين :

(الخيال الشعري عند العرب) (٤) و (صفحات دامية) .

ومن الروايات :

• المقبرة

ومن القصص :

١ - جميل وبثينة .

٢ - قصة (روح نائرة) .

ومن المسرحيات :

• السكر

• وسائل (٥) .

(١ ، ٢) كتاب « مذاهب الأدب » للأستاذ عبد المنعم خفاجى ص ١٦٧ ، ص ١٦٩ .

(٣) كتاب « الشبابى » للأستاذ أبى القاسم كرو ص ٧ .

(٤) أقرأ كتاب « الحركة الأدبية والفكرية فى تونس » ص ١٧٠ .

(٥) وهى مجموعة رسائله الى أصدقائه أبى شادى ، والحليوى ، وإبراهيم ناجى

وغيرهم . زاخرة بأرائه فى الأدب والحياة . . مبعثرة على قيمتها لم تجمع أبدا .

ومذكرات (١) ومحاضرات (٢) ومقالات ودراسات (٣) .

فأني لى هذا كله لاكتب عنه كتابا جامعاً ماوسعنى الجهد ؟

وأكثر هذه المؤلفات مجهول مصيرها اليوم . كما أن بعض الأدباء التونسيين المعاصرين للفقيه يعتقدون بوجود آثار أدبية أخرى ، غير تلك التى تحدثت عنها . وهم يظنون أنها لا تزال باقية فيما خلفه من تراث أدبى عند أهله وأقاربه (٤)

ولكن رغم الضياع تبقى دلالة هذه المؤلفات ... لابد أن وراءه نقسا ثرة ، خصبة ، يل هى نفس فذة تلك التى تعطى هذا كله بضعة أعوام ، هى عند غيره اما مجال للتلقى والأخذ ، لا العطاء ، اما مجال للهو والطيش العايب . ولكنها عند الشابي ابن الخمسة والعشرين ربيعا ، جهد مشبوب فى اتصال واستمرار وخلق ... ولا عجب أن تحترق الشمعة سريعا ، مادامت ترسل من الضوء فوق طاقة الشموع ... لم يبق أمامنا الا الديوان ، فلنقتصر بحكم هذا الوضع على الدراسة الموضوعية له ...

أميز وأنفس ما فى هذا الديوان عندى ، شعر الوطنية فيه .. أسجل هذا الآن فحسب ، لأفرد لحفقات الوطنية هذه فصلا خاصا حقيقيا . فليس أكرم على الأدب وعلينا من تمييز الهدف فيه ، واستناد القيادة اليه .. اننا اليوم ننفر وكان بنا لسع النار ، أن يكون الأدب مسلاة لفرد أو شعب . انه اليوم فى صحتنا الحاضرة كما أردنا له . وكما يجب أن يكون ، ليهيب تتكشف فى ضوئه القيم ، وتحترق فى ناره الأوهام والزيوف ، ورواسب العصور المظلمة .

سأنتقل الى ظاهرة أخرى قبل أن أنسى الديوان كله من أجل شعر الوطنية فيه ، وما حفزنى فى الحقيقة الى دراسة الديوان غير توهج وطنية صاحبه ، وعرامها .. وولائها ...

(١) دون الشابي كثيرا من ذكرياته بعنوان « مذكراتى » وقد نشرت فصول منها فى مجلات « العالم الأدبى » و « مكارم الأخلاق » و « الصباح » و « الأسبوع » .
(٢) كمحاضراته عن « قصة الهجرة النبوية » ومحاضراته عن « الأدب العربى فى العصر الحاضر » .

(٣) كدراسته « شعراء المغرب » التى أعدما للمحاضرة فى النادى الأدبى ولم تقب الظروف أن يلقيا . .. اقرأ عن مؤلفات الشابي وآثاره فى كتاب (أبو القاسم الشابي) للأستاذ زين العابدين السنوسى ص ٦٥ - ٦٧ .

(٤) كتاب « الشابي » للأستاذ كرو . اقرأ من ص ٩٨ - ١٠٥ .

والظاهرة الأخرى التي تستوقف العين والبحث هي الغناء بالطبيعة
غناء فرحا مبهورا ، ظل الأدب العربي يفتقده طويلا . . .

وظاهرة ثالثة هي غناء أيضا ، ولكنه هذه المرة من القلب واليه
وله . . . لا أريد أن أسمى هذا اللون من الغناء شعر الغزل . فطالما
حفل قصيدتنا في كل عصوره بالغزل ألوانا وفنونا ، ولكن ما رقرقه
الشبابي ليس غزلا وإنما هو . . . صلوات في هيكل الحب . . .

ألا ترون معي ، أن نفرد لكل من الظاهرتين الغنائيتين فصلا خاصا ،
يعنى بها ؟ . . . وحتى لا تلهينا الظاهرتان بغناهما عن الجوانب الفنية في
الديوان . . .

كان الشبابي وصافا مفتونا . . . عنده عيون فيها نجل وسحر
ورؤى . . . فيها ملائكة من الملاء الأعلى ، وصبايا رواقص ، وعذارى فتون ،
وجنة ونار ، وخمر نشوة ، وجنون . . .

أي دنيا مسحورة ، أي رؤيا	طالعتني في ضوء هذي العيون
زمر من ملائكة الملاء الأعلى	يغنون في تحت خنسون
وصبايا رواقص ، يتراشقن	بزهر التفاح والياسمين
في قضاء مورد حالم ، ساء	أطافت به عذارى الفنون
وجحيم توجب تحت فراديس	كأحلام شاعر مجنون
أي خمر متوجج ولهيب	مسكر أي نشوة وجنون (١)

وشفاء :

وردتها الحياة في لهب السحر ، ونور الهوى ، وظل الشجون (٢)

وهو مصور صناع . . . ومن أفاقينه : صورة رائقة للطفولة في
حلاوتها ، وطهارتها ، وخبثها ، ووداعتها ، وعيبتها ، ومرحها ، وتوثبها ؛
وتشوقها وفضولها ، وبنائها وهدمها ، وانتكارها وتقليدها ، وإقبالها
وعزوفها ، ورضاها ونفورها ، وسلاستها وشموسها ، وانطلاقتها
وضحكها ، وغناها ورقصها ، وبراءتها وخلوها ، وخيالها وأوهامها ،
وغرورها الخلو واعتدادها ، ودلالها المعشوق ونعيمها ، وأمرها المرموق
ونهيها ، وأمانيتها الطفلة وتحقيقها . . . صورة رائقة للطفولة ، مع
العصفور في المرج ، والموج على صدر الشاطئ ، والغناء في الجدول ،
والصفاء في الغدير ، والنحل في أخواض الزهر ، والفراش في الروض
والسنابل في الحقل ، والريح في الخلاء ، والصدى في الفضاء ، والشاة

(١ ، ٢) الديوان - قصيدة « تحت الفنون » ص ١٧٢ - ١٧٣ .

في المرعى ، والقطة في الفراش ٠٠ صورة رائعة للطفولة التي تهفو
بجناحين ٠٠٠

أيام كانت للحياة حلاوة الروض المطير
وطهارة الموج الجميل ، وسحر شاطئه المنير
وداعة العصفور ، بين جداول الماء النмир
أيام لم تعرف من الدنيا سوى مرح السرور
وتتبع النجيل الأنيق وقطف تيجان الزهور
وتسلق الجبل المكمل بالصنوبر والصخور
وبناء أكواخ الطفولة ، تحت أعشاش الطيور
مسقوفة بالورد ، والأعشاب ، والورق النضير
نبني ، فتهدمها الرياح ، فلا نضج ولا ثور
ونعود نضحك للمروج ، وللزنايق ، والغدير (١)

وفي معرض الغناء بالطفولة يحضرنا رأى للأستاذ خليفة محمد
التليسي ، لا يخلو من طرافة ، فهو يذهب في تفسير غنائه بالطفولة
مذاهب شتى ٠٠٠

(فليست الطفولة غريبة عن حياة العباقرة الأعلام ٠ فهم يعيشون
بروح الأطفال) (٢) ٠

هذا وجه ٠٠ ووجه آخر أن الشبابي :

(حين أعياء الإصلاح ، وأوهنت قواه عوامل الشر والفساد ، التفت
الى طفولته باحثا عن جنته الضائعة ، فقد أيقن أن حصاده من حقول
العالم الرحيب الخطير لم يزد على غير الندامة ، والأسى واليأس ، والدمع
الغزير ٠٠ التفت إليها يبكي أصائلها الذهبية وأسحارها الفضية
وعيشها البريء) (٣) ٠

ويفسر الناقد سر غناء الشاعر بالطفولة ، الى ايمانه الراسخ بجدة
الحياة ، ولما كانت الطفولة مظهرا باذخا من مظاهر هذه الجدة ، فقد تعلق
بها الشبابي في حب وفرحة صداحة مسعدة ٠٠٠٠

(١) الديوان - قصيدة « الجنة الضائعة » ص ١٤٧ - ١٤٩ ٠

(٢) « الشبابي وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسي ص ١٧٠ ٠

(٣) كتاب « الشبابي وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسي ص ١٧٣ ٠

ثم راح يعدد مظاهر غناء الشاعر بالطبيعة .. فرأى أنه تغنى
بطفولة الطبيعة فى ربيعها .. زمن الحب والبحث والتجديد ، وطفولة
اليوم .. فجره وصباحه .. وما أكثر ما نقرأ من تمجيد للفجر القدسى ،
وللصباح الجديد .

والناقد يعدد مظاهر غنائه بالطفولة فى شاعرية فذة لا تنطبق على
الحقيقة كل الانطباق ، ولكنها ليست مقطوعة الصلة بها .. فعنده أن غناء
الشابى للطبيعة فى ربيعها سره أن الربيع زمن الحب والبحث والتجديد
وغنائه بالفجر والصباح ، سره أنهما يمثلان طفولة اليوم ، وهو كما ترى
تخريج بادى الجهد يحمد للناقد من غناء ، حتى ولو لم يخطر للشاعر على
بال .. يقول الناقد (وفاتنته التى أوجت اليه صلواته فى هيكल الحب
لم يجد ما يتقرب به اليها سوى أن يخلع عليها من صفات الطفولة
ما يجعلها محبة لكل قلب ...

عذبة أنت كالطفولة ، كالأحلام ، كالصباح الجديد

كالسما الضحوك، كالليلة القمر، كالورد، كابتسامة الوليد (١)

ان الطفولة هنا معنى واحد فى موكب حافل من المعانى وجدها
الشاعر فى خصوبة نفس وترف خيال .. وأى معان ؟ الأحلام ...
اللحن .. السماء الضحوك .. الليلة القمر .. كلها شبت عن الطوق ،
بل أمعن فى الشموخ والارتفاع ، حتى تجاوزت الأرض الى السماء ...
ولكن طفولته بعد هذا سعيدة على أى حال ...

وهذه السعادة الغامرة التى سخط بها طفولته انداحت مع الأيام ..
كما (يغنى النشيد الحلو فى صمت الأثير) فهو لا يكتفى مثلنا بذكر عهد
الطفولة ؛ بل يتحسر عليه :

أواه ، قد ضنعت على سعادة القلب الغرير
وبقيت فى وادى الزمان الجهم أدب فى المسير
وأدوس أشواك الحياة بقلبي الدامى الكسير
وأرى الأباطيل الكثيرة ، والمآثم ، والشور
وتصادم الأهواء بالأهواء فى كل الأمور
ومذلة الحق الضعيف ، وهزة الظلم القدير
وأرى ابن آدم سائرا ، فى رحلة العمر القصير (٢)

(١) المرجع السابق .

(٢) « أغاني الحياة » قصيدة « الجنة الضائعة » ص ١٤٧ - ١٤٩ .

الاباطيل - المآثم - الشرور - تصادم الأهواء - صراع الحق والظلم،
كلها صفات لواقع مادي محسوس ، فهو لم يبالغ ولم يتزهد ، ولكنها
جانب واحد من الحياة يمكن المرء أن يعبره ، الى آخر زاه مشرق ..
ولا نعييب على الشاعر أن صوره ، بل العيب ألا يفعل بوصفه شاعرا
يصوغ الحياة في شعره .. الحياة كلها من جميع نواحيها .. ولكننا
نشفق عليه أن طال اللبث عندها والوقف .

ومن صوره الجفون التي تبسم ، أو تحلم بالنور .. بالهوى ..
بالنشيد :

قد رأينا الشعور منسدلات كللت حسننها صباح الزرود
ورأينا الجفون تبسم .. أو تحلم بالنور ، بالهوى ، بالنشيد (١)

ويلاحظ الأستاذ عبد المنعم خفاجي تلاحق الصور عنده تلاحقا فنيا
سريعا فريدا (٢) ويرى الأستاذ محمد خليفة التليسي أن :

(.. صفة الفن بارزة في جميع ما تناوله هذا الشاعر ، فقد كان
يستخدم في شعره مرقم الموسيقى وريشة الرسام وتعبير الشاعر الفحل .
ولا يعسر على المرء أن يستخرج من هذا الشعر الرائع صورا فنية فائنة ،
عمل الخيال في تلوينها ، وأبدعتها عبقرية تستقبل الحياة بأكثر من
حاسة . وتستطيع أن تحس بذلك في استعاراته وتشابيهه التي تعرض
على القارئ في جملة قصيرة لوحة باذخة تنسجم فيها الأضواء
والظلال) (٣) .

(وهو يستعين في ذلك . بقدرة خارقة على الاختصاص والتأثير على
القارئ ، بحيث يضع أمام بصره في تعبير بسيط صورة لا نهاية لروعيتها .
وأسلوبه تصويري تتعاقب فيه الصور ، وتتلاحق في موكب فخم ، وهو
مسرف في نشر هذه الصور ، ولكنه الاسراف الذي يدل على الوفرة والغنى ،
ولا يدل على الجهد والعناء) (٤) .

كما يرى أن التجسيم أو التشخيص إحدى الملكات التي يتمتع بها
الشابى ، وتساعده على إبراز معانيه والتعبير عما في نفسه (٥) .

(١) الديوان قصيدة « الجمال المنشود » ص ١٠٩ .

(٢) اقرا كتاب « مذاهب الادب » ص ١٦٧ .

(٣) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ محمد خليفة التليسي ص ١١٦ .

(٤) المصدر السابق ص ١١٨ .

(٥) المصدر السابق ص ١١٨ .

ويقرنه السيد محجوب بن خليفة بن ميلاد بالشاعر الانجليزي
 كيتس (فمن افتتاحان بالجمال واحد ، الى تطلع الى دنيا أسسحر وأهدأ
 متشابه ، الى آلام متماثلة ، الى فن وخيال أخوين . كلاهما كرع من ديمومة
 الجمال ، وترجم عن أشواقه في قصائد خالدة ، منعمة بصور شعرية
 عجيبة ، وكلاهما صنع الآلام التي تصده عن التمرغ في أحضان الجمال ،
 وأنشأ لنفسه دنياه المنشودة ، وعاش فيها حياة شعور واحساس نابذا
 العقل وأهواءه ، ان وجد دنيانا قاسية ضالة ! فان صاح جون كيتس :
 « لا يوجد في العالم سوى حقيقة واحدة ! الجمال ! أما الفلسفة فهي
 محض ضلال . اذ لكل مذهب مضاد له على خط مستقيم ! فمن لى بحياة
 احساس وشعور ! من لى ! ... »

فان صاح كيتس تلك الصيحة قال الشابي :

عش للشعور وللشعور فانما دنياك كون عواطف وشعور
 شيدت على العطف العميق وانها لتجف لو شيدت على التفكير
 وأن كتب كيتس « أنديميون » أو قصيدته المهداة « الى البلبل »
 جاعلا شعاره هذا البيت :

كل أثر جميل غبطة لا تزول

قال الشاعر التونسي نسيب المصنعي غراما (١) .

والمقارنة هنا ذات موضوع وأن تكن لا تعنى (التأثير)

ويقرنه ناقد آخر بلامارتين ويراه (متأثرا به تأثرا ظاهرا
 ملموسا . وقد كان لامرتين يجعل من الحب موضوعا للتأملات السامية ،
 والذهول الصوفي ، فالشابي كالشاعر لامرتين يذكر الغايات ،
 والأنهار ، والجبال ، والأحجار ، والغدو والآصال) (٢) .

والى لامارتين يغزو أيضا نظرة الشابي الى الطبيعة (فقد نظر الى
 الطبيعة نظرة « الحى الخاشع الى الحى الجليل » متأثرا فى ذلك بلامرتين
 الذى قرأه قراءة معجب وجعل قصته رفائيل كتابه المختار الذى لا يصير
 على مفارقتة) (٣) .

ومن الطريف أن يقرنه بلامارتين ، حتى فى ظهور كل منهما فى

(١) مجلة « الامام » العدد الخامس لسنة ٣٢ الصادر فى ٣١/١٢/٣٤ ص ٣٣ .

(٢) كتاب « مع الشابي » للأستاذ الحليوى ٧٤

(٣) كتاب « مع الشابي » للأستاذ الحليوى ص ٧٨ - ٧٩ - اقرأ أيضا ص ٩٥ .

لغته فجأة كشاعر تام النضج (١) . مع ما فى هذه الظاهرة من عنصر المصادفة الذى يلمح عرضا فى مجال المقارنة والقياس

ولكن هل شرط محتم أن يكون كل صوت نسمعه فى ديارنا صدى لآخر بعيد ؟ ان حدة الاحساس ورهافته ، اذا توفّر لها نيل انغرض تستطيع أن تجعل الحب (موضوعا للتأملات السامية والذهول الصوفى) ولم لم يقرأ صاحبها (لامارتين) .

ألم تعجب قصة روفائيل الكثيرين . فلماذا لم يتواجد بيننا (كورس) يغنى بالطبيعة غناء الشابى ، مادام الاعجاب الشديد وحده يكفى للانطباع ؟

لست بهذا أنفى بصفة قاطعة ، أن يكون الشابى قد تأثر بلامارتين . ولست أدافع عن مبدأ التأثير فما بالعب الذى يستحق الدفاع أن يتأثر فنان بفنان ، ولكن وجوه التأثير التى ذكرها الناقد بالذات لا تحتاج إلى التماس الأسباب من تأثر أو احتذاء



لا أدري لعل شبهة التقليد هذه تدخل فى هموم الفنان التى تحدث عنها الشابى . سألتها صاحبته وقد

راعها مئنه صيته ووجوه وشجها شجوبه وسهوه
« أيتها الطائر الكئيب تغرد ان شدى الطيور حلو رخيمة »
« وأجبنى . فذلك نفس . ماذا أمصاب ؟ أم ذاك أمر ترومه ؟ »
« بل هو الفن واكتشابه ، والفنان جم أحزانه وهمومه » (٢)

ولست بهذا - مرة أخرى - أغض من نقد الناقد ، فقد كان يدعوه دائما صديقه عند كل كلام ينقد فيه رأيا من آراء الشابى ، وكأنه يلمح طريقة القرآن فى الجدل المعارض حين يرسل الكلام على لسان الأنبياء من أصحاب الدعوة إلى أمهم مصدرا بكلمة « يا قومى » استمالة لقلوبهم . كلمة أسرة يتفتح على حروفها ما استغلق من النفوس .

وقد يعزو قوم هذا إلى صداقة واقعة فعلا بينهما . صداقة كبيرة تستعلن فى الرسائل والكتب ، وتحدو بالاستاذ الجليوى إلى

(١) كتاب « مع الشابى » للأستاذ الجليوى ص ١٣٠

(٢) الديوان - قصيدة « الساحرة » ص ١٤٤

المبالغة (١) في تقدير الشاعر ككل محب .. ولكنه مهما كانت الأسباب فهو نقد مصقول على كل حال :

نعود الى الشابي الذي كان يغالي بالفن الجميل ، وينكر على الدنيا في زاره ، أن تعدله بغيره من مظاهر الحياة والأحياء :

الويل للدنيا التي في شرعها فأس الطقام كريشة الرسام
والسخرية الملفوفة في هذا البيت تستعلن تهكما واضحا في
بيت آخر :

وبنو الأرض كالقروء ، وما أضيع عطر الزود بين القروء

حسبه في هذا الجو أن يرسل الخانه رضى لضميره وحده :

لا أنظم الشعر أرجو به رضاء الأمير
بمدحة أو رثاء تهدي لرب السرير
حسبي اذا قلت شعرا أن يرتضيه ضميري (٢)

وهذا الشمم يؤهله في عين نفسه لارسال الحكمة ، فتسمع منه
أحيانا مثل هذا البيت :

اذا طمحت للحياة النفوس فلا بد أن يستجيب القدر (٣)
ولكن هذا الشمم نفسه ، العازف عن المدح والرثاء ، فوت حقيقة
من الحقائق على ناقد كالأستاذ كرو ، فاعتقد أو شبه له أن الشابي قد
امتنع عن قرص الشعر في الرثاء بعامة (٤) .

وذهب في هذا الى مدى ، نفى معه رثاء الشاعر لوالده (٥) ، ويرى
في قصيدة (يا موت) في رثاء أبيه زعما من ناشرها كما (زعم كاتب
آخر أنها في رثاء حبيبته) ويقول هو يدور أن (القصيدة نفسها
لا تحدد شخصا معيناً ولكنها طافحة بالحزن واليأس والعذاب) (٦) .

ولكن القصيدة مصدرة بتعليق عليها من الشابي نفسه
(.. قتلها في أيام الأسى التي تلت نكبتى وفاة الوالد ، رحمه الله) .

(١) اقرأ في كتاب « مع الشابي » للأستاذ الحليوي ، ص ٨٥ حول فلسفة الشابي .

(٢) الديوان - قصيدة « شعري » ص ٣٣ .

(٣) الديوان - قصيدة « ازادة الغاية » ص ١٧٠ .

(٤) كتاب « الشابي » للأستاذ كرو ص ٨٥ .

(٥) كتاب « كفاح الشابي » للأستاذ كرو ص ٥١ .

(٦) كتاب « كفاح الشابي » للأستاذ كرو ص ٥١ - ٥٢ .

وإذا جاز أن يحتاج هذا التعليق إلى دليل فهذه الأبيات :

ورزأتني ، في عهدتي ، وشسورتني في كل أمر
وهدمت صرحا لا ألوذ بشيره ، وهتكت سترى
فنفقت روحا ، طاهرا ، شهها ، يجيش بكل خير
وفقدت قلبا ، شهه أن يستوى في الأفق بدري
وفقدت كفا ، في الحبيسة يصعد عنى كل شر
وفقدت ركني في الحياة ، ورايتي ، وعماد قصرى
وفقدت نفسا ، لائتي عن صون أفرأحى وبشرى
وفقدت وجهها ، لا يعبسه سوى حزنى وضرى (١)

سمات الأب في عين الابن .. ألسنت ترى معنى هذا ؟ أما الحبيبة
فلها من الصفات التقليدية والخاصة ما يغنيها عن المشورة واللياذ والشهامة
والحمية . بل لعل هذه الصفات بالذات لا تتواءم مع الحبيبة مواهبتها مع
فارسها الذي تتطلب هي فيه هذه المزايا .

ولكن الذى زعم أنها في رثاء حبيبته له علوه أيضا ، فقبل الأبيات
التي سقتها أبيات أخرى عليها طابع الحب وميسمه ، مثل قول الشابى :

وأعده فجرى الجميل ، إذا ادلهم على دهرى
وأعده وردى ، ومزمارى ، وكاساتى وخمرى
وأعده ، غابى ، ومحرابى ، وأغنيق ، وفجرى ..

الفاط رواقص فيها برد الهوى وعبقه وهى أشبه بطبيعة المحبوب
وهوى سمعه .. ومع ما فى الورد والمزمار والكاسات والطلا من جمال
وبهر ، فهى لا يتوسل بها إلى وصف الأب .. مجرد الوصف بله الرثاء ..
الفاط رواقص كما قلت . لا تليق أبداً أن تقرب من محراب الأبوة والبنوة
.. ولا تستطيع ..

ومن هنا يأتى دور الأستاذ كرو فى العذر لاعتباره القصيدة
(لا تحدد شخصا معينا ، ولكنها طافحة بالحزن واليأس والعذاب) (٢) .

وعندى أن القصيدة قالها الشابى فى رثاء والده غير أنه غلبه شبابه
وهواه وولعه المشتون بالحالم من اللفظ ، كالورد والمزمار والكاسات والخمر
والغاب والغناء .. غلبه شبابه وهواه . فتتنفس الطاقات الهائلة للحب
فى صدره من طول احتباسها .. فى غير مجالها .

(١) الديوان قصيدة « ياموت » ص ٩٥ - ٩٦ .

(٢) كتاب « كفاح الشابى » للأستاذ كرو ص ٥٢ .

ويعده الأستاذ السحرتي (من أظهر شعراء الرومانتيكية) (١) .
ويراه مع (الزهاوي ، والرصافي ، وأبو شادي ، وعمر أبو ريشة ،
ورشيد معلوف ، وجورج صيدح ، وقيلان مكرزل ، وغيرهم . في توزعهم
بين الأدب الرومانسي والواقعي ، قد مهدوا مرحلة الانتقال ؛ الى دنيا الواقع
والحياة ؛ ونزلوا من أبراجهم الى أرض الأحياء ، وأكثر هؤلاء الشعراء لم
ينهجوا نهجا واعيا ، ولم يسيروا على مبادئ مبلورة ، وانما كانت ثورة
أغلبهم تفسيراً لتجارب باطنية ، قد تكون عارضة ، الا أن الأدب قد غنم
منهم تجارب واقعية جديدة ، أو نفسية موحية مشرقة ، فرأيانهم يبذرون
الثورة على الأوضاع الفاسدة ، ويتغنون بالآمال الوطنية ، ولا يكتفون
بفرحتهم بالحياة (٢) .

**والشابي شاعر ولوع بالنغم يوفره لقصيدته . ومن وسائل التنغيم
عنده : التكرار . تكرار مطالع القصائد في الوسط أو الختام كالتسليم
الموسيقي في عالم الألحان . ومن قصائد هذا اللون :**

تونس الجميلة (٣)

الكتابة المجهولة (٤)

جدول الحب (٥)

وهناك قصيدة :

أنت يا شعر ، فلذة من فؤادي تنغني ، وقطعة من وجودي

التي يضيق بها الأستاذ فروخ ، لأن فيها يقول : (ثلاثة وعشرين
بيتاً تبدأ هكذا : فيك ما في جوانحي من حنين . . فيك ما في خواطري من
بلاء . . . فيك ما في عوالم من ظلام . . فيك ما في عوالم من نجوم . .
فيك ما في عوالم من شسباب وسراب ويقظة وهجود . . فيك ما في
طفولتي . .) (٦) .

يبدو أن الناقد لم يكن في حالة انشراح وهو يقرأ الشابي فهو يتبرم

-
- (١) اقرأ ص ٢٣١ من كتاب « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » .
 - (٢) من كتاب « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » ص ٢٣٥ .
 - (٣) الديوان ص ١٣ - ١٤ « المطلع هو الختام » .
 - (٤) الديوان ص ٣٣ - ٢٤ « فيها مقطع في الوسط تكرر في الختام » .
 - (٥) الديوان ص ٥٩ - ٧٢ « المطلع تكرر في الوسط » .
 - (٦) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ فروخ ص ١٦٨ .

من ظاهرة يولع بها الأدب العربي ويستعين بها - كثيرا - على التنعيم .
على أن ظاهرة التكرار هذه قد تكون محاولة من الشابي لتهدئة
نفسه المختلجة ، إذا أغلب ما يكون التكرار في قصائده الحزينة .

وفي شعر الشابي تقسيم كقوله :

فانت ، وقد غمرتها الدموع وقرت ، وقد فاض منها الحباب (١)
وقوله :

ولعللة الحق الغضوب لها صدى ودمدمة الحرب الضروس لها قم (٢)
وهذه الأبيات :

فالدهر متعل بالنار ، ملتحف بالهول ، والويل ، والأيام تشتغل
والأرض دامية ، بالاثم طامية ومارد الشر في أرجائها ثمل
والموت كالمارد الجبار ، منتصب في الأرض يخطف من قد خانه الأجل (٣)

ومن آتاه الموسيقى ، الاتباع :

البسوا روحه قميص اضطهاد فأتاك شنائك يرد جماجه (٤)
ومن الحانه :

قوى ، غلوب ، كسبحن الجفون ، شعبي ، لعوب ، كزهر حزين
ضحوك ، وقد بللته الدموع ، طروب ، وقد ظللته الشجون (٥)

وهو نابض القوافي والألفاظ والمعاني والموسيقى :

حسبنا زهرنا الذي تنتشي حسبنا كأسنا التي تترشق
ان في ثغرها رحيقا سماويا وفي قلبنا ربيعا مفوف (٦)
وله ألفاظ عليها جدة ولها نواف ، من مثل النبات البليل .

كان فيه النسيم يرقص سكرانا على الورد ، والنبات البليل (٧)

- (١) الديوان - قصيدة « السامة » ص ٤٤ .
- (٢) الديوان - قصيدة « الى الطاغية » ص ٤٣ .
- (٣) الديوان - قصيدة « غرفة من يم » ص ١٧ .
- (٤) الديوان - قصيدة « توتس الجنيلة » ص ١٣ .
- (٥) الديوان - قصيدة « المساء الحزين » ص ٥٩ .
- (٦) الديوان - قصيدة « الحائي السكرى » ص ١٦٦ .
- (٧) الديوان قصيدة « ذكرى صباح » ص ١٦٢ .

ومن توليداته :

(ويستمتعون مزاميرهم ، فتمنحهم كل لحن عجيب) (١) .

ومع هذا يرى ناقد كالأستاذ محمد خليفة التليسي أن : (قوة أسلوب الشاب ليست في ألفاظه رغم براعته في استخدامها ، ورغم ثروته من الألفاظ اللونية والصوتية التي يستعملها في براعة الرسام النابغ والموسيقي العبقري . ولكنها في قوة احساسه . انه أسلوب تحسه قبل أن تفهمه ، لأن الروح التي تسرى فيه ، تأخذ عليك طريقك وتحاصر فلا تعرف تحديد موضع القوة فيه) (٢) .

ويصور الشاعر الوصف السعادة فيقول :

ترجو السعادة يا قلبي ولو وجدت	في الكون لم يشتعل حزن ولا ألم
ولا استعالت حياة الناس أجمعها	وزلزلت هائه الأكوان والنظم
فما السعادة في الدنيا سوى حلم	ناء ، تضحي له أيامها الأمم
ناجت به الناس أوهم معريدة	لما تغشيتهم الأحلام والظلم
فهب كل يناديه وينشده	كأنما الناس ما ناموا ولا حلموا (٣)

وهو رقيق رقة محببة ، مثل خفق الوتر ، على حد تعبيره (٤) .

ومن طرائفه في التعبير :

أبدأ يحمل الوجود بها فيه كان ليس للوجود زعيمه (٥)

أرى في (زعيمه) كناية لطيفة عن « الله » .

ومن طرائفه في الصفات : الجيد الثمين ، والطرف الساهي ، والخطو الموقع (٦) .

ومن تشبيهاته الذاتية :

سمعتها صرخة مضضعة

كجدول في مضايق السبل (٧)

- (١) الديوان قصيدة « المساء الحزين » ص ٦٠ .
- (٢) كتاب « الشاب وجبران » ص ١١٤ .
- (٣) الديوان قصيدة « السعادة » ص ١٥١ .
- (٤) الديوان - قصيدة « ارادة الحياة » ص ١٦٨ .
- (٥) الديوان - قصيدة « الساحرة » ص ١٤٤ .
- (٦) الديوان - قصيدة « تحت الفصول » ص ١٧١ .
- (٧) الديوان - قصيدة « الكتابة المجهولة » ص ٢٢ .

مسورة جميلة فيها الصوت ودرجته ، واللون ، والحركة ، والانفعال .



ولكن هذا الأسلوب المشرق لا يخلو من هنة هنا وهناك ، فالشاعر الرقيق المتائق أجاز لنفسه أن يقول ، ولا أدري كيف :

ان للحب على الناس يدا تقصف الأعمار (١)

لماذا ؟ ان الحب يطيل الحياة بالعرض ، اذ ينصرها ويخصبها . . .

وؤلة أخرى في القصيدة نفسها :

وله فجرا على طول المنيدي ستاطسح الأنسوار

اقرأ معنى من قصيدته (قلب الأم) (٢) :

كل نسوك ، ولم يعودوا يذكرونك في الحياة

الا فؤادا ، ظل يخفق في الوجود الى لقاك

ويود لو بسذل الحياة الى المنية ، وافنداك

فان رأى طلقا بكاك ، وان رأى شبحا دعاك (٣)

التبايع مشدوه . . . يذيب على الوصف بله النظر

هو قلب أمك ، أمك السكري بأحزان الوجود

هنا يبدو لنا رأى . . . فمع الحزن يعبر عن فقدان الوعي بالذهول

. . . بالشروء لا بالسكر الذي له ايعاء السرور والخلو . . .

وقلب الأم ألهم الشاعر قصيدة طويلة متدافعة العاطفة كالسيل . . .

متدفقة التعبير كالطوفان . . . وقد طال نفسه فيها حتى أرضى . . . غير أنه

التهى منها فجأة كمن يقطع جسديا اندمجت الأذن فيه ، فقلب الشكلي

لا ينسى مهما توالى المظاهر . . . مظاهر الاغراء التي عددها الشاعر في

آخر القصيدة وأفاض ، حتى كدنا ننسى الموصوف الأصيل في الموضوع ،

وهو قلب الأم الذي كان السياق يقتضى الشاعر أن يؤكد وفاءه في الختام

كما نوه به أثناء القصيدة . . . ولست أدري ان كان هذا يعد من هنائه أو

من محاسنه كفنان أصيل لا ينطق عن صناعة وتعمل ، بل ينحدر مسيرا

باللحظة التي هو فيها . . . يمدد الهام فتنتطق المعاني من خلاله فاذا ارتفع

(١) الديوان - قصيدة « في الظلام » ص ١٩ .

(٢) الديوان ص ١٢٩ - ١٣٣ .

(٣) الديوان ص ١٣١ .

الوحي وتوقف العرض الذي اتخذ من الشاعر مجلده ٠٠ توقف في أي نقطة ...

ومن لغوياته لفظه (عراض) (١) .

ومن ألفاظه الغريبة هذه القائمة :

الأسكوب (٢) كضت الأيام (٣) الخميس المجر (٤) صمات الغروب (٥) معسبات الحياة (٦) يشجى صماته (٧) .

ويبدو أن الشابى كبير الرضا عن صيغة فعيل وفعل ، فهو يقدم إلى رواده هذه الألفاظ وكأنها بعض صحبه :

العهد (٨) السفيح (٩) الذريف (١٠) ضريح (١١) شطيف (١٢) جفيف (١٣) عبيد (١٤) وهيد (١٥) عشوف (١٦) القروح (١٧) .

على أنه يكاد يتعقد الإجماع على جمال أسلوب الشابى ٠٠ سلم بهذا حتى الذين تعنتوا معه ، فالأستاذ فروخ الذى يسخر فى إطلاق الأحكام المقتضبة من غير شاهد يشبث صواب رأيه أو حتى يسوغه (١٨) .

والذى لا يرى فى شعر الشابى أثراً لثقافة واسعة (١٩) ! ناسيا أو متناسيا أن مهمة الشاعر ليست أن يصنف موسوعات علمية ٠٠٠ وهو بعد يجب أن يستوحى قلبه أولا ، فمن الشعور لا العقل اشتق الشعر ٠٠ مثل هذا الناقد على كل حال يرى أن شعر الشابى (كلام جميل) ولو

(٢) الديوان من ٣٧	(١) الديوان من ٦١
(٤) » » » » ٥٢	(٣) » » » » ٥١
(٦) » » » » ٦٠	(٥) » » » » ٥٩
(٨) » » » » ٦١	(٧) » » » » ٦٧
(١٠) » » » » ٦٢	(٩) » » » » ٦٤
(١٢) » » » » ٦٢	(١١) » » » » ٦٢
(١٤) » » » » ٨٦	(١٣) » » » » ٦٢
(١٦) » » » » ٦٢	(١٥) » » » » ٧٧
	(١٧) » » » » ٧٧

(١٨) اقرأ ص ١٦٩ من كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ فروخ .
(١٩) المصدر السابق ص ١٦٩ يقول الناقد : « ليس فى شعر الشابى أثر لثقافة واسعة ان الرجل يتكلم من قلبه لا من عقله » .

أنه عز عليه أن ينصفه لو صح أن (كلام) هذه لا تخلو من تهوين
فمضى يقول (وشعره كلام جميل أكثر منه كلاما مصيبا ، وفيه موسيقى
أكثر مما فيه منطقاً متسقاً) .

وهل ينفصل الصواب عن الجمال ؟ ألا يشنوه الخطأ الجمال في
(الكلام) فلا يعد يوصف بأنه جميل . . ما أحوج النقد الى نقد .

لا ضير فإن الشابي حظي من الانصاف بالكثير ، أو ذكره بتعبير
أصبح ، فلسفت متأكدة ان كان يدري من وراء الحجب الذي ضربت بيننا
وبينه بهذا الذي تمنى بعضه في حياته ، فلم يظفر الا بالجحود والتكران
وجد الشابي على كل حال من يقول :

(اذا كان الشعر الحى الخالد هو الذى تظهر فيه شخصية صاحبه
قوية واضحة ، وتطبعه بطابع خاص ، فشعر الشابي من هذه الناحية
من أخلد الشعر وأشدّه حيوية . فشخصية الشابي تظهر في شعره بقوة
ووضوح فائقين حتى أنك لو وضعت شعره بين مئات من شعر غيره لما خفى
عليك ، ولعرفته بهذه الألاء الباهر المتجلى في ديباجته المشرقة ، وهذا
الخيال الرائع القوى الجبار (١) .

ومن كمال هذه الشخصية عند الأستاذ خليفة محمد التليسي .
وأبرز مظاهر استقلالها أن : تكون لها نظرة في الحياة تنسجم مع مقوماتها ،
وفلسفته ، أو نظرته الى الحياة لا تستقل عن شخصيته ، بل هي موسومة
بطابع لا يمكن أن يكون لغيره ، ولقد بلغ من وضوحه وقوته درجة تستطيع
أن تتبينه في من أثر فيهم الشابي . وليس أيسر من الاحساس بنغماته
خلال عدد كبير من قصائد شعراء الشباب (٢)

وحين يؤرخ الشيخ محمد الفاضل بن عاشور للحركة الأدبية في
تونس ١٩٨١ يرى أن : اللغة العربية ومناهجها الأدبية ، لم تستعص عن
محاولاته المرحقة ، بل لانت له كما يلين الصخر لتحت الفنان ، فجاءت
قوالب شعره رقيقة صافية محكمة النسيج رائقة الأنظم ، شيقة التعبير ،
معتدلة المقاطع ، ثرية من طلاوة الفصاحة وروثق البديع ، بحيث أن أشد
الناس انكاراً لمذهبه في تحديد المعاني والأغراض ، لا يقدر أن يفض من

(١) الأستاذ محمد الحبيب شلبي . مجلة الامام - المدم الخامس - السنة ٢٢ الصادر

في ٣٤/١٢/٣١ ص ٣١ .

(٢) كتاب « الشابي وجبران » ٩٩ .

براعته العجيبة في اتقان الصناعة البلاغية التي هي مقياس الجودة
المشترك بين المشارب المتباينة (١) .

ويلهج الأستاذ كرو بأسلوب الشابي في أكثر من موضع من كتابه
(الشابي) فمظهر امتيازهم (دقة بالغة في التعبير ، وبراعة فائقة في
في تصويره ص ٧٧ ثم يعود في الصفحة التالية ص ٧٨ يرى شاعريته
ممثلة في صدقه في التعبير ودقته في التصوير ٠٠ ويبدو أن صدقنا
النقاد متأثر هنا بتعريف الشابي للشعر الذي نشره له في ص ١٣٩
(مقال الشعر) ٠٠٠ ومع ما في هذا الوصف من إشارة وتقدير ، فإن
إيراده على هذه الصورة وبهذا الإصرار الذي يوحى بالقصص ٠٠ فيه غيب
لشاعر تعددت ميزاته ومجالاته ٠٠

والشابي شاعر طويل النفس يستبقيك معه فترة ليست بالقصيرة
في قصائده : أيها الليل (٢) ، يا شعر (٣) ، في فجاج الآلام (٤) ، جدول
الحب بين الأمس واليوم (٥) .

نشيد الأسى (٦) ، النبي المجهول (٧) ، ضلوات في هيكल الحب (٨) ،
قلب الأم (٩) ، حديث المقبرة (١٠) ، الجنة الضائعة (١١) ، أرادة
الحياة (١٢) ، تحت الغصون (١٣) الغاب (١٤) .

والديوان تغلب عليه « القافية الواحدة » التي نظم منها ٥٩
قصيدة (١٥) :

(١) كتاب « الحركة الأدبية والفكرية في تونس » ص ١٧٩ - ٢٨٠ .	
(٢) الديوان ص ٢٥ - ٢٨	(٣) الديوان ص ٣٥ - ١
(٤) الديوان ص ٦٥ - ٦٨	(٥) الديوان ص ٦٩ - ٧٢
(٦) الديوان ص ٨٢ - ٨٥	(٧) الديوان ص ١٠٣ - ١٠٥
(٨) الديوان ص ١٢٩ - ١٢٤	(٩) الديوان ص ١٢٩ - ١٣٣
(١٠) الديوان ص ١٣٤ - ١٤٠	(١١) الديوان ص ١٤٧ - ١٥٠
(١٢) الديوان ص ١٦٧ - ١٧٠	(١٣) الديوان ص ١٧١ - ١٧٤
(١٤) الديوان ص ١٨٨ - ١٩١	
(١٥) القصائد :	
« تونس الجميلة » ص ١٣ - ١٤	« من حديث الشيوخ » ص ٩٤
« خلة للموت » ص ١٤	« الحياة » ص ١٥
« غرفة من يم » ص ١٧	« أيها الليل » ص ٢٨ - ١٥
« زفير العاصفة » ص ٤٢	« إلى الطاغية » ص ٤٣
« السمامة » ص ٤٤	« الحب » ص ٤٥

حين عدد القوافي في ١٥ قصيدة (١) منها قصيدتان عبارة عن مقطوعات ذات روى مستقل ، هما : (نظرة في الحياة) و (شعري) .. ومنها قصيدة هي رباعيات مزدوجة ذات رويين متتابعين (٢) :

٤٦ »	« الدموع »	٤٥ =	« أيها الحب » ص
٥٢ »	« سر مع المهر »	٥٢ »	« المجنيد » ص
٥٥ »	« فتاة عصفور »	٥٣ »	« الذكرى » ص
٦٢ »	« بقايا الخريف »	٥٨ »	« قالت الأيام » ص
٧٣ »	« يا رفيقي »	٦٤ »	« أغنية الشاعر » ص
٨٣ »	« نشيد الأمي »	٨١ »	« صوت تائه » ص
٨٨ »	« يا ابن أمي »	٨٧ »	« قلت للشعر » ص
٩٤ - ٩٣ »	« اكثرت يا قلبي فماذا تروم »	٩١ »	« الى قلبي التائه » ص
٩٨ »	« الى الله »	٩٥ »	« ياموت » ص
١٠٦ »	« صفحة من كتاب الدموع »	١٠٣ »	« النبي المجهول » ص
١٠٩ »	« الجمال المنشود »	١٠٨ »	« شجون » ص
١١٥ »	« فيروز الاخلام »	١١٤ »	« احلام شاعر » ص
١٢١ »	« حيلوات في هيكل الحب » ص	١١٧ »	« أنا أبكيك للحب »
١٢٧ »	« فكرة فنان »	١٢٦ »	« رثاء فجر »
١١٤ »	« الساجرة »	١٣٤ »	« حديث القبرة »
١٤٧ »	« الجنة الضائعة »	١٤٩ »	« قال قلبي للاله »
١١٥ »	« أيتها الحائلة بين المواصلات »	١٥٦ »	« الضائعة »
١٥٨ »	« صوت من السماء »	١٥٦ »	« الأبد الصغير »
١٦٤ »	« الرواية القرية »	١٦٢ »	« ذكرى صباح »
١٧٦ »	« تحت القصور »	١٦٧ »	« ارادة الحياة »
١٧٩ »	« نشيد الجبل »	١٧٨ »	« الناس »
١٨٣ »	« حرم الأمومة »	١٨٢ »	« الاعتراف »
١٨٤ »	« الدنيا الميتة »	١٨٣ »	« قلب الشاعر »
١٨٨ »	« الغاب »	١٨٦ »	« شكوى ضائعة »
		١٩٢ »	« فلسفة المثعبان المقيس »
			(١) القصائد :
٣٣ »	« شعري »	١٥ »	« نظرة في الحياة »
١١٣-١١٢ »	« الأشواق التائهة »	٥٧ »	« الطفولة »
١٢٥ »	« أراك »	٧٨ »	« الى عازف أعمى »
١٥٩ »	« الصباح الجديد »	١٥٢ »	« من أغاني الحياة »
١٨١ »	« زوبعة في ظلام »	١١٩ »	« أبناء الشيطان »
		١٨٥ »	« الى طغاة العالم »
		١٧٥ »	« الى الشعب »
		٥٧ »	(٢) قصيدة « الطفولة »

- ومن تواسيحه : ماتم الحب (١) ، شكوى اليتيم (٢) ، أغاني (٣) .
ونظم الشابي من الرباعيات (الثنائية) سبع قصائد (٤) ، ومن
رباعياته المزدوجة غيرها قصيدته (في ظل وادي الموت) (٥) .

ولا يهم هنا الاحصاء الا من حيث دلالة الخاصة بالشاعر ومنحاه
نحو التحرر من قيود القافية العربية أو التمسك بها ، ثم دلالة العامة
على نزعة الشعر العربي في أمر هذه القافية . أما فيما عدا هذا فلتؤد
الطاقة الشعرية . . الطاقة الفكرية . . الطاقة المعنوية . . في أي صورة
من الصور . . شعر مقفى أو مرسل ما دام يزكى قدرتنا على التقدم ، ويزيد
ثروتنا من الابداع الأصيل . .

وبالشابي ميل إلى التسكين . وتسكين القافية عنده غير قاصر على
موشحاته ورباعياته ، بل يتناول قصائده أيضا .

ويقول الأستاذ زين العابدين السنوسي :

أن أبا القاسم لم يكن يكتب شعره بيتا بيتا . بل كان يخطر له
القصيدة « خاطرة » واحدة ، ونفحة واحدة ، فإذا غرق في صناعة تلك
النفحة ، غرق في نفسه فلا يلتفت لقلم ولا ورق ، وإنما إذا أتمه ارتاح
لحظة ، حتى إذا استجم نشاطه من جديد ، أخذ الورق والقلم ، وبدأ
يستنسخ القصيدة أو المقطوع فينقلها إلى ورقة عن الأصل الذي انصاغ
في قلبه ونقش في ذاكرته . (٦) .

(١) الديوان ص ٢٧ .

(٢) الديوان ص ٢٩ .

(٣) الديوان ص ٨٩ .

(٤) القصائد :

« أنشودة الرعد » ص ١٨

« في الظلام » ص ١٩

« الرقيقة الذاتية » ص ٣١

« يا شعر » ص ٣٥ .

« جدول الحب بين الأمس واليوم » ص ٦٩ .

« رقلب الأم » ص ١٢٩ .

« الحاني السكري » ص ١٦٥ .

(٥) الديوان ص ١٤١ .

بعد الأستاذ ابراهيم العريض قصيدة الشابي « في ظل وادي الموت » مثالا من أمثلة
تنوع القوافي ، بالمنوحة بينها في كل عقد يؤلف من ثلاثة أبيات فاكتر على أشكال في
قصيدة ذات عقود متشابهة النغم .

اقرأ كتاب « الشعر وقصائمه » للأستاذ ابراهيم العريض ص ٧٨

(٦) مجلة الندوة - السنة الأولى العدد ١٠ أكتوبر سنة ١٩٥٣ .

ويؤيد هذا ما جاء في رسالة الشاعر إلى صديقه الحليوي من إشارة إلى قصيدة (نشيد الجبار) والاشارة تهمنا هنا بقدر كشفها عن طريقته في النظم ودلالة هذه الطريقة عليه . . اليك قصته :

(. . .) نمت معذب النفس مهوم القلب ، ثم استيقظت نحو الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، فلجت بي الآلام وضربت بي في كل سبيل ، حتى لقد كاد رأسي ينفجر وأجسست أني لا بد مشفى على الجنون لو دام بي ذلك الحال إلى الصباح . وتطورت نفسي في غمرة الألم فبعد أن كانت معذبة باكية في ظلمة أحزانها ، تكاد تخرج من الأسي ، انقلبت نائرة هائجة ، وائقة من نفسها ، ساخرة بالقدر والداء والأعداء . وكل آلام الحياة ، وتحت تأثير هاته الحالة النفسية نظمت « نشيد الجبار » فذابت آلام نفسي ، وشعرت بالحرية والانطلاق كأنما ألقيت عن منكبي عبئا ثقيلا يهده القوى . وقد نظمتها في تلك الليلة . ولكن نفسي لم تنهض لكتابة ولو كلمة منها ، وفي نحو الفجر نمت مراتح النفس مطمئنا ، وأفقت من الغد فلم أجدني قد نسيت منها كلمة واحدة ، فكتبتها ولم أزد عليها الا نحو بيت أو بيتين ، وبعض تنقيحات رأيته لا بد منها . . . (٢) .



يقولون (ان المرء اذا عظم كثرت أسماؤه) ويدعو أن الشابى يريد أن يعدل قليلا هذا المثل فيستبدل بالأسماء ، الصفات . . فقد تعددت صفاته فهو :

- صاحب مدرسة (٢)
- صاحب فلسفة (٣)
- صاحب مذهب (٤)
- شاعر عبقرى (٥)

- (١) مجلة الفكر - العدد ١ السنة ٢ أكتوبر سنة ١٩٥٦ .
- (٢) الأستاذ الحليوي كتاب « مع الشابى » ص ١٠٧ .
- والأستاذ كرو كتاب « الشابى » ص ٧٢ .
- (٣) الأستاذ كرو كتاب « الشابى » ص ٨٥ .
- (٤) الأستاذ كرو كتاب « الشابى » ص ١٠٨ .
- (٥) الأستاذ السحرتى « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » ص ٣٩ .
- واقرا للأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى « مذاهب الأدب » ص ١٥٠ - ١٥٣ .

شاعر متحلل (١)

من أصحاب المذهب الاجتماعي (٢)

شغل النقاد في حياته وبعد الحياة .. اذن لا بد أن نخرج من هذا كله مجتمعا ومتفرقا بأنه كان موجودا .. وسواء سمي قوم الجدوة المتوهجة النور والاشراق ، أو سموها النار والاحراق فهي جدوة .. تنتصرا وبهذا ترتفع على الرماد المعتم المتخلف عن الخلق ، القابع في سلبية وخمول .

هذا هو ديوان الشابي الذي رفعه قوم الى سماء الخلود ، وحكم عليه أو على بعضه ، آخرون بالاعدام - أى والله بالاعدام ! فالأستاذ فروخ - مثلا - يرى (أن ديوان الشابي لا يجوز أن ينشر كاملا بل يحسن أن تنشر منه مختارات فقط) . (٣)

هب يا سيدي أن الديوان به الغث والسمين ، ألا ترى كناقد أن الدراسة العلمية الصحيحة تقتضي تواجد آثار الفنان جميعا - الغث والسمين - للتفسير والاستشفاف ، ولمح التطور عليه وعلى فنه ..

ترى هل من المختارات المرضي عنها ، شعر الشابي في الطبيعة ، وطنياته ؟ أيا كان الجواب سأحدث عن هذين اللونين للحقيقة والتاريخ ولكم ..

(١) الأستاذ فروخ كتاب « شاعران معاصران » ص ١٧٢ .
(٢) الأستاذ السعرتي في كتاب « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » ص ١٥ .
(٣) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ فروخ ص ١٧٠ .

الطبيعة في شعر الشابي

يا أيها الشادي ، المغرد هنا ثملا بغبطة قلبه المسرور
 قبل أذاهير الربيع ، وغنمها رنم الصباح الضاحك المجهور
 واشرب من النبع الجميل، الملتوى ما بين دوح صنوبر وغدير
 واترك دموع الفجر في أوراقها حتى ترشفها عروس النور (١)
 ألا يذكرك هنا بروسو ، الذي كان يتحاشى النمل في الحقل
 فلا تطؤه ، من الرحمة قدماه ؟

ويبدو الشاعر علائقا في هذه اللقطة من لفتاته :

يا زهرة سامها العابرون خسفاً وهونا
 لو كنت شوكا عضوضاً ما داسك العابرونا
 لأنهم يجهلون الوحي الذي تضميرينا
 هم يشخرون بهمس الزهور ، وهو بديع
 وينصتون لصوت الأشواك ، وهو مزيج
 فلا تبالي بقوم الحق فيهم صريح (٢)

ان زهرة الصديق ، لتذكرنا بفرخ أبي العلاء الذي وصفه له الطبيب
 فسخر من الحياة وطبها ، في هذه الزفيرة الماثورة عنه (استضعفوك
 فوصفوك فهلا وصفوا شبل الأسد ؟)

يا زهرة سامها العابرون خسفاً وهونا
 لو كنت شوكا عضوضاً ما داسك العابرونا

(١) الديوان - قصيدة « مناجاة عصفور » ص ٥٦

(٢) الديوان - قصيدة « في فجاج الآلام » ص ٦٨

ان الرجلين يتلاقيان ٠٠٠ فى تقديرى على الاقل ٠٠

وهو مفتوح الحس والهوى والفؤاد للطبيعة :

وافتح فؤادك للوجود ، وخلصه
للثلج تنشره الزوابع ، للأسى
واتركه يقتحم العواصف ، هائما
ويخوض أحشاء الوجود ، مغامرا
حتى تعانقه الحياة ، ويرتوى
فتعيش فى الدنيا بقلب زاخر
فى نشوة صوفية ، قدسية ،
للهم للأمواج ، للديجور
للهمول ، للآلام ، للمقدور
فى أفقها ، المتلبد ، المقرور
فى ليلها ، المتهيب ، المحذور
من ثغرها المتأجج ، المسجور
يقظ المشاعر ، حالم ، مسحور
هى خير ما فى العالم المنظور (١)

ان الشاعر هنا يعيش فى لحظة مضيئة زاخرة تجيش فيها عاطفته ،
وتتدافع حتى لا يملك معها وقتا يختار فيه لفظه ، ثم يجرفه تيارها
العائى الى مثل هذا التعبير (يخوض أحشاء) صورة بشعة فيها فتك
وضراوة ، ويزيد فى وقعها على النفس صدورها عن شاعر رقيق حالم مخملى
الأسلوب ٠٠ ويزيد فى وقعها على النفس ، ورودها فى موضوع محلق ٠٠
خطالما تمنيت على الأدب العربى وله ، أن يتحد بالطبيعة ويعبسها الروح
والحرارة فتتحرك وتحس ٠٠ ويتجاوبان ٠٠

وفى حضن الطبيعة ملاعبه ، يغنى مع النسيم تارة ، ويصغى تارة
أخرى الى قلب الطبيعة المتغنى :

نحن نلهو تحت الظلال ، كطفلين
وعلى الصخرة الجميلة فى الوادي
نحن نغرد بين المروج ونمسي
ونناجى روح الطبيعة فى الكون
سعيدين ، فى غرور الطفولة
وبين المخاوف المجهولة
ونغنى مع النسيم المغنى
ونصغى لقلبها المتغنى (٢)

ويناجيها فى حب رؤوم :

يهجج الكون فى طمأنينة العصفور ، طفلا ، بصدرك الغربيب (٣)
وبأحضانك الرحيمة يستيقظ فى
شاديا ، كالطيور بالأمل العذ
ب ، جميلا ، كبهجة الشؤبوب
نضرة الضحوك ، الطروب

نفس تنتفض نشوة على وقع قطرات المطر :

- (١) الديوان - قصيدة « فكرة الفنان » ص ١٢٨
(٢) الديوان - قصيدة « الحانى السكرى » ص ١٦٥
(٣) الديوان - قصيدة « أيها الليل » ص ٢٥ - ٢٦

يا ظلام الحياة ! ياروعة الحزن ن ! ويا معزف التبعيس الغريب
يا روعة الحزن .. نفس هفافة .. كل شيء يروعها حتى الحزن ..
يا ظلام الحياة ! ان الغناء المنهل في اول القصيدة ، ليس الا تغطية
ما لبثت ان تخلصت عنه عند بيته :
يا ظلام الحياة ! يا روعة الحزن ن ! ويا معزف التبعيس الغريب
واذ اقلت الزمام من يده انطلق على سجيته الحقيقية :

صاح ان الحياة أنشودة الحزن ن ، فرتل على الحياة نجيبى
ان كأس الحياة مترعة بالدمع ح ، فاسكب على الصباح حبيبى
ان وادى الظلام يطفح بالهوى ل ، فما أبعد ابتسام القلوب
لا يفرنك ابتسام بنى الأر ض ، فخلف الشعاع لذع اللهب
أنت تدري ان الحياة قطو ب وخطوب ، فما حياة القلوب ؟
ان فى غيبة الليالى تباعا لخطيبا يمر اثر خطوب

حقا لا يفرنك ابتسام بنى الأرض ، فخلف الشعاع لذع اللهب .
ولكن ليس معنى هذا ان يستسلم لتشاؤم لا يرى فى الحياة
اشراقا ، أو صفوا حتى ليقول :

ماسكوت السماء الا نجوم مانشيد الصباح غير نجيب
ليس فى الدهر طائر يتغنى فى ضفاف الحياة غير كتيب
خضيب الاكتئاب أجنحة الأيا م ، بالدمع والدم الأسكوب
وعجيب أن يفرح الناس فى كهف الليالى بحزنها المشبوب !
وهيهات أن تزحزحه عن هذا الرأى .. فى هذه القصيدة على الأقل .

لا تحاول أن تنكر الشجوى ، انى قد خبرت الحياة خبر لبيب
فتبرمت بالسكينة والضجة ، بل قد كرهت فيها نصيبى
انه ضيق بكل شيء .. لم ؟ أى شيء يسر نفس الأريب .
أنفوس تموت ، شاخصة بالهول ، فى ظلمة القنوط العصيب ؟
أم قلوب محطمت على ساحل لج الأسى ، بموج الخطوب ؟
انما الناس فى الحياة طيور قد رماها القضا بواد رهيب
يعصف الهول فى جوانبه السو د فيقضى على صدى العندليب (١)

(١) الديوان - قصيدة « أيها الليل » ص ٢٧ .

ولكن هذا الألم لا ينسيه الطبيعة .. أبدا .. انه يزيد منها قربا ،
ويزيده بها تعلقا ، بل اتحادا .. امتزاجا .. تجاوبا ..

مالي تعذبني الحياة كأنني خلق غريب ؟
يا مهجة الغاب الجميل ألم يصدعك النحيب ؟
يا وجنة الورد الأنيق ألم تشوهك الندوب ؟
يا غيمة الأفق الخضيب ألم تمزقك الخطوب ؟
يا جدول الوادي الطروب ألم يرتقك القطوب ؟
يا كوكب الشفق الضحوك أما ألم بك الشحوب ؟ (١)

ومن حديثه مع « الزنبقة الداوية » :

وان جرفتني أكف المنون الى اللحد ، أو سحقتك الخطوب
فحزني وحزنك لا يبرحان اليقين رغم الزمام العصيب
وتحت رواق الظلام الكئيب اذا شمل الكون روح السحير
سيسمع صوت ، كلجن شجي تطاير من خفقات الوتر
يردده حزننا في سكون على قبرنا ، الصامت المطمئن
فترقد تحت التراب الأصم جميعا على نغمات الحزن (٢)

وأشهى الغناء عنده ما كان :

« للضياء المتفسجى الحزين »
« للضباب المورّد ، المتلاشي »
« للمساء المثل للشفق الساجي »
« للعبير الذي يرفرف في الأفق »
« للأغاني التي يرددها الراعي »
« للربيع الذي يؤجج في الدنيا »
« ويوشى الوجود بالسحر والأحلام »
« للضياء المتفسجى الحزين »
« كخيالات حالم ، مفتون »
« لسحر الأسى ، وسحر السكون »
« ويفنى ، مثل المني ، في سكون »
« بمزمارة الصغير ، الأمين »
« حياة الهوى ، وروح الحنين »
« والزهر ، والشذى ، واللحون » (٣)

وهو مفتون بالطبيعة ... ضباب الصباح .. وسحر المساء ...
وضوء القمر ... والنور ... والظل ... والنبع ... والمرج ... والزهر
والطير ... والنسيم والمطر ... حتى الظلام يأسره فيهتف :

« آه ! ما أجمل الظلام ! وأقوى وحيه في فؤادي المفتون ! »

(١) الديوان - قصيدة « نشيد الأسى » ص ٧٣ - ٧٤

(٢) الديوان - قصيدة « الزنبقة الداوية » ص ٣٢

(٣) الديوان - قصيدة « تحت الفصول » ص ١٧١

« أنظري الليل فهو في حلة الأحلام
« واسمعي الغاب، فهو قيثارة الكون
« أن سحر الضباب، والليل، والغاب
« وجمال الظلام يعبق بالأحلام
يمشي على الذرى والحزبون
تغنى لجنباً الميمون
بعيد المدى ، قوى الفتون
والحب .. فابسمي والشميني (١) »

إنها الطبيعة لا تغيب عنه في غضبه ورضاه ، فهي مجلى وصفه مهما
اختلف الموضوع ، حتى في ثورته على قومه النيام (٢) .

حتى صرخاته للحرية والكرامة يستوحىها من .. الكائنات .. من
روحها المستتر .. من الوجود حوله .. من الطبيعة :

إذا الشعب يوما أراد الحياة
ولا بد لليل أن ينجلي
ومن لم يعانقه شوق الحياة
فويل لمن لم تشقه الحياة
كذلك قالت لي الكائنات
وحدثني روحها المستر (٣)
فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي
تبخر في جوها ، واندثر
من صفعة العدم المنتصر
وحدثني روحها المستر (٣)

فألريح تدمدم :

« إذا ما طمحت الى غاية
« ولم أتجنب وعور الشعاب
« ومن لا يحب صعود الجبال
ركبت المني ، ونسيت الحذر
ولا كبة اللهب المستعر
يعش أبد الدهر بين الحفر » (٤)

والأرض تقول :

« أبارك في الناس أهل الطموح ومن يستلذ ركوب الخطر »
« وألعن من لا يمشي الزمان ، ويقنع بالعيش عيش الحجر »
« هو الكون حي ، يحب الحياة ويحتقر الميت ، مهما كبر »
« فلا الأفق يحضن ميت الطيور ، ولا النحل يلثم ميت الزهر »
« ولولا أمومة قلبي الرؤوم لما ضمت الميت تلك الحفر »
« فويل لمن تشقه الحياة ، من لعنة العدم المنتصر (٥) »

ولما كان معنى النفس بالآلام والآلام شعبه معا .. شعبه الذي يصرخ
فيه فتضيق صرخته في الفضاء ، أو هكذا يخيل إليه ، فهو يريد أن يتناسى

(١) الديوان - قصيدة « تحت الفصون » ص ١٧٤ .

(٢) ص ١٧٥ - ١٧٨ الديوان قصيدة « الى الشعب » .

(٣ ، ٤) الديوان - قصيدة « ارادة الحياة » ص ١٦٨ .

(٥) ص ١٦٨ .

هذا الواقع الحالك ، فيرتدى في أحضان الطبيعة الرعوم على صدرها ،
يهدد أساه فتحلو له صبرة أطفالها : الجدول ، والبلايل ، والغاب ،
والفجر ، والنجوم ، والنهر ، والضياء ، والصدى ، والطل ، والنسيم . .
ان الانسان ابن الطبيعة البكر ، وهو أدنى الى قلبها من هؤلاء جميعا ، لأنه
أشد بها علوقا وأكثر لها تمجيدا . .

ليت لي أن أعيش في هذه الدنيا	سعيداً بوحدي وانفرادي
أصرف العمر في الجبال ، وفي الغابات ،	بين الصنوبر الميساد
وأغني مع البلايل في الغاب ،	وأصغي الى خرير الوادي
وأناجي النجوم ، والفجر ، والأطياف	والنهر ، والضياء الهادي
عيشة للجمال ، والفن ، أبغيتها	بعيدا عن أمتي وبلادي
لا أعني نفسي بأحزان شعبي	فهو حي ، يعيش عيش الجماد
وبعيداً عن المدينة والناس ،	بعيدا عن لغو تلك النوادي (١)

يقول الأستاذ أحمد المختار الوزير معللاً غضبه الشبابي هنا :

(فشعور أبي القاسم بدائه (في هذا القصيد) ليس الا خيطاً
مفرداً ، له حصة من الوجود النفسي الشامل له ولغيره ، من خيوط أخرى
مكونة بإضافتها اليه ، وبإضافته اليها نسيج الحالة النفسية المعبر عنها .
وليست حصة ذلك الخيط من الوجود النفسي هي أوفى الحصص ،
ولا نصيبه من ذلك الوجود هو أوفى نصيب ، بل ان أثر الحياة الاجتماعية
ليبدو من خلال القصيد ، أبعد توغلاً في نفس الشبابي من كل شيء سواه
• مما له اتصال بعلمته واشتداد علمته » (٢) .

(لقد وسع قلب الشبابي ولبه حياة الناس يومذاك وشعر بما كان
شائعاً مستفيضاً في دواخلها من سوء وفساد ، فلم يضيق بشيء من ذلك
بمثل ما قد تألم له . • ولم ينشد لنفسه فراراً منه ، بمثل ما أراد له من
صلاح . • ولم ييأس من قدرته على صلاحه ، بمثل ما آمن به من تلك القدرة
على الصلاح ، وهل قصيدة « أحلام شاعر » الا صورة من ذلك الايمان ،
وان تغشاها لون من اليأس ؟ أليس الأحق أن نقول : ان الشبابي في هذه
القصيدة ، لا ينشد الفرار ، وإنما كان ينشد الفرار ؟ وهيهات أن يجد
الفرار ، ما دام مردداً بين النقص والكمال) (٣) .

(١) الديوان - قصيدة « أحلام شاعر » ص ١١٤ .
(٢) (٣) مجلة الفكر - عدد أكتوبر سنة ١٩٥٦ مقال « أحلام شاعر » ص ٣١ .

وهو منسحر بالغاب ينشده مستراضا ومعزلا ، وقدرى هوى ،
ومجلى الهام ، ومسرح أحلام ، ومغنى شاعر ٠٠٠ فيه يتملى سحر الطبيعة
وسحر الحبيبة فى حنان ولذة وذبول ، وفيه يروى من الحسن المعشوق
فى أمان وفرحة ٠٠٠

كان فيه النسيم ، يرقص سكرانا	على الورد ، والنبات البليبل
وضباب الجبال ، ينساب فى رفق	بديع ، على مروج السهول
وأغاني الرعاء ، تخفق فى الأغوار	والسهل ، والربا ، والتلول
ورحاب الفضاء تعبق بالألحان	والعطر ، والضباب الجميل
والملك الجميل ، ما بين ريحان	وعشب ، وسنديان ، طليل
يتغنى مع العصافير ، فى الغاب	ويرنو الى الضباب الكسول
وشعور الملك ترقص بالأزهار	والضوء ، والنسيم ، العليل (١)

ويروى الأستاذ كرو عنه أنه (لم تكن للشبابى طيلة حياته أمنية
أو رغبة يحن إليها ويرغب فى تحقيقها ، كالغاب بسروه وسنديانه
وبكل ما فيه من نبات وحيوان ، وسماء صافية ، وماء نير) (٢) .

الغاب ٠٠٠ الغاب ٠٠٠ يروعه ويستهو به ٠٠٠ وهو عنده :

بيت ، من السحر الجميل ، مشيد	للحب ، والأحلام ، والالهام (٣)
فى الغاب سحر ، رائع ، متجدد	باق على الأيام والأعوام
وشبلى كاجنحة الملائك ، غامض	سماه يرفرف فى سكون سنام
وجداول تشدو بمغسول الغشا	وتسير ، حاملة ، بغير نظام
ومخارف نسج الزمان بساطها	من يابس الأوراق والأكنام
وحنا عليها الدوح ، فى جبروته	بالظل ، والأغصان ، والأنسام
فى الغاب ، فى تك المخارف ، والربا	وعلى التلاع الخضر ، والأجسام
كم من مشاعر ، حلوة ، مجهولة	سكرى ، ومن فكر ، ومن أوهام

وللغاب عنده قصة بل أقاصيص :

لله يوم مضيت أول مرة	للغاب ، أزرع تحت عبء سقامي
ودخلته وحدى ، وحولى موكب	هزج ، من الأحلام والأوهام

(١) الديوان - قصيدة « ذكرى صباح » ص ١٦٢ .

(٢) كتاب « كفاح الشبابى » للأستاذ كرو ص ٩٢ .

(٣) الديوان - قصيدة « الغاب » ص ١٨٨ - ١٩٠ .

ومشيئت تحت ظلاله متهيبا
أرئو الى الأدواح ، فى جبروتها
قد مسحها سحر الحياة ، فأورقت
وأصيح للصمت المفكر ، هاتفا
فاذا أنا فى نشوة شعرية
والغاب ...

ساج ، والحياة مصيخة
وعزوس أحلامى تداعب عودها
روح أنا ، مسحورة ، فى عالم
والأفق ، والشفق الجميل ، أمامى
فيرن قلبى بالصدى وعظامى
فوق الزمان الزاخر الدوام

وفى الغاب (١) نفث همومه ، وتخفف من أحزانه ، ونسى النامى
وحبائلهم وسخافتهم ٠٠ فى كل شئ ٠٠٠ كل شئ ٠٠٠ تظهر وكأنه
ولد من جديد ٠٠٠ تفتح للحياة والضوء ، والتسيم ٠٠٠ تفتح للخيال
والشعر ٠٠ :

فى الغاب ، فى الغاب الحبيب وانه
ظهرت فى ناز الجمال مشاعرى
ونسيت دنيا الناس ، فهى سخافة
وقيست من عطف الوجود وحبه
فرايت ألوان الحياة نضيرة
ووجدت سجر الكون أسمى عنصرا
فأهبت - مسحور المشاعر ، حالما
« المعبد الحى المقدس هاهنا »

لقد تكاثرت الهموم حوله حتى انقطع لها وصار لها كاهنا :
فأخلع مسوح الحزن تحت ظلاله والبس رداء الشعر ، والأحلام (٢)

روعى النقاد هذا الشعر فامن بعضهم عليه ، وسلم بأن الطبيعة
(تفجر له من ينابيع المعرفة أصفاها وأعذبها ، وتكشف له عن جمالها
وفتنها فى ساعات الصفاء والانفراد وتخلق له دنيوات أخر ، تخصصه
بها وتؤثره (٣))

(١) منفصل الحديث عن سر تعلق الشايبى بالغاب فى فصل « الشايبى والمهجر »

(٢) الديوان - قصيدة « الغاب » من ١٩١٠

(٣) الأستاذ عبد العزيز عتيق - مجلة الامام - العدد الخامس السنة ٣٢ بتاريخ

٣١/١٢/٣٤ ص ٣٠

وتجاهله البعض الآخر . لا بل أن هناك من اغمض عينيه ثم راح يقول أنه لا يرى شيئا ، وأن وصف الطبيعة عند الشابي (. . .) قليل جدا بل هو فادر بلاضافة الى مجموع شعره (١) . وهي دعوى كبيرة كما ترى لا تترك عادة بغير تلطيف فأردف الناقد قائلا : (على أن أقرب شعره المنشور الى وصف الطبيعة بالمعنى المقصود قصيدتان : قصيدته « في تونس » ، وقصيدته « من أغاني الرعاة ») (٢) .

الطبيعة عند الشابي قصيدتان قصيدتان فقط . . .

لقد ذهب الشابي في طفولتي الباكرة . فأنا لم أره الا في شعره . أما معرفتي بالناقد فلا تتجاوز كتابه (شاعران معاصران) أي أني لم أر الشاعر أو الناقد ، ولكني رأيت تحاملا ، فليست الطبيعة بالموضوع الوحيد الذي تلب فيه الأستاذ فروخ الشابي بل حاول أن يفض من هتفة الوطنية عنده ثم لم يكفه هذا كله فغمزه في دينه ! تلمح هذا كله في موضعه من الكتاب . . . فلنأخذ الشاهد من موضوع هذا الفصل وهو الطبيعة . . . وأعنى قصيدة (أغاني الرعاة) التي اتقى النقداء كلهم (٣) عندها ، لا يستجدها الأستاذ فروخ الا بعد أن لفتت أنظار الشاعر الأسوجي « كارل ألوف سفينغ » فنقلها الى اللغة الأسبوجية (السويدية) . . .

ومع هذا لا بأس من أن يشوب المدح بشيء من التجريح ، فالقصيدة موفقة لأنها (خارجة من قلب الشاعر ، وأحسن تعبيرا عن نفسه من عدد من قصائده التي تكثر الصنعة المعنوية فيها) (٤)

لا ضير فالشابي مهما تفوق نبوغه ، لا يعدو أن يكون ابن الحياة ، والحياة على غناها وصلاتها يراها كثيرون كالحقة أو مكفهرة ، ومن هؤلاء الشابي نفسه في أزمانه . وإن كان مفتونا بها في صفوه وانسراحه . . .

(١ ، ٢) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ فروخ ص ٢٠٠

(٣) يقول الأستاذ كرو في كتابه « كفاح الشابي » ص ٩٢ .

(٤) وفي قصيدة « أغاني الرعاة » قطعة حية من فؤاد الطبيعة ، وصورة متحركة من مشاهدنا الخلابة ، وهي أعلى وأعمق قصيدة تصف الرعاة وحياتهم ، والمراعي وجمالها ، في شعرنا العربي كله .

وصاحب كتاب « الشاعران المتشابهان » يرى فيها « صورة فنية نادرة » ص ٣٩ .

(٤) كتاب « شاعران معاصران » ص ٢٠٤

فلا بأس أن تحيفه نقد ، أو تحامل عليه ناقد فقد أنصفه كثيرون ...
هذا كاتب يراه بعد مقارنة وإعية ...

(...) يقف الشابى قمة شامخة بين الشعراء المعاصرين ، الذين
ظفرت الطبيعة فى شعرهم بنصيب كبير (...) (١) .

(ان الطبيعة التى يصورها الشابى ليست متعددة المشاهد
ولا متنوعة المناظر ، وشعره خال من « اللوحات » الطبيعية الكاملة ،
فلا ترى وصفا خاصا بنهر ، أو روض ، أو غير ذلك من المجالى الطبيعية
الرائعة . ولكننا حين نقرأ شعره نحس أن الشاعر يعبد الطبيعة عبادة
عميقة ، تصل به الى درجة الفناء فى جمالها الأخاذ ، ويدرك أن شعوره
بها لم يكن شعورا بسيطا ، ولكنه كان شعورا مركبا ، لأنه لا يتذوقها
فى سذاجة المتلذذ المتنعم ، الذى لا يشغله منها الا ما تهينه له من راحة
وظل وفيه ... وأغاثى الرعاة عند الناقد (...) من أعماق شعر الطبيعة
فى الأدب العربى (٢) .



وعبادة الطبيعة ليست مجرد وصف سخى ، نخلعه مجاملين على
الشابى . فان هذا اللون من الشعور كان يعرفه الشاعر ويتعمقه ويؤمن
به عن وعى وبصيرة . فلا غرابة أن يدين به فى حماس وحب
عظيمين ...

هذا الايمان ... هذا الحماس ... هذا الحب ... نستشفه من
رأيه فى نظرة الأدب العربى الى الطبيعة ... لقد كان الشابى يرى
(أن النظرة العربية الى الطبيعة بسيطة ازاء النظرة الغربية ، مهما بلغت
من العمق والشعور . وشعراء العربية لم يعبروا عن احساسات شعرية
عميقة ، لأنهم لم ينظروا الى الطبيعة نظرة الخاشع الى الحى الجليل ، وانما
كانوا ينظرون اليها نظرتهم الى رداء منمق وطراز جميل ، وهى لا تزيد
عن الاعجاب البسيط . ومثل هذه النظرة الفارغة لا ينتظر منها أن
تشرق بالخيال الجميل . لأن الخيال الشعرى منشؤه الاحساس الملتهب ،
والشعور العميق . وشعراء العربية لم يشعروا بتيار الحياة المتدفق فى
قلب الطبيعة الا شعورا بسيطا ، خاليا من يقظة الحس ، ونشوة
الخيال (٣) .

(١ ، ٢) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ خليفة محمد التليسى من ٨٣ - ٨٤ .

(٣) كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ التليسى من ٩٣ - ٩٤ .

شعب وشاعر

أيها الشعب ! ليتنى كنت خطابا
ليت لى قوة العواصف ، يا شعبي
فى صباح الحياة ، ضمخت أكوابي
ثم قدمتها اليك ، فأهرقت
فأهوى على الجذوع بفاسي !
فألقي اليك ثورة نفسي !
وأترعتها بخمرة نفسي !
رحيقي ، ودست يا شعب كاسي !

اننى ذاهب الى الغاب ، يا شعبي
والشقى الشقى من كان مثلى
لأفنى الحياة ، وحدي ، بياسي
فى حساسيتي ، ورقة نفسي (١)

طالما شكا الشابي وتالم حتى عدلناه ولكننا يجب أن نقر - هنا على الأقل - أن ياسه لم يصدر عن ضعف وهروب وخمول ، ولكنه يأس الجذوة المتضربة التى تتوهج بالنار ، وتزغرد بالشر ، لتوقظ الرماد الهامد حولها ، وتبعث فيه منها النار المقدسة ... فلا يصيح ولا يعين ...
الا أن الشاعر لم ييأس الا بعد أن أجج قصيدة « النبي المجهول » فمما ظفر بجواب ...

لهذه القصيدة قصة يرويها لك أبو القاسم كرو فى كتابه (كفاح الشابي) :

(... وتقوى الرجعية الباغية على طليعة الأحرار ، فيعلن الحداد من فوق منابر الجوامع ، ويحكم على الشابي بالجلود والكفر على أعمدة الصحف ، وتتألب عناصر الرجعية على بذرة الإصلاح النابتة فى قلوب الشيبية ...) (٢)

(١) الديوان - قصيدة « النبي المجهول » ص ١٠٣ .

(٢) كتاب « كفاح الشابي » ص ٧٠ .

أحسب أن هذه الثورة لم تمنع الأستاذ كرو من الجهر بأن (قصيدة « النبي المجهول » وهذه الأبيات منها بوجه خاص « المطلع » لهى أعظم شعر قاله شاعر عربى ، فى حب الشعب ، وفى التعلق به ورغبة الخير له) (١) .

أخيرا ينصفه قومه !

وقصيدة « النبي المجهول » من القصائد التى شغلت النقاد وتجمعت حولها الآراء ...

تساءل الأستاذ محمد العروسى المطوى :

ما هو شعور الشباب نحو شعبه ؟ وكان جوابه :

(يتمثل هذا الشعور أولا فى الاشفاق والحسرة ، وإبداء العطف والحنان ، والاستعداد للفداء . ثانيا فى إثارة الشعب ضد الظلم والطغيان ، وفساد الأوضاع ، وباطل التقاليد ، ويشتمل ثالثا فى تهديد الظالمين والطغاة بثورة الشعب وطغيانه ، وسيله الجارف الغشوم . ثم يتمثل هذا الشعور فى تشاؤم الشباب ويأسه وصب جام غضبه عليه ، ثم الاعتزال والهروب الى عالم خيالى ، اختاره ليعيش فيه ، مع عالمه العاطفى الذى شاده من آماله وآلامه الاشفاق والعطف) (٢) .

وينتهى من هذا الى : أن الشباب يشس وطفى به اليأس الى النقمة ، الى الغضب العنيف الصاحب . . انه ليثور حتى يتمنى تحطيم هذا الشعب وإزالته من عالم الحياة . لأنه لا يصلح للحياة فى نظر الشباب ذلك (النبي المجهول) (٣) .

وهكذا تكون رسالة الشباب فى نظر الناقد (قد انتهت بسلبية بغیضة ويأس قاتل . .) (٤) .

هذا حين يرى الأستاذ محسن بن حميد أن :

(الشبابى هو فى زمانه الشاعر الوحيد ، الذى كان يعيش مأساة

(١) كتاب « كفاح الشباب » ص ٧١ .

(٢) كتاب « ذكرى الشباب » مقال « الشعب فى شعر أبى القاسم الشبابى » ص ١٧ .

(٣) كتاب « ذكرى الشباب » مقال « الشعب فى شعر أبى القاسم الشبابى » ص ٢٤ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٤ .

شعبه كلها ، ويحاول أن يبعث فيه روح الثورة على الموت والايما
الصادق بانتصار الحياة ...

هذا يجعل الشابي في نظري أبا الشعر العربي المعاصر ، لأنه أول
من عاش مأساته الخاصة في مأساة شعبه ، ولم يحاول قط في أنانية
واذعاء ، أن يفصل هذه عن تلك ولربما لم يكن التلميح أو الإشارة إلى
مأساته الخاصة إلا مجرد وسيلة للتعبير عن المأساة العامة (١) .

ويقول الأستاذ بوراوى الملوح :

(شعر الشاعر بتفاهة بعض الرجال من معاصريه واتضح
له سذاجة غاياتهم فحاول الكفاح عن كيان هذا الشعب ، واستخدم كل
ما لديه من قوة جارفة ، وقريحة صاخبة ، ليدفعه إلى الوعي الحقيقي .
ولما رأى أن الصيخور لا تتزحزح ، انهال عليها ضربا وتهديدا
وسخرية ...) (٢) وهنا استشهد الكاتب بمطلع قصيدة (النبي
المجهول) ...

ثم يقول :

(وأظنك ليبي ، لا تجهل أن محبة الشعب ليست في الفاظ معسولة
تقدمها له لتخدره ، بل إنما المحبة الحققة في صيحات ثائرة صاخبة ترسلها
لتوقظ همته) (٣) .

حين يصف الأستاذ الشاذل القليبي ثورة الشابي بأنها (ثورة
تهديدية ناتجة عن يأس ، متغلغل في أعماق نفسه ، وملل وسآمة ،
وارادة تحطيم وتقويض ، هذه العناصر الثلاثة هي ينباع قريحته) (٤) .
وهذه القصيدة نفسها يتخذ منها الأستاذ التليسي (نقطة انطلاق
في تحديد وطنية الشابي ، ذلك لأنها تحمل خطوطا عريضة واضحة تدل
على مدى احساسه بضرورة البعث والتطور ، وتشير إلى الأهداف التي
يريد لها لمجتمعه . وهي في عنفها وقسوتها أدل على نواحي الضعف التي

(١) مجلة الفكر عدد أكتوبر سنة ٥٦ ص ٣٤ - ٣٥ .

(٢) مجلة الشباب عدد ٦ فبراير سنة ٥٧ « مقال - أبو القاسم الشابي شاعر

الوطنية » ص ٣٨ .

(٣) مجلة الشباب - عدد ٦ فبراير سنة ١٩٥٧ « مقال أبو القاسم الشابي شاعر

الوطنية » ص ٣٧ .

(٤) مجلة الفتوة عدد ١٠ السنة الأولى - أكتوبر سنة ٥٣ من مقال « الشابي وتجربة

النجر البعيد » ص ٩ .

كان يزرع الشعب تحت عبئها ، ونواحي القوة التي يتطلع اليها الرواد من الشباب (١) .

والدكتور شوقي ضيف يفسرها : بأن الشباب لم يكن يلقي خصومه بشيء من التسامح (فقد كان حاد الحس والشعور ، فتحول يقدفهم بهذه الحجارة يريد أن يدمى رؤوسهم ، ووسع الدائرة التي يقذف فيها بحجارته ، فلم يقف بها عند طائفة معينة من ٠٠٠ شعبة ، بل عم بها الشعب في ساعة غضبه ، فاذا هو يصب عليه طوفانا من الأحجار) (٢) .

ثم يقول بعد سلسلة من الأبيات ، (ولا يمكن أن تفسر هذه الثورة على شعبه الا بأنه كان يستقبل شعره استقبالا فاترا يصب جام سخطة عليه ، حين رآه لا يعرف مواهبه ، ولا يستقبل أناشيده بالحرارة التي ينبغي أن تستقبل بها) (٣) .

ويبدو أن الدكتور احسان عباس يشايعه في هذا الرأي ، فعنده أن : حملة الشاعر على الشعب ليست لنقص حقيقى فى الشعب نفسه ، بل لنقص اعتبارى - لأن الشعب أبى أن يعترف بعنقريته الشعرية ، التي رمز لها الشاعر بالكأس والأزاهر (٤)



أهذا كل السبب ؟ أيذكى سبب كهذا مثل وقدة الشباب ، ويعبىء مثل شعنته ؟ لا أخال ٠٠٠ ولماذا نغالط الحقيقة ٠٠٠ ألم تأخذ شعوبنا العربية في أيام الشباب سنة من نوم ، بل غط بعضها في سبات عميق ؟ (٥) ألا يعد الرقاد نقصا في عصر طائر مجنح ؟

-
- (١) كتاب « الشباب وجزران » ص ٧١ .
 (٢) الدكتور شوقي ضيف ، « كتاب دراسات في الشعر العربي المعاصر » ص ٦٣ .
 (٣) الدكتور شوقي ضيف ، « كتاب دراسات في الشعر العربي المعاصر » ص ٦٣ .
 (٤) الدكتور احسان عباس كتاب « فن الشعر » ص ٢٤٠ .

(٥) يقول الأستاذ بوراوى الملوح « الشعب التونسي في عصر أبي القاسم الشابي » لا يشبه شعبنا التونسي اليوم في بعض مظاهره وقد شعر الشاعر بتفاهة بعض الرجال من معاصريه ، واتضحت له سذاجة غاياتهم فحاول الكفاح عن كيان هذا الشعب ، واستخدم كل ما لديه من قوة جارفة ، وقرينة صاخبة ليدفعه الى الوعي الحقيقى . ولا رأى أن يصخور لا تنزحزح انحال عليها ضربا وتهديما وسخرية » .

أحسب أن الذي يؤذى الشابي أكثر ، إنما هو عدا الاستجابة لمعاني القوة وانتفاضات الحياة والكرامة في شعره فقد كان هذا هدفه الأول وحلمه الموقر . . . كان هذا الهدف يأتي عنده قبل التقدير الذي ان سره ككل انسان فهو لا يغنى عنه شيئا حين تحقق الاستجابة الشعبية لشعره فورة دافعة الى أمام . . .

كان اذا نكا طاغية جرحا لوطنه ، فكانهما مس شاعرنا شواظ فيهدر كسيل ثبات . وتتدفع منه هذه الآيات تتضاغي :

لك الويل يا صرح المظالم من غد	اذا نهض المستضعفون ، وصموا
اذا حطم المستعبدون قيودهم	وصبوا حميم السخط أيا تعلم
أغرك أن الشعب مغض على قذى	وأن القضاء الرحب وسنان، مظلم
ألا ان أحلام البلاد دفينه	تجمجم في أعماقها ما تجمجم
ولكن سيأتي بعد لأى نشورها	وينشق اليوم الذي يترنم
هو الحق يغنى . . ثم ينهض ساخطا	فيهدم ما شاد الظلام ، ويحطم
غدا الروح، ان هب الضعيف ببأسه	ستعلم من منا سيجرفه الدم
لك الويل يا صرح المظالم من غد	اذا نهض المستضعفون وصموا (١)

ألا يزدهيك الغموض الرهيب ، يكمن خلف « صموا » ؟

وفي قلبه من المستعمر نار لا تخبو . فيا أيها المستعمر الباغى :

رويدك ! لا يخدعك الربيع	وصحو الفضاء ، وضوء الصباح
ففى الأفق الرحب هول الظلام	وقصف الرعود ، وعصف الرياح
جدار ! فتحت الرماد اللهب	ومن يبذر الشوك يجن الجراح (٢)

هذه الرقة الحاملة الموشاة التي طاعتك في غنائها للمحب والطبيعة . . .
هذه الرقة تنتفض فجأة اذا ذكره ذاكر بحال شعبه . . هنا يهب المارد فيه كمن مسته نار ، ويمطر قومه حاصبا من اللفظ اللاهجة والاثارة حتى يحطموا القيد ويسحقوه سحقا :

والقيد يألفه الأموات ، ما لبثوا أما الحياة فيبليها وتبليها (٣)

ان فى قلبه من المستعمر جمرة تتلذع . . . ذلك القوى الظلوم الذى يعصر من الآلام السود لضحاياهم من الشعوب لذة ومدا .

(١) قصيدة « الى الطاغية » ص ٤٣ من الديوان .

(٢) قصيدة « الى طغاة العالم » ص ١٨٥ من الديوان .

(٣) قصيدة « سر النهوض » ص ١١٨ من الديوان .

يتحسار صاحبا ٠٠ لا يرام يا خلقت في الوجود الا طعاما (١)

وهو مع هذا يريد ، من غيره ، أن يمزق هذا الشعب الذي يتمزق
هو من أجله ٠٠ من وطنية وحيوية وعرام :

أين يا شعب ، قلبك الخافق الحساس	أين الطموح ، والأحلام ؟
أين يا شعب ، روحك الشاعر الفنان ؟	أين الخيال والألهام ؟
أين يا شعب ، فنك الساحر ، الخلاق ؟	أين الرسوم والأنغام ؟
ان يم الحياة يدوى حواليك	فأين المفامر ، المقدم ؟
أين عزم الحياة ، لا شيء الا	الموت ، والصمت والأسى والظلام
عمر ميت ، وقلب خواء	ودم ، لا تثير الألام
وحياة ، تنام في ظلمة الوادي	وتنمو من فوقها الأوهام
أى عيش هذا ، وأى حياة	(رب عيش أخف منه الحام) (٢)

انه يريد أن يوقظ النيام ٠٠ أن يدفع الجامدين بقبضة يده ، أن
يلفحهم بحر أنفاسه ٠٠ أن يحرقهم بوقدة أشواقه ليخرجوا الى الحياة
السليمة البريئة من القيود ٠٠

انى لأحسب لو تجمع قومه في رجل واحد لهزه هذا عنيفا متواليا ،
أو لصفحه صفعة فيها نار وشوك ليفيق ٠٠ لتدب فيه الحياة العاملة
الساعية الطموح ٠٠ الحياة ذات الاشواق ، والغايات ، والرغائب ٠٠
الحياة الراكضة المتدافعة ٠٠ الجادة العاملة ٠٠ البريئة من آفة الركود
وعطن الجمود وخدر التبطل ٠٠

قد مشيت حولك الفصول وغنتك	فلم تبتهج ، ولم تترنم
ودوت فوقك العواصف والأنواء	حتى أوشكت أن تتحطم
وأطافت بك الوحوش وناشتك	فلم تضطرب ، ولم تتألم
يا ، الهى ! أما تجس ؟ أما تشدو	أما تشبكي ؟ أما تتكلم ؟
مل نهر الزمان أيامك الموتى	وأنقاض عمرك المتهمم
أنت لا ميت فيبلى ، ولا حى	فيمشى ، بل كائن ، ليس يفهم (٣)

انه يريد أن يثير حفيظته على المستعمر ، أن يلهب نخوته ، أن
يشعل ناره ، فلا يجد ولا أجد أنا معه أقسى من هذين البيتين
للاستنفار :

(١) قصيدة « أبناء الشيطان » من ١٢٠ من الديوان

(٢) قصيدة « الى الشعب » من ١٥٧ من الديوان

(٣) قصيدة « الى الشعب » من ١٧٥ من الديوان

فألزم القبر : فهو بيت شببيه بك فى صمت قلبه ، وخرابه
واعبد «الأمس» واذكر صور الماضى فدنيا العجوز ذكرى شتبايه (١)

احسب أن لو قيلا بين سكان الحفر لهبوا من رقدة العدم مرعدين .
وصنف أنت هذه الأبيات :

واذا مرت الحياة حواليك جميلا ، كالزهر غضا صباها
فاحذر السحر ، أيها الناسك القديس إن الحياة يغوى بهاها
وتمل الجمال فى رمم المسوتى بعيدا عن سجرها وصداها
وتغزل بسحر أيامك الأولى وخل الحياة تخطو خطاها (٢)

هل هى سخرية حائقة أم صرخات تخترق أذن الأصم ؟

وكما لم تغب الطبيعة عنه فى رضاه لم تزايله صورتها فى غصبه فهو
يلمحها فى ثورته على قومه النيام فى سخرية مرور :

واذا هبت الطيور مع الفجر تغنى بين المروج الجبيلة
ومشى الناس فى الشعاب ، وفى الغاب وفوق المسالك المجهولة
ينشدون الجمال والنور والأفراح والمجد ، والحياة النبيلة
الحياة النبيلة : هذه هى المقصودة

فاغضض الطرف فى الظلام وحاذر فتنة النور .. فهى رؤيا مهولة
يسخر من نظرات قومه الى الحياة وآرائهم فيها ..

وصباح الحياة لا يوقظ الموتى ولا يرخم الجفون الكليله (٣)

كل شئ - الاك - حى ، عطوف يؤنس الكون شوقه ، ونشيدمه
فلماذا تعيش فى الكون يا صاح وما فيك من جنى يستفيدمه
لست يا شيخ للحياة بأهمل أنت داء يبيدها وتبيده
أنت قفر ، جهنمى لعين مظلم ، قاحل ، مزيج جموده (٤)

لقد وقعت الواقعة ..

أنت يا كاهل الظلام حياة تعبد الموت .. أنت روح شقى
كافر بالحياة والنور .. لا يصغى الى الكون قلبه الحجرى
أنت قلب ، لا شوق فيه ولا عزم وهذا داء الحياة الدوى

(١ ، ٢) قصيدة « الى الشعب » من ١٧٥ من الديوان

(٣) قصيدة « الى الشعب » من ١٧٧ من الديوان

(٤) من قصيدة « الى الشعب » من ١٧٨

أنت دنيا ، يظلمها أفق الماضي
مات فيها الزمان ، والكون الا
والشقى الشقى فى الأرض قلب
أنت لاشىء فى الوجود ، فغادره
وليسل الكآبة الأبدى
أمسها الغابر ، القديم ، القصى
يومه ميت ، وماضيه حى
الى الموت فهو عنك غنى (١)

ان الشاعر يعنى على شعبه فى حرقه محمولة ، تحامله على الماضى
واستعلاءه به ، ولا يسايره كشعراء آخرين بالتغنى بماضيه والطنطنة به
.. حقا لقد فهم الشاعر رسالته .. بعث وايقاظ ، ودفع واع الى الأمام
لا مسلاة ولا تزويق وتملق غرور الشعوب ..

يقول الدكتور شوقى ضيف والحق يظهره :

وهذا الشعر السياسى أو الوطنى ، كان منتشرا فى كل بلاد الشرق
الأوسط ، فى مصر والشام والعراق ، ولكن شاعرا لم يبلغ فى هذه
البلدان ما بلغه الشابى فى تونس (٢) .

وهذا مواطن له لا يكتم الشهادة بل يعلنها فى غير موارد أن
(الشابى وشعره قد ارتبطا بتاريخنا ، وأصبحت حلقة ذهبية كبيرة من
أمجادنا الخالدة . بل انى أزعم أن تاريخ شعبه الحديث لم يبدأ
الا بالشابى) (٣) .

وهذا الأستاذ خفاجى يرى فى قصائده ذخيرة مميزة فى التراث
الأدبى المعاصر ، ومبعث قوة خارقة لأدب الانبعاث القومى فى العالم
العربى لا فى تونس فحسب (٤) .

جاءه بالنقد وقسا فيه من عذابه بواقع قومه ، واشفاقه عليهم ..
اشفاق وحب ، لا نقمة وتشاؤم ويأس من امكان الاصلاح كما يقول
الأستاذ فروخ (٥) .

(١) من قصيدة « الى الشعب » ص ١٧٨ .

(٢) اقرأ كتاب « دراسات فى الشعر العربى المعاصر » للدكتور شوقى ضيف ص ٥٨ .

(٣) مقدمة كتاب « كفاح الشابى » للأستاذ كرو ص ٤ .

(٤) كتاب « مذاهب الأدب » للأستاذ خفاجى ص ١٦٨ .

(٥) يقول الأستاذ فروخ فى كتابه « شاعران معاصران » ص ١٦٥ : « ولم يكن بإمكان
الشابى الا أن يتأثر بحال تونس فى التمس والفقر والنظم . ولقد أنصف الشابى بلده
فى الشعر فلم يكتف بأن يصفه وصف ناظم أو راحم فقط ، بل كان يحث قومه على الرقى
وإمتيهم بالنتائج التى يمكن أن يصلوا اليها اذا استيقظوا ونهضوا ، غير أنه أيضا كان
فى بعض شعره السياسى متشائما ، نافضا كلتا يديه من امكان الاصلاح أو النهوض » .

ولا أرى في صيحات الشابي الرائدة بأسا ، ولكنها قوة الحائق على الوضع الذميم من اباء وولاء ، قسوة الملهوف على اليقظة الباعثة ..

(وعندي أن كثيرا من آرائه في هذا الباب كان تقليدا للشعراء الذين طرخوا مثل هذه الموضوعات .. وإذا نحن قبلنا ما قاله أبو القاسم محمد كرو ، من أن الشابي قرأ كثيرا للمعري وابن الفارض وابن الرومي والخيّام .. وجبران وسائر أدباء المهجر ، فأننا لا نعدو - والحق معه - في أن نرد كثيرا من هذه النقمة الى هذه المطالعات وحدها) (١) .

وأين اذن تأثر المواطن الطبيعي الذي قررته سالفا ؟ !!

والشابي شاعر ناظم يزعم أنه يريد أن يؤدي رسالة ، ولكنه في الحقيقة يحمل معولا ليهدم به كل شيء : الحياة والناس ، والبلاد والوطن والأمة (٢) .

قف قليلا نناقش الناقد الذي ناقض نفسه خلال أربع صفحات فقط من كتابه فيبينما يرى الشابي ص ١٦٥ (يبحث قومه على الرقي ويمنيهم بالنتائج) اذ به ينسى ويراه في ص ١٦٩ (معولا يهدم البلاد والموطن والأمة !!) .

وقبل هذا رد كثيرا من نقمة الشابي في رأيه الى مطالعائه عند المعري وابن الفارض وابن الرومي والخيّام وجبران . فهل قياسا الى تفسيره هذا يجوز لنا أن نطبق رأيه على هؤلاء ؟ هل المعري وابن الفارض وابن الرومي وجبران معاول أيضا أم ماذا ؟؟ .

أحسب أن الناقد هو الناظم على الشابي فان الشاعر اذا جاز عليه ككل فنان النقد لا يجوز عليه أبدا - انسانا وموطنا وفنانا - أنه هدام يهدم البلاد والوطن والأمة ..

ليس هذا نقدا ، ولكنه سباب وهدم ، لا خير فيه لأحد حتى للناقد نفسه ..

اقرأ كتاب (الشاعران المتشابهان) الشابي والتيجاني فما كنت لأطلب اليك قراءة هذا الكتاب ، لولا دلالة المشابهة بين الشعارين فحيثما توجد تقاليد رثة ورواسب متعفنة ، وتفكير سقيم ، وأوضاع فجّة ومجتمع راكد ، ويقابل هذا فرد متوثب متحفز الخس والضمير ، يوجد

(١) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٦٥ .

(٢) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٦٩ .

تعبير السخط والثورة الجامحة والاستشارة ٠٠ ومن هذا يتبين أن الشابي لم تكن نغمته شخصية ، ولم تكن حقدا بل كانت ثورة طبيعية - كغيرها من ثورات الشعراء الثائرين في أوضاع مشابهة (١) - تهيأ لها الميدان ومولدات الشرر ٠٠

على أن الناقد لم يلبث أن ناقض نفسه :

(وقصائد الشابي في الوطنية والسياسة والقومية ، لا تقل عن قصائده الجياد في الغزل من حيث البراعة والقوة ، حتى أن شهرة الشابي كلها مدينة لشعره القومي أو لبضعة أبيات من شعره القومي) (٢) !!

ويقول الناقد في ص ٢٢٧ من كتابه عن الشاعر (انه ينظم الشعر ليسرى به عن نفسه ويصور حاله ٠ ثم هو لا يتكسب بشعره ، ولا يتملق فيه أحدا ، بل يريد أن يرضى ضميره ، ويرضى به وطنه) ٠

اذن أين المعول الذي حمله الشابي ليهدم به كل شيء : الحياة والناس والبلاد والوطن والأمة !!٩

حتى قصيدة (ارادة الحياة) لم تسلم منه ، بل جاء حديثه عنها مثالا من أمثلة عديدة للتخبط في النقد لا تكاد تستقر معه على مدح أو قذح أو مجرد تقويم صحيح ٠٠ افسح صدرك معي لتسمع (انها أى قصيدة ٠٠ - ارادة الحياة - بلا ريب أشهر قصائده ، ولعلها أحسن قصائده أيضا ٠ ثم انها قصيدة عامة : ليست وطنية في التغنى بتونس وحدها ولا سياسية تشنع بالحرب فتوهم أن صاحبها ميال الى معسكر دولي مخصوص ، ولا هي اقليمية ضيقة الأفق ٠ على أن أحسن ما فيها أنها مفعمة بروح الأمل ، مليئة بالثقة بالنفس عند القول ٠ وهذه القصيدة كمعظم شعر الشابي ، فيها صور شعرية جميلة وتشابيه واستعارات جديدة صحيحة ، غير أنها أيضا - كمعظم شعره - مملوءة بالرمز الذي يجعل المعاني غامضة في كثير من الأحيان ، على أن قيمة هذه القصيدة انما هي في أبيات معدودة متفرقة ، ينقص من جمالها أنها تأتي بين أبيات فيها معان مكررة معادة) (٣) ٠

حرنا معك يا صاحبي ٠٠

-
- ٠ (١) اقرأ ص ٢٢ من كتاب « الشاعران المتشابهان »
 - ٠ (٢) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ فروخ ص ٢٠٧
 - ٠ (٣) كتاب « شاعران معاصران » للأستاذ فروخ ص ٢١٤

وكأنى بالأستاذ خليفة محمد التليسى يرد عليه حين يقول :

(والوضوح هو الدعامة الاولى للبساطة . ولذا أجدنى مخالفا لمن يتهمون هذا الشاعر بالغموض وتعمد التعابير الرمزية . وان شعره من الوضوح بحيث لا يحتاج الى شرح أو اعائن القريحة فى فك تعابيره . ومثل هذه المحاولة خليقة أن تؤدى الى افساد الأجواء النفسية التى تحيط بالفاظه ، لأنها ألفاظ عادية مألوفة ، تكمن قوتها فى هذا الجسد الشعارى الذى يوشحها بالسحر . (١))



وقصيدة (ارادة الحياة) هذه من القصائد المميزة عند الشابى ، بل ان أكثر الذين سمعوا بالشابى ، لا يكادون يذكرونه الا بتلك القصيدة كما يقول الأستاذ ميخائيل نعيمة (٢) .

وقد سلطت الأضواء عليها من كل جانب . فالأستاذ على سعد يعدها (من أكمل قصائد الشابى بحسن سبكها ، ووحدة جوها ، ولطابع الفرح والعافية والقوة ، الذى تتسم به ، ولعنى الرجاء الذى تتضمنه فكرة (العودة الدائمة) والحياة المتجددة التى تعبر عنها) (٣) . وان كان يرى فى جوها كثيرا من النفس النيتشى .

وأرى أن ليس حتما أن يكون الشابى قد لمح نيتشه فيها ، فهى ليست غريبة على روح الشابى المتقدمة ، وانتفاضاتها اللاهبة .

على أن الأستاذ على سعد لم يجزم بتأثير الشابى بنيتشه بل سجل كالمتهرج أن الأمر قد يكون مجرد صدفة . (فالتقى الشابى مع الفيلسوف الألماني بهذه النبرات القوية والنابضة بالعزمات والتسامى البطولى عندما انحدر الى واقع بلاده ، فآلهاء تيار الحياة التى تعصف فيها عن مشاكل ذاته ، وعن الدوران فى حلقة عقده النفسية ، ووجدانيته الفردية) (٤) .

ويبدو أن هذا النقد قد أشعل حماسة المواطن فى الأستاذ كرو فأخذ يزكى القصيدة ويثنى عليها بما هى أهل له ، بل تجاوز هذا الى المجده

-
- (١) ص ١١٤ من كتاب « الشابى وجبران » .
 - (٢) اقرا كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٣٦ .
 - (٣) اقرا كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٣٢ .
 - (٤) اقرا كتاب « الشابى » للأستاذ كرو ص ٣٢ .

والسمو وأعلى القمم والألفاظ الطنانة التي تهواها الشعوب العريقة عندما تغلب على أمرها وعندها تفيق ... (١) •



ومن شعره الرمزي قصيدة (فلسفة الشعبان المقدس) وهو يرمي بها الى التنديد الساخر من سياسة الغرب التي تتحدث كما قال : (الى الشعوب الضعيفة بلغة الشعر والأحلام حينما تحاول أن تسوغ طريقها في ابتلاعها والعمل لقتل ميزاتها القومية فتسميها « سياسة الادماج » وتتكلم عنها كالسبيل الوحيد الذي لا مبدى عنه لهاته الشعوب اذا أرادت نيل حقوقها في هذا العالم ، ويلوغ الكمال الانساني المنشود ، ولكن الفناء حقيقة شنيعة ، مبغضة ، لا ينقص من فظاعتها وكرهها كل ما في التصوف والفلسفة والشعر من خيال وأحلام) (٢) •

والقصيدة تقرأ ككل فسائرننا كالثشابي موتور من الغرب صاحب الاصطلاحات المسمومة (سياسة الادماج) ، (الأحلاف) ، (الدفاع المشترك) معاهدات الصداقة .. النقاط التي لا تنتهي ... ما أحوج الشرق الى وعى قصيدة (فلسفة الشعبان المقدس) عن الثشابي ليؤمن من لم يكن قد آمن بعد ... أو بعض أهله على الأقل :

ان السلام حقيقة ، مكنوية والعدل فلسفة اللهيبي الخابي

حقا ان شعوب الحضارة الأولى ... واللهيب الخابي أكثر من الخطيب المفوهة المؤمنة بالعدل ، المؤملة في هيئة الأمم المتحدة ... ولم تع بعد على هول التجارب وفباحتها أن :

لا عدل ، الا ان تعادلت القوى وتصادم الارهاب بالارهاب (٣)

(١) يقول الأستاذ كرو في كتابه « كفاح الثشابي » ص ١١١ « وسواء أكان اللقاء في فكرة الحياة المتجددة مع الفيلسوف الألماني مجرد صدفة أو نتيجة لترسبات ثقافية في ذهنه الخاطف الجبار فانها ستظل من أعظم الدلالات العبقريّة على بطولة الثشابي الوطنية والأدبية ، وستبقى خير تشيد عزفه عازف عربي فكان البذرة القوية الصالحة التي لبثت في قلب شعبه الخانع الدليل ، فعولته الى الطموح والكفاح والثورة ، وبعثت فيه اليقظة والوعى والنهضة ، ثم جعلته يصنع الحياة بيديه ، ويبني المجد بنفسه ، ويسمر كالأشواق والنسور الى أعلى القمم ... » •

(٢) الديوان ص ١٩٢ •

(٣) الديوان ص ١٩٣ •

وَأَنْ :

لا رأى للحق الضعيف ، ولا صدى رأى ، رأى القاهر الغلاب (١)

هذا الطراز من الشعر هو الذي نبتغيه فى صراع الحياة والموت بين الشرق والغرب . هذا الطراز من الشعر الهادف الدافع المتلهف ، الذى يظهر نفوسنا من الأوهام والحدع والبدع . ويظهر حواسنا من الحذر اللذيذ الذى تتمطى فيه وتسترخى . . . هذا الطراز من الشعر المتسعر الذى يفتح عيوننا على الواقع الكريه العفن الذى يعيش فى بعض شرقنا ليتحرر منه . . . ليدفع عاره . . . لنبتعث من جديده فى عالم الأقوياء . . . مسلحين بالعلم والحرية والقوة . . . لنستحق الحياة يوم نزيدها خصباً ونفعا وجدى . لا نحمل عليها كالزبد الطافى تحت زحمة التيارات المختلفة يطوح به أقواها كيف يشاء ، ويطرحة أينما شاء . . . أبدا . . . القوة للقوة . . .

ان السلام حقيقية ، مكذوبة والعادل فلسفة اللهيبي الحسابى لا عدل الا ان تعادلت القوى وتصادم الارهاب بالارهاب

خذوا الدرس عن مصر التى أعدت للطامعين البغاة ما استطاعت من قوة فجمدوا فى مكانهم من الجولة الأولى يتعون أحلام الغزو والسيطرة ولم ترحم فشلهم فسلطت عليهم الموت والدمار يتخطفهم ويدهمهم ، فدارت من الدهول والرعب رؤوسهم المنخوبة ، وطارت من الأرق المتفرع عقولهم العفنة ، أما ضمايرهم فقد خربت منهم أمله بعيد ، أو لعلها لم تخلق على الإطلاق . . .

هل أجمعهم غير القوة ؟ هل شبل زحفهم غير القوة ؟ هل جمدهم مطامعهم غير القوة ؟ . . .

ان القوة فى كل مكان سلاح بتار ، وهى فى الشرق خاصة سلاح حاسم جبار . . . انها هنا فى أرضنا تساندنا الروح ويرفدها الايمان ويشعلها الظلم القديم ويسعرها رغبة التعويض . . . وبدون القوة سيظل الشرق - مهما وضحت حاجته - نهبا لكل سارق ، ومرتعا لكل طامع ، ومطمحا لكل أفاق أعوزه المجد والغنى فى بلده فجاء يرفعه على حطامنا ، ويجمعه من عرقنا ودمائنا . . .

ان السلام والعادل والمنطق وكل ما اتفقت عليه شرائع الأديان والانسان ، حقائق فى أذهان الضعفاء وحدهم ، أما الأقوياء فلا يردعهم الا عنيد جبار يخاطبهم بلغتهم ، ويناجزهم بسلاحهم ويتقاضاهم الثمن

فادحا رهيبا ، يفيق عليه غرورهم ، وتطيح منه وحشيتهم التي ظلت قرنين
من الزمان تمتصنا وتضنيننا وتفلدحنا بأقسى ما تجيده الوحشية من ضروب
العذاب .



وينسى بعضهم هذه كله ، فلا يتلقف صرخات الوطنية من فم الشباب
وأمثاله من الشبيبة العربية ، لينفعل بها ويثرى منها في نفسه وشعوره ،
ولكن ليجعل همه كله أن ينسبها إلى نيتشه أو يردها إلى جبران . . .

حتى الكتب العربية التي عرضت للمفكرين والأدباء الأحرار لم تلمح
شاعر الحضراء ، فحين عهد الأستاذ رثيف خوري في كتابه (الفكر العربي
الحديث) أديب اسبحاق ، وشبلى شمیل ، وفرح أنطون ، وجبران خليل
جبران ، أغفل الشبابي كان هذا البيت لشاعر آخر . . .

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر (١)

أو كان هذه القصيدة لسواه :

أيها الشعب ، ليتني كنت خطابا	فأهوى على الجذوع بفأسي
ليت لي قوة العواصف يا شعبي	فألقي اليك ثورة نفسي
ليت لي قوة الأعاصير ، ان ضجعت	فأدعوك للحياة بنفسي

اياكم ، أن تهونوا منها فانها زادنا على الطريق . . .

اياكم أن تطامنوا منها فانها ضرام يندلع به الحريق في كل مكان
من المحيط الأطلسي حتى الخليج الفارسي ، لتعود لنا الأرض ، ويعود الرغد
والخفض ، وتضى أيامنا وتخصب أعمارنا وتهدف أحلامنا ، ويصبح واقعنا ،
وترهب وقائعنا أو تهاب مواقعنا وتصبح مواضعنا ، ويعتز بالخاضر
ماضينا . . .

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

خذوا هذا البيت عن الشبابي حازا متوهجا ، واعتمقوه بلا مناقشة ،
أو جدال يبرد حرارته أو يبدد صده . . . رددوه ألف مرة واضغطوا على
كل حرف من شطره الثاني « فلا بد أن يستجيب القدر » نعم لا بد أن
أن يستجيب القدر لكل شعب يريد الحياة . . لا بد أن يستجيب القدر . .

(١) ص ١٦٧ من نفس الديوان .

الشبابى والمهجر

المهجر ٠٠٠ المهجر ٠٠ باب طرقه النقاد على الشبابى كثيرا حتى ضج بالطرق والطارق ٠٠٠ لا تنزل يده الا لترتفع أخرى ، واختلطت الأصوات واختلقت التعليقات والتعليقات ، فما كنه هذه الضجة ، وما مضمونها ؟

بعد الأستاذ على سعد (من ضياع الوقت البحث عن مقومات شاعرية الشبابى فى أسلوبه وأفكاره ، فائنا قد لا نجده فيهما الا رسوبات لقراءته وظلالا لآلهته الأدبية ، من غوته الى جبران ، ومن لامرتين الى نيتشه » من خلال جبران » وقد يكون لأدب هؤلاء الرومنطيين المسافرين أو المقتنعين ، يد كبرى فى طبع شعر الشبابى بهذا الطابع الكثيب ، الحائر . وبهذه النزعة للهرب من دنيا الواقع الى دنيا الأحلام والأوهام ، وبكل هذه الأشواق الغامضة ، وبهذا التشاؤم والتهدم النفسى ، الذى تنعكس ظلاله فى كل أدبنا الحديث (١) .

وعنده أن (من العسير تحديد شاعرية الشبابى فى كتبها وفعاليتها . فهى ككل الغبقيات الشعرية ، تقع فى هذا المجال السحري ، فى هذا العالم المرصود ، والذى لا تعرف له حدود ، هذا العالم القائم على أشياء هى النغم المترف ، والأناقة فى اختيار الايقاع الراهن بين ألوف الممكنات ، وشفافية العتمة والأضواء المبهوثة هنا وهناك بين الحروف والكلمات ، والصفاء المترقق فى التأليف ، والتزويج بين الكلمات والأنغام ، والأصدا والسكينات .

ان هذه الشاعرية تقوم على اشراق الديباجة ، وغنى الجو الإنفعالى

المتولد من أداء الأفكار والصور ، والانفعالات بالكلمات اللازمة أكثر مما
تقوم على الأفكار والصور والانفعالات نفسها (١) .

طريقة الأداء . . . حرارة الأداء . . . روح الأداء . . . هي التي تثرى
الأفكار وتغنى الصور ، وتقوى الانفعالات فتبدو جميعها الأفكار والصور
والانفعالات ، وكأنها طراز فذ فريد حتى المسبوق منها . . . وهي إحدى
قدرات الشاعر ، بل لعلها أروع قدراته على الإطلاق . . .

والأستاذ عبد المنعم خفاجي يرى أسلوب جبران قد استبد به (٢) .
ثم يضيف :

انه (كان مع ذلك لأدب طه حسين أثر في عقلية ، وتأثر - فيمن
تأثر بهم من القدماء - بالمعري ، وابن الرومي ، والحيام ، وابن
الفارض) (٣) .

أما الأستاذ فروخ فيقول على طريقته المعهودة :

(ولقد اكتسب الشابي من الأدب المهجري ضعفا في التركيب ،
واغراقا في الرمز وشيئا من التشاؤم والصدفية السلبية . .) (٤) ولعله
هنا يلح كتاب الأستاذ (الياس أبو شبكة) أو يسايره (٥) .

ويعيب الناقد الشاعر بضعف اللغة (٦) ، ثم يقول :

(وإذا كان الشابي خريج الجامعة الزيتونية في تونس ، وإذا كان
لا يعرف إلا اللغة العربية ، فيجب أن تكون لغته متينة وأسلوبه على عمود
الشعر العربي . ونحن نلمح ذلك في شعر الشابي . . .

. وكذلك نرى في شعره مقدرة لغوية ، لا شك فيها وذوقا
لغويا أيضا . (٧) .

ويبدو أنه أحس ما في موقفه من تناقض فتراجع . . . متعللا بالرمز
الذي يورط الشابي - على زعمه - في الركاكة (٨) .

(١) اقرأ كتاب « الشابي » للأستاذ كرو ص ٢٨ .

(٢) كتاب « مذاهب الأدب » للأستاذ عبد المنعم خفاجي ص ١٥٦ .

(٣) كتاب « مذاهب الأدب » للأستاذ عبد المنعم خفاجي ص ١٥٦ .

(٤) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٧٠ .

(٥) اقرأ كتاب « روابط الفكر والروح بين القرنين » ص ١٠٤ .

(٦) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٧٥ .

(٧) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٦٤ ، ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٨) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٧٥ .

والى المهجر يرد نغمته على قومه فى زعمه (١) ، بعد أن عزاهها قهلا الى مرضه (٢) .

ومن القائلين بأثر جبران فى الشاعري الأستاذ زين العابدين السنوسى (وهو قد تشيع بالمدرسة الرمزية التى أقام عمادها فى العربية جبران خليل جبران) (٣) .

ويقول الدكتور احسان عباس :

ولا نستطيع أن نجد مدرسة رومانطيقية واضحة المعالم ، الا فى العصر الحديث ومؤسسها جبران كان رومانطيقيا الى أطراف أصابعه ، وصورة تكاد لا تفترق فى شيء عن شعراء الرومانطيقية بفرنسا وانكلترا وقد وجدت هذه المدرسة العودة الى الطبيعة والاهت النغمة ، وامتلات بالحنين الطاغى ، وبالكآبة والألم ، وبالنفور من حياة المدينة ، وبالثورة على التقاليد والشرائع قدست شريعة الحب واتخذت القلب اماما هاديا وغمرتها الرموز الصوفية ، وثارت على الشكل ، واهتمت بالمضمون وحطمت القلب اللغوى الصلب ، ولجأت الى التحليل ، وتعلقت فى ما كتبه جبران بخيال ، لا يقر على هذه الأرض الا ليستجمع فيطير الى أفاق أعلى وقد كثر تلامذة هذه المدرسة سواء بتأثير من مدرسة المهجر ، أو بمؤثراته مباشرة من أوربا ، فاذا بها تعم البلاد العربية فتظهر فى الزهد والتصوف ، والاغراق فى الروحانية ، والميل الى الطفولة عند التيجاني يوسف بشير ، وفى الميل الى الطفولة ، وعشق المرأة المنحوتة من الوهم فى شعر الشابى (٤) .

وهو اظنوه ايضا يلحون فى نسبة شاعرهم الى المهجر . فيقول قائلهم :

(انخرط شاعرنا فى سلك هؤلاء الشعراء بعد أن طالع نتائج قرائحهم وامتلا وطابه ، واكتظ جرابه وضرب على قيثارتهم ، فهو لم يخترع الطريقة الموجودة فى شعره لأنه مستبوق بها ، وإنما كان مقلدا لأدبائها بخذق ولباقة . جعلناه كأنه المخترع أسلوبه وطريقته ، فهو مقلدهم فى قوافيهم التى استحدثوها ، ومعانيهم التى ابتدعوها ، ومواضيعهم التى طرعوها ، ولكن فى مقطعاته الحكيمة والوطنية والحماسية .

(١) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٦٥ .

(٢) كتاب « شاعران معاصران » ص ١٦٣ .

(٣) كتاب « أبو القاسم الشابى » للأستاذ زين العابدين السنوسى ص ٥٦ .

(٤) كتاب « فن الشعر » للدكتور احسان عباس ص ٤٦ .

يسير في سبيل الشعراء القدامى . فان من طالع شعره في الغزل ،
وطالع شعره في الحكمة والوطنية والرثاء ، وجدهما بعيدين في معانيهما
والفاظهما بعد المشرقين . . . نسج الشابي على منوالهم وأجاد في اتباع
طرائقهم وأبدع في شعره . . . (١)

ويروى لك آخر أن الشابي :

(شب بواحة توزر الشهيرة تحت ظلال نخيلها وفي صحرائها ،
فكان أول عهده بالجمال جبال النخيل - وبالنقاوة - نقاوة الصحراء ،
ثم كانت معرفته بخليل جبران ويكتبه التي التهمها التهاما ! ومن لا يعرف
خيال جبران الخصب ، وأسلوبه الفذ وحبه للجمال وكرهه لكل منظر
ذميم ولتلك النظم الغاشمة التي تكبل الانسانية المعذبة بأغلالها الثقيلة ،
تلك الأغلال التي كسرها وثار عليها كالجبار العنيد ! فلا غرو اذن أن
ينحو الشابي منحى أستاذة الجليل ويترسم خطاه ، سيما وقد وجدت
أفكار الشاعر اللبناني صدى في نفسه ، على أنه لا يفقد شخصيته البارزة
ولو حيناً لأنه لا يحاكي أستاذة محاكاة العاجز ، بل محاكاة المقتدر حتى
إنه ليفوقه أحيانا) (٢)

ومن القائلين بتفوقه عليهم الأستاذ الحلوي الذي يرى أنه (تأثر
بأدب المهجر تأثرا ظاهرا ، ولكنه حين اقتفى أثر أعلامه تفوق عليهم
وغلبهم ، ولا سيما في جمال الأسلوب ونقاوته ، وقوة الصور
الشعرية) (٣)

ويرى الأستاذ كرو أن التحاق الشابي بالزيتونة وفي العاصمة ،
كان نقطة تحول هامة في حياته ، ملصه من كل رقابة كانت تسيطر عليه
(فانهال أول الأمر على كتب المهجريين « كجبران ، ونعيمه ، وأبي ماضي »
يطالعها بشوق بالغ وادمان شديد . وقد ميزته هذه البذور بطابع
« المدرسة المهجرية » التي تمتاز بصوفيتها الشعرية ، وتقدها اللادع ،
وحدها على الانسانية المعذبة ، وسخريتها المرة بالحياة الراكدة والبشرية
المتحجرة . وكل هذا نلمسه واضحا في آثاره الأولى من شعر ونثر) (٤)

-
- (١) الأستاذ محمد الصادق دسيس الشريف . مجلة « الامام » العدد الخامس السنة
٣٢ الصادر في ١٩٣٤/١٢/٣١ ص ٣٦ .
(٢) الأستاذ محجوب بن خليفة بن ميلاد . مجلة « الامام » العدد الخامس السنة ٣٢
الصادر في ١٩٣٤/١٢/٣١ ص ٣٢ .
(٣) كتاب « مع الشابي » للأستاذ الحلوي ص ١٠٥ .
(٤) كتاب « الشابي » للأستاذ كرو ص ٤٧ .

ثم ماذا ؟

(ذلك ما كان الشبابى وذلك ما بعثه الأدب المهجرى فى روحه ، من حيوية واشراق وصفاء وسحر) (١) .



وأرى الحيوية والاشراق والصفاء والسحر ، من صفات النفس المطبوعة . . . قد يزكياها هذا العامل أو ذاك ، ولكن لا يبعثها لأنها لا تموت ما ظلت الحياة . . . ، ولا يوجد لها لأنها لا تمنح وإنما تخلق مع صاحبها فطرة وطبيعة . . . وكم آلاف قرأوا أدب المهجر فلم يبعثوا بقطرة من نبع الشبابى المتفرق فى صفاء وعذوبة وحنان . . .

ولكن يدلل الأستاذ كرو على أثر الأدب المهجرى فى الشبابى ، قارن بينه وبين جبران فى وصف السعادة التى قال فيها جبران (٢) .

وما السعادة فى الدنيا سوى شبح كالنهر يركض نحو السهل مكتنحا لم يسعد الناس الا فى تشوقهم فان لقيت سعيدا ، وهو منصرف	يرجى ، فان صار جسما مله البشر حتى اذا جاءه يبطى ويعتكى الى المنيع ، فان صاروا به فتراوا عن المنيع ، فقل : فى خلقه العبر
---	---

حين قال الشبابى :

فما السعادة فى الدنيا سوى حلم ناجت به الناس أوهام معرودة ، فهب كل يناديه وينشده خذ الحياة كما جاءتك مبسما وارقص على الورد والاشواك متندا واعمل كما تأمر الدنيا بلا مضض فمن تألم لم ترحم مضاضته	ناء ، تضجى له أيامها الأهم لما تغشتهم الأحلام والظلم كأنما الناس ما ناموا ولا حلموا فى كفه الغار ، أم فى كفها العدم غنت لك الطير أم غنت لك الرجم والجمل شعورك فيها انها صنم ومن تجلد لم تهزأ به القمم
--	---



ان تشابه الصدر فى البيتين ليس معناه هنا التقليد ، ان دل التشابه عليه فى احوال مماثلة ، اذ أن أبيات الشبابى التالية تنم عن دفعة شعرية تنبع من نفسه ، هو فى اتجاه خاص بها غير تابعه . وقد سلم

(١) كتاب « الشبابى » للأستاذ كرو ص ٧١ .

(٢) كتاب « الشبابى » للأستاذ كرو ص ٧٤-٧٥ .

باختلاف الشابي عن جبران الناقد نفسه (١) بل قال بالنص بعد أن عرض رأى جبران في السعادة : (... والشابي على عكسه ...)

وقد كان الشابي من نقطة الاحساس وعرامه ، بحيث يستطيع الخلق على غير مثال ، فإن الاحساس اذا تيقظ في قلب الشاعر والفنان كما يقول الشابي :

(كان له - بالرغم منه - استقلاله الذاتي الذي يشعره بأنه

قوة حسية منتجة ، من المستحيل أن تندمج في سواها ، وأن

تشق لنفسها سبيلا بكرة للمجد والحياة ، وكانت له كرامة ترفع

عن أن تذوب في غيرها أو تنحط الى درك التقليد) (٢) .

وقد عاد الناقد الى حديث المهجر وأثره على الشابي في كتابه (كفاح الشابي) (٣) .

ومن تونس أيضا تراسى اليها صوت غريب ... أقصد فيما ذهب اليه ، فهو لم يقف عند القول بأثر المهجر ... بل تجاوزه الى أبعد من هذا بكثير ... وما هذا ؟ سأنتقل بك الى مصدر الصوت ... المصدر نفسه :

(هنالك صممت نفسه على التخلص من أوقارها ، بتمهيد مسلك تنفذ منه الى التعبير عن مشاعرها على النحو الذي تطلب ، فانبعث أمام عينيه صور من الأدب الغربى الذى تعرف اليه من خلال المترجمات ، وأنس بما فيها من صور قائمة وروح متشائمة ، ونقل نفسه بدافع التقمص الشعورى الى الحياة الغربية التى لم يعرفها ولم يقع بصره على ألوانها ، فالغاب والضباب والراعى النافخ فى نايه والثلج ، كلها أمور لم يعرفها الشابي ولم يعيش فى دائرتها ، ومع ذلك كانت أكثر الانفاذ دورانا فى شعره ، فكان استعماله اياها أقرب الى الاستعمال الرمزي منه الى الاستعمال التمثيلي والمجازي ، ووجد من شعر جبران خير رائد له فى هذا الطريق ، وساعد على سلوكه فتعلق به حتى تخرج على منهجه وامتزج بروحه ، فأتى بالتأملات العجيبة العميقة فى العواطف الانسانية وأسرارها ، والوجود وحقائقه . وأظهر التلاقى المتحقق فى ذاته بين الحياة المودعة

(١) كتاب « الشابي » للأستاذ كرو ص ٧٥

(٢) كتاب « الشابي » للأستاذ كرو ص ٢٤٣

(٣) ص ٨٨ .

والموت المتوقع ، فمزج الحياة بالموت وركب من مزجهما وحدة الوجود ٠٠٠ (١) ٠



الغاب ٠٠ والضباب ٠٠٠ والراعى ٠٠٠ كلها أمور لم يعرفها الشبابي ؟ ٠٠٠ و (عين دراهم) التى ثبت أنه استشفى بها ٠٠٠ أين هى ؟ الخراف والشيء التى غنى لها ٠٠٠ من كان يسوقها أمامه ؟ ٠٠ أترى وصلت الديمقراطية الى علمها فانتخبت بنفسها من بينها رأسا يرعى ويقود ؟ ٠٠٠

ان من يقرأ حياة الشبابي ، ودفع المرض له الى رحبات الطبيعة للاستشفاء ثم ما قبل المرض من آلام واقع شعبه المرير ٠٠٠ أما يكفى هذا كله لايحاء مثل هذه الابيات دون حاجة بقائلها الى ترسيم أثر ؟ ٠٠

وان أردت قضاء العيش فى دعة شعرية ، لا يغشى صفوها ندم فاترك الى الناس دنياهم وضعجتهم وما بنوا لنظام العيش أو رسموا واجعل حياتك دوحا مزهرا نظرا فى عزلة الغاب (٢) ينمو ثم ينعدم واجعل لياليك أحلاما مغردة ان الحياة وما تدوى به حلم

ويقف الدكتور أبو شادى فى هذا الزحام ناحية وحده ٠٠٠ مكانا قصيا لا تبلغه عدوى الزحام الذى يسير تلقائيا ٠٠٠ فلم يردد الصوت القائل بالمهجر ، بل رأى أيا آخر :

(لقد كان للشبابي ذاكرة فوتوغرافية ، وهو الذى أتم حفظ القرآن الشريف فى التاسعة من عمره حفظا كاملا ، كما كان له اطلاع واسع - عن طريق اللغة العربية التى لم يكن يعرف سواها - على آداب شتى مترجمة ، لا على الأدب العربى وحده ، وكانت له قبل كل هذا وبعده ، لودعية أصيلة خلقت فوق كل تقليد وتأثر حتى منذ نعومة أظفاره ، وعلى ذلك لنا أن نعتقد أن أية مشابهة بين شعره وبين بعض الشعراء

(١) كتاب « الحركة الأدبية والفكرية فى تونس » للشيخ محمد الفاضل أبى عاشور ص ١٧٩ ٠

وممن يرون فى الشبابي بالغاب اثرا لجبران ، الأستاذ كرو ٠ اقرأ كتابه « الشبابي » ص ٥٠
(٢) المقصود بالغاب هنا « العزلة البعيدة » وسأذكر رأى فى غابة الشبابي بعد استعراض الآراء الناقدة ٠

المهجرين هي من باب المصادفة لا أكثر (١) .

(ولعل أعظم تجاوب للشبابي كان مع زملائه شعراء (أبولو) (٢) حتى قبل ظهور مدرستها . ونحن شخصيا أولعنا بالشبابي لا لعبقريته الفنية فحسب ، بل لانسانيته الرفيعة والوطنية السامية أيضا ، وكان التجاوب بيننا تماما مع تميزه هو بأنافة لا نعرف لها نظير الا في قصائد الشاعر الفحل العظيم بشاره الخوري . مثال ذلك موسيقى الشبابي في قصيدته الخالدة « صلوات في هيكल الحب » التي يقول في مطلعها :

عذبة أنت كالطفولة ، كالأحلام ، كاللحن ، كالصباح الجديد !

فهى متجاوبة مع قصيدة « عرس الماتم » التي كان يعجب بها الشبابي (ديوان « زينب ») وقد جاء في مطلعها غير المسبوق الى طرازه :

عذبة أنت في الخفاء ، وفي الجهر ، وفي الهجر ، يا أغاني الظلام
بلغى العاشق الأمين مدى العمر ، شقاء لقلبه المستهام
وارقنى أدمعى ، فحسبى عزاء أن يسر الحبيب من ايلامى

ومثال آخر قصيدته العظيمة « ارادة الحياة » فانه متجاوب في مغزاها مع الشطر الأخير من قصيدة « النهضة ارادة » (ديوان الشفق الباكي) ، وقصيدته الجميلة « الصباح الجديد » التي يقول في مطلعها :

اسكتى يا جراح ! واسكتى يا شجون !

فهو متجاوب منها بطراز موسيقاها مع قصيدتين رائدتين ، هما قصيدة « الوداع » (قطرة من يراع - الجزء الثاني) وقد جاء في مطلعها :

انتهب يا شعاع نبض قلبي الحزين
حان وقت الوداع ليتله لا يحين

انتهب يا شعاع أنسا ذاك القريب
ان روحى مشاع فى مذاك العجيب

وقصيدة « بعد الصيف » (ديوان « أشعة وظلال ») التي جاء في مطلعها :

(١) اقرأ كتاب « الشبابي » للأستاذ كرو ص ٢٣ في معرض تعليق الدكتور أبو شادي على الكتاب تحت عنوان « كتب حية » .

(٢) اقرأ كتاب « الشبابي » للأستاذ كرو ص ٢٣ - ٢٤ .

اضحكى يا رمال من هدير المياه
غاب ملك الخيال وتجلى سواه
ذاك بحر الدروع من بكاء الزمان
فهو دوما مروع من مآل الهوان
كل حسن بناه يميده يزول
ومسرارا رثاه وأطال العويل
واضحكى يا رمال من فتونى العظيم
أنا عبد الجمال الضرير الحكيم (١)

ويقرر الدكتور أبو شادى أن الشابى كان « كما كان ناجى - رحمة الله عليهما - معجبا بكلتا القصيدتين ، وكلاهما نسج على منوالهما » .



ويعارض الدكتور أبو شادى ، الأستاذ التليسى اذ يقول :

(والمشابهة بينه وبين جبران أعظم من أن توحىها المصادفة أو وقوع الحافر على الحافر ، ولكنها المشابهة التى تنتجها التلمذة . تلمذة من عكف على دراسة جبران وأدبه ومن هنا يبدو لنا خطأ الدكتور أبو شادى ، الذى كان يعتبر الشابى تلميذا من تلاميذ مدرسته الشعرية . والحق الذى لامرأ فيه أن التجاوب الذى كان بينه وبين الشابى ، إنما هو تجاوب شكلى لا يتعدى الصياغة اللفظية . أما التغنى بالنور فصفة بارزة فى أدب جبران ، وقد سبق بها أبا شادى (٢) .

ويقول فى موضع آخر :

(والدراسة الواعية لانتساج هذين الأدبيين ، تكشف مدى الأثر العميق الذى طبع به جبران الشابى . وتوضح أنه كان من أخلص تلاميذه وأنبغهم . ولعل الأدب المعاصر لا يعرف بين شعراء الأدب الحديث من وضع فيهم تأثير جبران كما وضع فى الشابى (٣) .

وقد وفق الأستاذ التليسى الى المقارنة والتطبيق فى مواطن كثيرة . (اقرأ فصل الشابى وجبران) من ٤٩ - ٦٧ غير أنه جنح الى المبالغة أحيانا كقوله :

(أما التشابه فى الخصائص الفنية ، فتلك صفة واضحة فى اتفاق

(١) ص ٢٤ من كتاب « الشابى » للأستاذ كرو .

(٢) ص ٦٥ من كتاب « الشابى وجبران » للأستاذ التليسى .

(٣) ص ٥١ كتاب « الشابى وجبران » .

الأديبين على تمجيد الفن والسمو به ، على الأغراض التافهة . ولعل
جبران ، قد ألقى في نفس الشابى ، مثل هذا التقدير (١) .

ان تمجيد الفن أمر طبيعى بالنسبة الى الفنان ، لا يحتاج الى تأثير
خارجى . ويبدو أن الناقد ذاته قد حاك في نفسه هذا الاعتراض فاحترس
فى التعبير بعض الاحتراس الذى يخيلنا فى قوله (لعل) جبران ، قد
ألقى في نفس الشابى مثل هذا التقدير .

ويقول التليسى :

(ويقتطع الاحساس ، ذلك المبدأ الذى قدسه الشابى وجعله كل
شئ فى حياته ليس سوى فكرة جبرانية ، فاليقظة التى تجعل بطل جبران
قريبا بين الناس ، لا ينقاد لتعاليمهم ولا لتقاليدهم لأنه يحس بنفسه ،
ويشعر بذاته ، فيكره لها أن تدوب فى أية صورة من صور العبودية ،
هى اليقظة التى تملأ عبقريا كالشبابى شعورا بنفسه وبالحياة) (٢) .

وهذه الأخرى لا حاجة بها الى تأثير من الخارج فمرهف الحس المتميز
الذات يحس بامتيازته وتفوقه وبعد الفارق بينه وبين الأوساط العاديين .

وأنا ألح فى دراستى للشبابى ، ان جميع ما قيل فى تأثير الشابى
بالمهجر يميل فى عمومها الى تحديده جبران بالذات مثالا احتذاء الشابى
وترسم خطاه وقد عاودت قراءة جبران على ضوء هذا الرأى حتى
أتبين وجه الصواب فيه ، والخطوط العريضة فى الصورة التى رسمها
الكتاب ليصوروا تقليد الشابى لجبران هى : الرومانطيقية - الشكوى
ولقد المجتمع . . العزلة أو الهروب الى الغاب

فأما رومانطيقية جبران وأسلوبه وروحه ، فانها تتمثل فى تلك
القطعة الحاملة عن النفس :

(. وفصل اله الآلهة عن ذاته ، نفسا وابتدع فيها جمالا .

وأعطاهما رقة نسيمات السحر وعطر أزهار الحقل ، ولطف نور القمر

ووهبها كأس سرور وقال : لن تشربى منها الا اذا نسيت الماضى ،
وأهملت الآتى . . وكأس حزن وقال : تشربين فيها فتدركين كنه
فرح الحياة

(١) ص ٥٨ من كتاب « الشابى وجبران » .

(٢) ص ٦٤ من المصدر السابق .

وبث فيها محبة تفارقها مع أول تنهدة استكفاء وحلاوة تخرج منها
مع أول كلمة ترفع ...

وأسقط عليها علما من السماء ، ليرشدها الى سبيل الحق ووضع
في أعماقها بصيرة ترى ما لا يرى ...

وابتدع فيها عاطفة تسيل مع الخيالات وتسير مع الأشباح
والبسبها ثوب شوق حاكته الملائكة من تموجات قوس القزح
وأخذت الاله نارا من مصهر الغضب ، وريحا تهب من صحراء الجهل ،
ورملا من على شاطئ بحر الأنانية وترابا من تحت أقدام الدهور وجبل
الانسان .

- وأعطاه قوة عمياء تتوزع عند الجنون وتخدم أمام الشهوات
- ثم وضع فيه الحياة وهي خيال الموت
- وابتسم له الآلهة وبكى ، وشعر بمحبة لا حد لها ولا مدى
- وجمع بين الانسان ونفسه ... (١)



والى أمثال هذه القطعة ينسبون ألفاظ الشبابي وأسلوبه ...
النسيم والعطر والكاس والتنهيد والخيالات والأشباح والشوق
والتموجات وقوس قزح والحيرة والخيال والدموع والشعر ، كلها ألفاظ
بلورية هام بها الشبابي لا لأنها ألفاظ جبران ، ولكن لطبيعتها الشعرية
التي تستهوى كل رومانطيقى شاعرا كان أم كاتباً ...

وأما نقده المجتمع فمعرضه كتابه (المجنون) حيث تجد في قصته
(كيف صرت مجنونا) (٢) اشارات بعيدة ورمزا وغموضا ... وفي
قصته (الله) (٣) معنى قوامه أن الانسان بضعة من الله ، ولا شيء يدينه
من الله أكبر من هذه الحقيقة التي تفوق عنده العبادة والصلاة ...
وهذا الرأي يفصله بصورة أخرى في كتابه ، (دمة وابتسامة) (٤) .
وقد لجأ جبران الى القصص الرمزي في ذم مساوئ الناس (٥) ونقد

-
- (١) كتاب (دمة وابتسامة) للأستاذ جبران خليل جبران ص ٢٧ - ٢٨
 - (٢) كتاب « المجنون » لجبران خليل جبران ص ٥ - ٦
 - (٣) كتاب « المجنون » لجبران خليل جبران ص ٧ - ٩
 - (٤) اقرأ كتاب « دمة وابتسامة » لجبران ص ٢٧ - ١٨
 - (٥) اقرأ في كتاب « المجنون » لجبران قصة « اللعين » ص ١٤ - ١٥

أخلاقهم ومظاهرهم (١) وسخر من آراء المجتمع (٢) ونقده نقدا لاذعا لا يسلم منه أحد حتى علماء الأديان . وفي قصته (العالمان) (٣) سخرية تكاد تكون تنديدا . . .

فهل هذه الآراء في الناس غريبة على أحد فينا ، ان التعامل واشتباك مصالح الأفراد والجماعات تكشف عنها في كل مجتمع ، وفي كل زمان ، وانما فضل الكاتب في استقراء النفوس وتصوير انفعالاتها ، وفي اراحة القارئ حين يتخفف على يديه مما في صدره ورأسه من خلجات وآراء .

وانت ايضا مع جبران الشاعر تتسلل الى أذنك أصوات حزينة مبحوحة ، تتألف من اليأس والهموم والسقم والصبر والرماد والهشيم والقناد والقفر والسراب والغيوم والغروب والظلام . . . فلا تلبث أى ترى نفسك وقد انتزعك جبران الى عالمه حيث يروى لك قصة حياته :

قد أقمنا العمر في وادي تسير	بين ضلعيه خيالات الهموم
وشهدنا اليأس أسرابا تطير	فوق متنيه كعقبان وبوم
وشربنا السقم من ماء الغدير	وأكلنا السم من فج الكروم
ولبسنا الصبر ثوبا فالتهب	فغدونا نتردى بالرماد
واقترشناه وسادا فانقلب	عندما نمنا هشيما وقتاد

يلتفت عنك الى أحلامه :

يا بلاد حبيب منى الأزل	كيف نرجوك ومن أى سبيل ؟
أى قفر دونها أى جبل	سورها العالى ومن منا الدليل
أسراب أنت أم أنت الأمل	في نفوس تمنى المستحيل
أمنام يتهادى فى القلوب	فاذا ما استيقظت الى المنام
أم غيوم طفن فى شمس الغروب	قبل أن يغرقن فى بحر الظلام ؟

ويبدو أن البلاد المحجوبة التي يتشوف اليها لم تكن الا مهربا ولو في الخيال من واقع مرير . . . وأشد ما تكون الأحلام الوردية تألقا أظلم

(١) اقرأ فى كتاب « المجنون » لجبران « بين هجمة ويقظة » ص ١٦ - ١٧ .

(٢) اقرأ فى كتاب « المجنون » لجبران « الكلب الحكيم » ص ١٨ .

(٣) اقرأ فى كتاب « المجنون » لجبران ص ٨٢ - ٨٣ .

ويمضى جبران يفقد المجتمع والناس فى سائر كتابه ، حتى يستغلق عليك أحيانا . الست تلمح غموضا فى « عندما ولدت كائنى » ص ٧٤ - ٨٦ ولو أن مضمونها أن الالم يعق النفس وهو على ثقله لا يخلو من الحسد . وقرأ له أيضا « كيف ولدت فرحتى » . . . ومع أن المقالين أو القصتين فلسفت أدري فيما يريد صاحبهما أن يسلكهما - ترمزان الى لون من أخلاق الناس ، الا انهما مفتعلتان أو هكذا أراهما على الأقل .

ما يكون واقع رأيها . . . فحيث يكون الكنود والجحود والتفرد يتعلق الشعراء بخيالات مفوفة توشى لهم عالما آخر على هواهم ويبدو أنهم يقنعون بهذا ويقتنعون به ، حتى يكاد الخيال عندهم يصبح حقيقة ، فيمضون في الغناء بالدنيا المسحورة ، ولها ، مبهورين كأنها ليست من بنات أفكارهم. وجبران كالشابي واحد من هؤلاء ، وهو مثله عانى من غدر الأصداقاء وجحود الناس ، وغدا متفردا فيهم وحيدا بينهم فهتف وعليه من كسف اليأس ظلمات :

هو ذا الفجر ! فقومى ننصرف
عن ديار مالنا فيها صديق
ما عسى يرجو نبات يختلف
زهرة عن كل ورد وشقيق
وجسد يد القلب أنى ياتلف
مع قلوب كل ما فيها عتيق ؟
هوذا الصبح ينادى فاسمعى
وهلمسى نقتفى خطواته
قد كفانا من مساء يدعى
أن نور الصبح من آياته

لا تجاوب ولا صديق ، ولا تطور . . غمز وسخرية . . ألم أقل لك أن الأحلام تنفيس عن واقع مرير ؟

ومثل هذا كما رأينا عند الشابي ، فهل كان شاعر الحضراء يقلد جبران عن تخيل ، كما يعارض شاعرا لوقوع قصيدته من نفسه ؟ أم أن هذه أدواء العبقرية أو الامتياز على الأقل فى كل زمان ومكان ، فالشكوى واحدة لأن أسبابها متفقة ؟ ألم يملأ المتنبي قبلهما الدنيا شكوى وسبابا واستعلاء ؟ ألم يندم أبو العلاء بأخلاق الناس وطباعهم قبل أن تضع الحياة جبران والشابي ؟

وهب أن الشابي لمح جبران فى الشكوى والألم فما قيمة التقليد فى معان عامة يرددها كل غاضب بغير قواف وأوزان ؟ إنما التقليد الذى أقره دون غبن لأحد ، فهو الغناء بالغاب ، فإن هذا الغناء صوت جديد وطبقة جديدة فى الفن العربى . ولو أن جبران تشرب حب الغاب من الأدب الأمريكى حوله ، وعلى التحديد من الأديب الأمريكى ثورو (١) صاحب الكتاب المشهور Walden, or, Life in the woods (٢) فقد أولع هذا الأديب بالغاب ولما جاوز الغناء والتغنى حتى غدا له مذهبا يعتنقه ويطبقه ، وفلسفة خاصة ينتهجها فى الحياة (٣) .

(١) Heary Dévid Thoreau ١٨١٧ - ١٨٦٢ م

(٢) نقل هذا الكتاب الى العربية الأستاذ أمين مرسى قنديل

(٣) اقرأ كتاب . . Walden, or, Life in the woods

اقرأ كتاب « حياة الفكر فى العالم الجديد » للدكتور زكى نجيب محمود ص ٧٧ - ٩٧

أقول هذا وأؤكد ، خلافا للدكتور شوقي ضيف الذى ينفى تأثير جبران فى هذا الصدد بالأدب الغربى عازيا (هذا الجانب عنده وعند زمانه الى فكرة الجنين الى الوطن الذى فقدوه ، وكثرتهم من الشام ، من لبنان وسوريا ، فهذا الغاب الذى يفكر فيه جبران ليس الا لبنان . ذلك الفردوس الذى فقدوه ، وأرض الأحلام التى غابت عن بصره وراء الأفق البعيد ، وهو ينظر اليها من نيويورك ، يرى المسالك قد انسدت دونها ، فيتألم وتظلم الدنيا فى عينيه . ويتمنى لو انسلخ من محيطه الصاخب محيط الآلة الصماء والبشرية المعذبة ، ليتحد بوطنه ، حيث لا يقتحم عليه الحياة انسان ، وحيث يتمتع بمناظره ، ويشعر كأنه يحمل فوق صدره ، أو كأنه زهرة من أزهاره) (١) .

هل الجنين الى الوطن والهتاف باسمه يحتاج الى رمز وتورية ؟ ان جمال الهتاف فى التصريح باسم الوطن واللهج به ، ولو كان يعنى بالغاب لبنان فما الذى يمنعه من الغناء المباشر الصريح الجهرى بلبنان ؟ وترديد أسمائه الدالة كالصنوبر والأرز ليخلع على الغناء خاصية تليق بوطنه وتميزه وحده ؟ ولكن الغاب منتشر فى غير وطن الشاعر ، فهو ليس علما عليه كالأرز مثلا ؟ ألا يرى الناقد معنى أن الصفات التى خلعها جبران على غابه لا تنطبق على لبنان أو أى وطن آخر ، أليس فى لبنان كما فى سائر الأوطان قوى وضعيف ، وخير ، وشر ، وراع ورعية ، وحزن وهموم ، وموت وقبور ، وغيرها من الصفات التى نزه جبران الغاب عنها ؟

ان الغاب عنده رمز الى حياة أفضل . . حياة أسعد مما نعيش جميعا فيها . . ان غاب جبران يذكرنا بالفلاسفة من أصحاب المدينة الفاضلة .

ومن العجب أن يفسر هتاف جميع المهجرين بالغاب . . هذا التفسير . . أيجوز فى منطق العقل أو حتى المصادفة أن يتفق جبران ونسيب عريضة وإيليا أبو ماضي على أسلوب موحد فى حب الوطن والتغنى به عن طريق الرمز بالغاب ؟ ان الوطنيات فى كل الآداب صريحة جهرية من حماس ، فهل شذت القاعدة الطبيعية عند المهجرين ، أليس الأولى أن يكون الاتفاق على الغاب من وحي الأدب الأمريكى الذى يلاصقونه جميعا ؟ .

* * *

(١) كتاب « دراسات فى الشعر العربى المعاصر » للدكتور شوقي ضيف من ١٧٤ -

١٧٥ .

أحب جبران الغاب بحكم البيئتين الأدبية والطبيعية المحيطتين به ..
وعلى حبه . ليس في الغاب سيد ولا مسود .. ولا حزن ولا هموم ..
لا زيف ولا خداع ... لا رجاء ولا ملل ... لا موت ولا قبور ... الغاب
ملاذ وأمل ، فهو يهتف وبه من وقلة الشوق عاصف :

العيش في الغاب ! والأيام لو نظمت
في قبضتي ، لغدت في الغاب تنتشر

بعد أن ترنم في حنان وكلة وذهول :

ليس في الغابات راع ، ولا فيها القطيع

ليس في الغابات حزن ، ولا فيها الهموم

ليس في الغاب خليع يدعى نبل الغرام

ليس في الغاب رجاء ، ولا فيه الملل
ويما السعي بغاب أملا ، وهو الأمل ؟

ليس في الغابات موت ، ولا فيها القبور
فاذا نيسان وللم يموت معه السرور
ان هول الموت وهم ينشئ طي الصلور
فالذي عاش ربيعاً كالذي عاش الدهور
اعطني النسي وغن فالغنا سر الخلود
وأئين الناي يبقى بعد أن يغنى الوجود (١)

هكذا غنى جبران متشبهها هو الآخر .. فطرب الشبابي من الغناء
والمغنى .. كان يعاني من مثل علل جبران ، فالشعر وافق هواه والشاعر
كأنه غنى على ليله .. ففر عنده بالدواء والعزاء ، فاقبل سنه وأصعق
اليه وتجاوب معه ثم حاكاه ، وزاد عليه في المعاني والأصوات مع تفوق
لغة الشبابي الملحوظ ...

(١) ص ١٨٦ - ١٧٨ من كتاب « الشعر العربي في المهجر » .

ومضى الشابى يردد نشيده الغاب ، يدف بالصوت حيناً وحيناً يرتفع به ، ويمعن فى التحليق وقد غدت مشاعره فى يقظة مسحورة ...

وسنى ، كيقظة آدم لما سرى فى جسمه روح الحياة النامي وشجته موسيقى الوجود ، وعانقت أحلامه ، فى رقة وسلام ورأى الفردائس ، الأنيقة ، تنثنى فى مسترف الأزهبار والأكمام ورأى الملائك ، كالأشعة فى الفضاء تنساب سابحة ، بغير نظام وأحس روح الكون تخفق حوله فى الظل ، والأضواء ، والأنسام والكائنات ، تحوطه بحنانها وبخبها ، الرحب ، العميق ، الطامى حتى تملأ بالحياة كيانه وسعى وراء مواكب الأيام (١)

انه وصف الشابى لنفسه ... لادخل لى فيه ...



وشى آخر غير الغاب والتغنى به ... قد يكون الشابى اقتفى أثر جبران حين سناقت هذا قدامه الى مدينة الأموات (٢) ، وفى النعى على الأغنياء وظلمهم (بين الكوخ والقصر) (٣) و (طفلان) (٤) ولو أن التقاط موضوع كهذا عن إعجاب أو استعطاف شىء فى رأى غير التقليد ... أنا هنا لا أنتصر للشابى بغير قيد ولا أدفع عنه عيباً ، فقد يكون التقليد فى موضع لونا من النبوغ أو المهارة على الأقل ... ولكنه رأى بعد دراسة متحرجة ، متحرية الدقة ما استطاعت الى ذلك سبيلاً ...

وهذا التقليد بعينه أعلنه فى غير تردد ، حين أقف عند قصيدة الشابى (فى ظل وادى الموت) ... فأنت حيال هذه القصيدة تلمس وتحس وجه الشبه بينها وبين قصيدة ايليا أبى ماضى ، لست أدرى أعنى مطالعها ... فان الشابى فى قصيدته القصيرة نسبياً لم يعرج على البحر والديار والقصر والكوخ ، ولم يتعمق كنه الفكر والنفس والحياة على نحو ما فعل ايليا فى جداوله ... ولكن الروح والطابع والحيرة واحدة فى مطلعيهما ... بل انى أرى تقابلاً يكاد يكون تاماً بين قول الشابى :

نحن نمشى ، وحولنا هباته الأكو
نى نمشى ، لكن لاية غايه ؟

(١) الديوان ص ١٨٩ .

(٢) ص ١٥ - ١٨ من كتاب « دمة وابسامة » للأستاذ جبران خليل جبران .

(٣) ص ٨٨ - ٩٠ من المصدر السابق .

(٤) ص ٩١ - ٩٣ من كتاب « دمة وابسامة » للأستاذ جبران خليل جبران .

نحن نشدو مع العصافير للشمس ،
وهذا الريح ينفخ نايه
نحن نتلو رواية الكون للموت .
ولكن ماذا ختام الرواية ؟
هكذا قلت للرياح فقالت :
« سل ضمير الوجود : كيف البداية »

وقول ايليا ابي ماضي :

جئت لا أعلم من أين	ولسكني	أبيت
ولقد أبصرت قدامى	طريقاً	فمشيت
وسأبقى ماشياً إن	شئت	هكذا أم أبيت
كيف جئت كيف	أبصرت	طريقي (١)

لست أدري

وطريقي ما طريقي	أطويل أم قصير
هل أنا أصعب أم أهب	ط فيه أم أغور
أنا السائر في الدرب	أم الدرب يسير
أم كلانا واقف	والدور يجري ؟

لست أدري

جهل البداية .. جهل النهاية .. جهل الهدف من الحياة .. كنه
الانسان ، وهل هو مسير أو مخير ... هذا هو فلك المعاني الذي تدور فيه
القصيدتان في مطلعيهما ...

هنا أقول بالتقليد وعقد المقارنة بين هاتين القصيدتين مستساغ
عقلاً ، لأن المعاني الدائرة فيهما ليست من المعاني الدارجة التي وصفها
أبو هلال العسكري بأنها يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي بل
إنها على خاصية فيها مما يخرج على العرف العقلي والديني ، فإن الجمهرة
قد اتفقت على التسليم ببداية لهذا العالم ، ونهاية وسبب ومسبب والقول
بغير هذا حدث - يستحق ويحتل النظر والمقارنة والمسايرة والمعارضة
وتواجه مقلد ومقلدين ...

ولا يغض مثل هذا التقليد من الشبابي ، فتدفقه بفيضه وتواصله
في حرارة وقوة وجبروت يشفع له إذ لا يعين على هذا طاقة مواضعة قانعة
كطاقة المقلدين .

(١) لست أدري .

هناك رصيد انساني ضخم يرفد ... وموهبة أصيلة بكر تعين ...

* * *

رحم الله الشابي الانسان ، وحيا الله الشابي الفنان الذي مازال
يعيش بيننا وسيظل بين الأحياء شعرا ، ودعاء وهتافا ونشيدا . فان
الفن أبدا لن يموت لأنه من الخير والجمال والحق ، وحين تزول من الدنيا
العروض فان الجوهر باق في صفاء الخير ولألاء الجمال ونور الحق ، وبدع
الخلق يضيفه على الدنيا ألوانا وأشكالا وصورا وأنغاما وقصصا ، الرسام
والمثال والمصور والموسيقي والشاعر ...

من أغاني الحياة

شاعر ونشيد :

ويمشي في نشوة المتحسى
ورود الربيع من كل نفس
على منكبيه مثل الدمقس
وتلغو في الدوح ، من كل جنس
يرنو للطائر المتحسى
الى سدة الظلام المسمى
ظلمات الوجود في الأرض نفسى
يسأل الكون في خشوع وهمس

فى الصباح الجميل ، يشدو مع الطير
نافخا نايه ، حوالبه تهتز
شعره مرسل - تداعبه الريح
والطيور الطراب تشدو حوالبه
وتراه عند الأصيل ، لدى الجدول
أو يغنى بين الصنوبر ، أو يرنو
فاذا أقبل الظلام ، وأمسى
كان فى كوخه الجميل ، مقيما

سهمه وتأميل :

وصميم الوجود ، أيا يرسى
ونشيد الطيور ، حين تمسى
ورسوم الحياة من أمس - أمس
سكون القضا ، وأيان تمسى (١)

عن مضب الحياة ، أين مذاه ؟
وأريج الورد ، فى كل واد ،
وهزيم الرياح فى كل فج
وأغاني الرعاة أين يواريهما

مبهور مستحور حالم سعيد .. حبه

وأمام الفجر ، يمجده
آيات الحب ، وينشده
زمر فى النور ، تراصده

فى جوف الليل ، ينجيه
وعلى الهضبات ، يغنيه
ويهرى الآفاق فيبصرها

(١) الديوان - قصيدة « النبي المجهول » من ١٠٤ - ١٠٥

ويرى الأطيّار ، فيحسبها
ويرى الأزهار ، فيحسبها
أحلام الحب تغرده
بسمات الحب توادده

أرأيت ٠٠ « توادده » هذه أليست عذبة ناعمة كهناء السعيد ؟؟

فيخال الكون يناجيهِ
ونجوم الليل تضاحكه
ويخال الورد يداعبه
ويرى الينبوع ونضرتة
وخرير الماء له نغم
ويرى الأعشاب وقد سمقت
ونطاف الطل تنمقها
وجمال العالم يسعده
ونسيم الغاب يطارده
فرحاً ، فتعايشه يده
ونسيم الصبح يجعله
نسمات الغاب تردده
بين الأشجار تشاهده
فيجل «الحب» ويحمده (١)

انه حلم الشباب في كل جيل وكل قبيل ٠٠٠

أشواق تائهة ملتاحة :

ياصميم الحياة ! انى وحيد
ياصميم الحياة ! انى فؤاد
ياصميم الحياة ! قد وجم الناي
ياصميم الحياة ! أين أغانيك
مدلج ، تائه ، فأين شروقك ؟
ضائع ، ظامئ فأين رحيقك ؟
وغام القضا . فأين بروقك ؟
فتحت النجوم يصغى مشوقك ؟ (٢)

وهناك قصيد استشهدت به ٠٠ في معرض الدراسة واستشهد به
غيرى ولكنه يحلو حتى على التكرار والترديد ٠٠ نعم انها صلوات في
هيكل الحب :

عذبة أنبت كالطفولة كالأحلام
كالسماء الضحوك كالليلة القمر
يالها من وداعة وجمال ،
يالها من طهارة ، تبعث التقديس في مهجة الشقى العنيد
يالها رقة تكاد يرف الور
د منها في الصخرة الجاود
كاللحن ، كالصباح الجديد
كالورد ، كابتسام الوليد
وشباب منعم أمالود

أى شيء تراك ؟

حيرة ولهى نشوان ٠٠ حيرة معسولة سعيدة ٠٠ وأكثر من هذا
في استفهام الشاعر .

(١) الديوان - قصيدة « صفحة من كتاب الدعوى » ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) الديوان - قصيدة « الأشواق التائهة » ص ١١٢ .

أى شيء تراك ؟ هل أنت (فينيس)
 أنت .. ما أنت ؟ أنت رسم جميل
 عبقري من فن هذا الوجود
 وجمال مقدس معبود
 أنت روح الربيع ، تختال فى الدنيا فتتهز زائعات الورد
 وتهب الحياة سكرى من العطر ، ويدوى الوجود بالتغريد
 أنت أنشودة الأناشيد غناك ، اله الغناء ، رب القصيد
 أنت .. أنت الحياة فى قدسها السامى ، وفى سحرها الشجي القريد
 أنت .. أنت الحياة ، فى رقة الفجر
 وفى رونق الربيع الوليد
 أنت .. أنت الحياة ، كل أوان
 فى رواء من الشباب ، جديد
 أنت .. أنت الحياة فى عيني
 لك آيات سحرها الممدود
 أنت دنيا من الأناشيد والأحلام
 والسحر والخيال المديد
 أنت فوق الخيال ، والشعر ، والفن
 وفوق النهى وفوق الحدود
 أنت قدسى ، ومعبدى ، وصباحى ، وربيعى ، ونشوتى ، وخلودى (١)

أين رأى الشاعر كل هذا الجمال ؟ لا تصف لى بعد هذا إفراح
 الشفق ، ووداعة الغروب ، وسحر الأصيل ، وسر الليل ، وعذوبة الفجر ،
 وهداة السحر . لا تصف لى لمس التسييم ، وهمس المنفسج الخجول
 الحالم .. لا تصف لى وسوسة القصون ، وهسهسة الغدير بين العشب
 والزهر .. لا تصف لى وخلقى فى سباحتى مع الشاعر فى هيكل الحب
 .. حقا . هل رأى الشاعر كل هذا الجمال .. ليتنى أناكد حتى لا آسى
 عليه اخترم والعمر غض ، والشباب فينان واعد .. فساعة فى حضرة
 مشن هذا البدع من الخلق تخصب العمر كله . فيعدو طويلا مديدا
 مشبعا ممتعا ، وان كان خمسة وعشرين ربيعا فى حساب الأيام ..
 ليس موتا غيابه .. لقد أمعن فى التحليق ترفع ..

يوم جديد :

أقبل الصبح يغنى للحياة الناعسه
 والربى تعلم فى ظل القصون المائسه
 والصبا ترقص أوراق الزهور اليابسه
 وتهادى النور فى ذلك القبحاج الدامسه

أقبل الصبح جميلا ، يملا الأفق بهاء
 فتمطى الزهر ، والطير ، وأمواج المياه

(١) الديوان - قصيدة « ملوات فى هيكل الحب » ص ١٢١ - ١٢٤ .

قد أفاق العالم الحى ، وغنى للحياه
فأفيقى يا خرافى ، وهلمى يا شياى
واتبعينى يا شياى ، بين أسراب الطيور
واملاى الوادى ثغاء ، ومراحا وجبور
واسمعى همس السواقى ، وانشقى عطر الزهور
وانظرى الوادى ، يغشيه الضباب المستنير (١)

بالطبع لفتك تمطى الأمواج والضباب المستنير .. هكذا رأى خيال
الشابى انفراج الموج ، وشفافية الضباب التى لا تحجب النور . فمن حقه
على الشاعر أن يدعو ضبابا مستنيرا ما دام يضىء ، وإن كان لفظ
« الضباب » له جرس معتم .. ولكننا هنا فى « عين دراهم »
الساحرة ..

عالم ثان :

معبود للجمال	فى فؤادى الرحيب
شيدته الحياه	بالرؤى ، والخيال
فتلوت الصلاه	فى خشوع الظلال
وأضأت الشموع (٢)	وحرقت البخور ...

هتاف مهيب :

إذا الشعب يوما أراد الحياه	فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلي	ولا بد للقيد أن ينكسر
ومن لم يعانقه شوق الحياه	تبخر فى جوها واندر (٣)

اثارة مهتاجة :

أين يا شعب ، قلبك الخافق الحساس ؟
أين الطموح ، والأحلام

(١) الديوان - قصيدة « من الغائى الرعاة » ١٥٢ - ١٥٣

(٢) الديوان « الصباح الجديد » ص ١٦٠

(٣) الديوان « ارادة الحياه » ص ١٦٧

أين يا شعب ، روحك الشاعر الفنان
 أين ، الخيال والالهام
 أين يا شعب ، فنك الساحر الخلاق
 أين الرسوم والأنعام ؟
 ان يم الحياة يدوى حوالبك
 فأين المغامر . المقدم
 أين عزم الحياة ؟ لاشيء الا
 الموت ، والصمت ، والأسى والظلام
 عمر ميت ، وقلب خواء
 ودم ، لا تثيره الآلام
 وحياة ، تنام فى ظلمة الوادى
 وتتمو من فوقهما الأوهام
 أى عيش هذا ، وأى حياة
 (رب عيش أخف منه الحمام) (١)

(دم لا تثيره الآلام) بلاد متجمدة ليست من طبيعتنا الشرقية ، ولكنه
 من لظاه صرخ هذه الصرخة ليفتح النيام عيونهم على ما يدبره المستعمر
 وعملأؤه لهم ، عليهم يفيقون .

(١) الديوان - قصيدة « الى الشعب » ص ١٧٥ .

المراجع والمصادر

« مرتبة حسب ورودها في الكتاب »

- | | |
|-----------------------|---|
| محمد عبد المنعم خفاجة | ١ - رائد الشعر الحديث |
| أبو القاسم كرو | ٢ - الشابي |
| مصر | ٣ - مجلة الامام |
| خليفة محمد التنبيسي | ٤ - الشابي وجبران |
| نورس | ٥ - مجلة الفكر |
| محمد الحليوي | ٦ - مع الشابي |
| مصر | ٧ - مجلة ابولو |
| أبو القاسم محمد كرو | ٨ - كفاح الشابي |
| عمر فروخ | ٩ - شاعران معاصران |
| أبو القاسم محمد بدرى | ١٠ - الشاعران المتشابهان |
| الدكتور شوقي ضيف | ١١ - دراسات في الشعر العربي المعاصر |
| محمد عبد المنعم خفاجة | ١٢ - مذاهب الأدب |
| لمجموعة من الأدباء | ١٣ - ذكرى الشابي |
| زين العابدين السنوسي | ١٤ - أبو القاسم الشابي « حياته » « أدبه » |
| بيروت | ١٥ - ديوان بهاء الدين زهير |
| | ١٦ - مجلة الأدب |

- ١٧ - مجلة الندوة
١٨ - الحركة الأدبية والفكرية
في تونس
١٩ - الشعر المعاصر على ضوء
النقد الحديث
٢٠ - الشعر وقضيته
٢١ - الفكر العربي
٢٢ - فن الشعر
٢٣ - مجلة الشباب
٢٤ - روابط الفكر والروح بين
العرب والفرنجة
٢٥ - المجنون
٢٦ - دمة وابتسامة
٢٧ - والدين أو الحياة في
الغابة
٢٨ - حياة الفكر في العالم
الجديد
٢٩ - الجداول
- تونس
الشيخ محمد الفاضل أبو عاشور
مصطفى عبد اللطيف السحرتي
ابراهيم العريض
رثيف خوي
احسان عباس
تونس
الياس أبو شبكة
جبران خليل جبران
جبران خليل جبران
ترجمة أمين مرسى قنديل
زكي نجيب محمود
ايليا أبو ماضي

الأخطال الصغير

مقدمة

بشارة الخورى أو الأخطل الصغير كما يطيب له أن يسمى نفسه ، شاعر عذب الصوت ، رقيق الشدو ، معجب الغناء .. وما الى تزكيتة قصدت ، ولكنها صفاته الغالية عليه والتي تجذب اليه محبى الأدب والشعر فى العالم العربى ، وكل مترف الحس والذوق من عشاق الفن الجميل .

لقد استقبل العالم العربى ديوان الشاعر (الهوى والشباب) استقبالا طيبا حفيا جاوز تقدير الشعر الى اعزاز الشاعر وتكريمه .. ولم تقصر مصر فى هذا المضمار ، بل لعل حفلها الذى أقامته من أجل السيد بشارة الخورى هو الذى أوحى الى أن أجعل من تعييتى فى الحفل دعامة دراسة للشاعر وشعره رمزا باقيا لحفاوة ضفاف النيل بربوع لبنان .

وهذه الدراسة التى يقوم بها هذا الكتاب انما هى دراسة موضوعية بحثة لديوان (الهوى والشباب) ..

وكنت أود أن أحيط بحياة الشاعر ونفسه التى كان لنا منها هذا الشعر .. حياته بتجاربها وأحلامها وأوهامها ومخاوفها وأمانيتها وآلامها وأفراحها .. ونحوسها وسعودها ، وفشلها والنجاح .. ولكن هذا كله لا يتيسر لى وأنا فى مصر .. وكلها أمور تحتاج الى الافضاء المسترسل ، والبث الهادئ المطمئن ، والسمر الودود الصريح من اخلاص للمنهج

السليم فى البحث الأدبى ٠٠ فكيف يسمر الجبل مع الوادى وبينهما من
البعء ما يضيع فيه الصوت الجهورى بله الصوت السمير ؟ ٠٠ اذن
لنكتف الآن بهذه الدراسة الموضوعية ٠٠ الدراسة المجتزئة - الى حين -
بديوان (الهوى والشباب) ٠

القاهرة فى ١٥ يوليو ١٩٥٤

نعمات أحمد فؤاد

شاعر الوصف

ديوان الهوى والشباب ديوان مختلفة ألوانه ففيه الوصف وفيه الغزل وفيه القصة وفيه غناء بالطبيعة وغناء للإنسان .. وكلها كما ترى رؤوس موضوعات ونقط ابتداء فبأيها نستهل .. أبا الوصف ؟ ما من شك أن بشارة الخورى شاعر وصاف نابض الوصف بالصوت واللون والحركة .. والمثال عندى يتمثل فى وصفه لبنان الذى يحدثك عنه فى مطلع ديوانه حديث ولوع .. لبنان

كيف التفت فجداول متأوه تحت الفصون وربوة تتبسم
أكماته البيضاء تحت سماءه الزرقاء أطفال تنام وتحلم
تتصاعد القبلات من أنفاسها وتمر بالوادي الوديع وتلثم

ثلاثة أبيات فيها من الصوت طبقتان : التأوه والهمس الذى
توسوس به القبلات المتصاعدة من أنفاس الأكمات البيض .. وفيها من
اللون الأبيض والأزرق .. وفيها من الحركة والهيئة والصورة يتسام
ربى ، ونوم أطفال ، وأحلام ملائكة .. وأنفاس أكمات ، ولثم قبلات .

لست أدري لماذا يذكرنى هذا الجيشان الحافل بابن الرومى مع
مابين الشعارين ، وبين النزعتين من اختلاف .

وفى شعره ترف وأناقة وتقوية ونعومة المخمل أو أوراق الورد ،

وهل هناك أنعم من هذا البيت :

ليل حريرى النسيج كأنه شكوى الهوى وصباية الملتاح

ليل وحرير وشكاة هوى ووجد وظمأ قلب وتشوف حب وتحرق
مشوق .. أى ليل هذا تراه ؟

وعلى الضفاف اذا تموجت الضحى
والغصن في حضن الرياض وسادة
متلازمين توجسا اثم الهوى
لوان من أرج ومن تصدح
نمت على عنقبن من تفاح
متخوفا طرف الضحى للماح (١)

وصف مترف أنيق ..

وهو يبدع حين يصف غرام البادية في سداجته وبراءته كالقطرة
الأولى ويتخذ مادة لوصفه « عروة وعفراء » من فتية « الأغاني (٢) »
فاذا هما في غرة الحداثة :

يتراکضان بها - فان هما بوغتا
ولطالما وقفنا على الوادى وقد
مزجا فلو خطرت (لعفرا) فكرة
فيهما - فبالأوراق يختبئان
صرخا هناك ليلتقى الصديان
بدرت بهما من عروة الشفتان

وصف جميل للتشارب ..

واذا التقى النظران تلمع أسطر
طفولة عاشقة ولا تدرى ...
يعيا بحل رموزها الولدان

حتى اذا كبرا تولى شرح ما
لم يفهما قلباهما الخفقان
لقد أدرك الصغيران كل شيء ..

فاذا وافقت المحب الأمنية فانما هي :

تعمى على كبد الفتى سقطت كما
فاحس أن له جناسا طائر
فجرى يرقص عوده الشعرى على
فيصوغ هينة النسيم قصائد
سقط الندى سحرا على حران
وبدت له زهر النجوم دوانى
صدر اللوح ومعصم الغدران
ويرد زمزمة الغدير أغاني

صورة معجبة بلا شك فيها خفة ونشوة وانطلاق ..

وقد يتهاافت وصف الشاعر أحيانا رغم ما يوفره له من حلي
اللفظ . وأنا هنا أعنى قصيدته (العيون) . فان وصفه للعيون سواء
ما جاء به من عتده أو ما ترجمه عن الشاعر الفرنسى سوللى بزيديم ،
وصف رتيب ليس فيه الحرارة والروح . لم يرو الشاعر شيئا من حديث
العيون ، ولم يفيض بشيء من أسرارها ولم يترجم معانيها وهى جملة ..

(١) قصيدة (ولد الهوى والخم) ص ١٥٥

(٢) قصيدة (عروة وعفراء) ص ٦٨ - ٦٩ .

لم يحدث عن رقتها وحنانها ، وعن قسوتها واثقلتها ، وعن تغايبها
 وذكاؤها ، وعن غشاوتها ونورها ، وعن بسمتها وعبوسها ، وعن
 محاورتها ومصاولتها ، وعن حزنها ودموعها ، وعن دهشتها واستغرابها ،
 عن جهلها وحلمها وعن حدسها ويقينها ، وعن عبثها وجدها ، وعن تهاافتها
 وقهقهتها ، عن لغائها وصمتها ، وعن هدأتها وصخبها ، وعن اتزانها
 وعربدتها ، وعن عيها وبيانها ؟ وعن سكونها وحديثها ، وعن التياحها
 وريها ، وعن مناهها وأحلامها ، وعن حنينها وأشواقها ، وعن قلاها وبغضها ،
 وعن كدرها وصفوها ، وعن يأسها وأملها ، وعن نظراتها وأسلحتها ،
 وعن وداعتها واستسلامها ، واذاعائها وتسليمها ، وعن اصرارها وعنادها ،
 وعن كذبها وصدقها ، عن اخلافها ووعودها ، وعن بشها وافضائها ، وعن
 مراوغتها وتصريحها ، وعن وشايتها وكتمانها ، وعن صحوها ونومها ،
 عن فتنتها بشرها وخيرها ، وعن سعودها وأقدارها ، وعن فنها ومعجزاتها .
 وعن استبدادها وسيطرتها ، وعن نجلها وحورها ، ووطفها ودعجها ،
 وعن .. عن عديد من أحوالها ..

حتى سحر العيون وأفاعيل جمالها كان الشاعر يلمحها لمحا هادئا ،
 ولا أريد أن أقول باهتا .. في مثل قوله :

ما عجيب ومقلتك ظلام أن تكونا مستودعا للضيء
 تنسجان الحياة حيناً وحيناً تنسجان الممات للأحياء (١)
 لقد طابق حقاً بين الظلام والضيء . والحياة والممات .. ثم ماذا ؟

الطبيعة فى شعره

ويتصل بشعره الوصفى شعره فى الطبيعة ، والحديث عن الطبيعة حديث موشى بطبعه ، مصقول بطبيعته • فالطبيعة من الجمال ، والخصب والغنى حافلة بمباهج شتى ومفاتيح تأخذها العين العادية العابرة فكيف بعين الشاعر المرهف الحس ، الرفاف النفس • المفتوح العين ، المتفتح القلب ، المهيا لاستقبال الجمال ، المفطور على التغنى به ؟ ولا يبلغ هذا الكلام تمام صدقه بقدر ما يبلغه فى ديوان شاعرنا بشارة الخورى •

اننا ما نكاد نصافحه فى الاهداء حتى ترقى الى أسماعنا موسيقى عذبة صافية تتألف من خريز الجدول المتأوه وهو ينساب تحت الغصون انسيابا نغميا مرسلا ، واهتزاز الربوة بالنبات وهى تتبسم ، وهمس الأكمام البيض تحت سماء لبنان الزرقاء وهى تنام وتحلم ، ووسوسة القبلات التى تتصاعد من أنفاسها وثمر بالوادي الوديع وتلثم •

ولعلك تذكرت الآن قصيدة لبنان التى مرت بنا والتى أهداها الشاعر الى وطنه الحبيب •

واحساس الشاعر القوى بالطبيعة يسرى منه الى قارئه • • فالأستاذ عادل الغضبان يتهميا لتقديم الديوان فاذا بالقلم فى يده يسطر مستحرا :

نفح الريحان وشعاع الصهباء •

وحمرة الشفق وخضرة الأرز •

ونعومة الحرير ورقة خدود الورد •

إذا جبلت بندقى الصباح وبسمة الفجر ونفخ فيها النسيم من نفاثاته
كانت صورة صادقة لروح بشارة الخورى شاعر الهوى والجمال .

وهذا كلام ند لم تستطع المنافسة الطبيعية بين القرينين أن تخفى
اعجابه ، و تحجب هتافه .

ولعل الطبيعة بألوانها وشبابها وتجدها وتألّفها هي التي صفت
نفسه حتى شفت ، وعكست عليها صور الجمال وسكبت فيها معانيه
فصارت تغنى به وتتعبّد في مجرايه حتى لتخالّ شعرها فيه ترنيمه
صلاة .

يتمدح فيتمثل غرة الفجر والقطر والندى والزهر والشذى والظلال
والربى .. ولقد تستغرقه الطبيعة فلا يخلص الى الممدوح الا وقد قطع
من القصيدة ثلثيها .. وأنا أعنى هنا قصيدته (زاهرة الربى) في
الشاعر فارس مشرق ..

ويصف فاذا الليل والشمس والمياه والنسيم تتواكب في أبياته
كانها في سباق .. ويسترجم فاذا نجمة تهمس بأذن أخيها همس نغم
الندى بمسمع ورد .. ويسمع البلبل فينتشى ويمضى يؤلف ويؤاخي بين
الصوت الجميل والفجر والزهر وكل ما في عالم الروض من روائع .

ويدير الحديث بين بنية وأماها فاذا به ينسجعه من الضحى والدجى
والروض والرمال والغصن والورد ، والأوراق والبحر فاذا بالبنات في
عين خيالك كأن السوسن عكس على محياها صفاء فتألفت ، كأن الورد
أراق على وجنتيها حمياها فأشرققت ، وكأن الغصن علمها كيف تميس
فسارت ، وكأن الليل رقرق في سمعها أناشيده فنطقت شعرا ، وتكلمت
موسيقى .

ولست تسمع هذا الغناء في حالة رضاه فحسب ولكنه في غضبائه
أيضا لا ينفك يهزج باسمها ويغنى بها .. ورحم الله شاعرنا شوقي
اذ يقول (ورب شجوة سمعته من شاد) ..

لقد صدر الأمر بإقفال جريدته فثارت شاعريته بالطبع ، وكذلك
تعجب حين تسمعه ينفث مرارته على هذا النسق .

ياهند قد ألف الحميلة بلبل يشدو فتصطفق الغصون وتطرب
هو شاعر الأطيّار لا متكبر صلف ولا هو بالامارة معجب
تتعشق الأزهار عذب غنائها فاذا شدا فبكل نغم كوكب

والصوت موهبة السماء فطائر يشدو على غصن وآخر ينعب (١)
لا مرأ أن القصيدة رمزية وأن نهجه فيها أشبه بمنهج القانوني
الذي يعي باختيار حالة مضادة كما يقول الأستاذ العقاد في موضوع آخر .
وهو لا يصف البلبل بأنه ليس متكبرا ولا صلفا ولا هو بالامارة
معجب . . لا يصفه بهذا اعتباطا ولكنه يخز أعداءه كما وخزهم مرة
أخرى بيته :

والصوت موهبة السماء فطائر يشدو على غصن وآخر ينعب
ولكنه مع هذا وخز لا يسيل دما ولا ينكا جرحا . .

وينفى الشاعر النسيان عن وفائه فيستعيد مناظر الطبيعة التي
شهدت عهده وكأنه يقسم بالجمال والجلال ألا ينسى . . ويسمو بصره
إلى وطنه فيتغنّى بطبيعته ويهب نفسه فداء :

لمنبت الشيع فيه ومسرح الآرام
هناك سينا التجلى ومهبط الإلهام (٢)

ويقتبس عن الفرنسية قصيدة (قلب خافي) (٣) فإذا الطبيعة
وسنانه حتى نجوم الأفق خدرها النعاس . . وإذا جبال لبنان :

خلع الجلال على منا كبها مواهبه الجسام
وإذا السهل في حضن الطبيعة كالغلام .

يفغو ويحرس ثغره روح البنفسج والخزام
حتى قصيدة عيد الجهاد (٤) فيها خضرة الأرز وفيها أيكة غريدة .
ويرثي شباب شاعر فلا تحجب الدهوع عنه مراثي الطبيعة التي
يتسلل إليها من باب الرد على الذين :

عجبوا أن يموت في ريق العمر ويطوى كالبرق سيفه حياته
فكان رده :

أيلام النورد الجنى إذا جف رحيق الجمال في وجناته

-
- (١) قصيدة (الصوت موهبة السماء) ص ٤٩ .
 - (٢) قصيدة « فلى للبنان نفسى » ص ٥٣ .
 - (٣) قصيدة آه ما أحلى الحميا ص ١٤٥ .
 - (٤) قصيدة عيد الجهاد ص ١٦١ - ١٦٢ .

وإذا كان عمره. بعض يوم. وتمشى الذبول في ورقاته
غاية الورد أن يضح هذا الجو بالمستحب من نجاته
ما عليه أن جاز غايته القصوى وعد الزمان من ساعاته (١)

وعلى هذا النسق اطردت حججه الشعرية لو صبح هذا التعبير .

**والقرية والأجبل والسهل والزهرة وبردى كلها له مهابط الهام
وبنات وحى ٠٠ يقف ركبته عند القرية تتوج رأس الأجبل فيغنيها :**

أنت بتاج ملك جديره	أيتها الفتانة الصغيره
وعطيل السفح فكنت الحليه	من القرى اشتقوا لك اسم القرية
وعودك الجدول ذو الأنغام	شاعرك البلبل ذو الالهام
كأنها من الحرير جبهه	والغيمة البيضاء مثل القبه
فليس الا شفة ومبسم	تضم أعناق الربى وتلثم
فمسحت جبهته بالعسجد (٢)	كم طربت شمس لهذا المشهد

لا شك أنه يحس جمال الطبيعة ويسمع أصواتها ويميز ألوانها .
وهو مصور ٠٠ ولكن آتته الفوتوغرافية لا الريشة ، وإن كان صاحب فن
فى (الرتوش) .

وفى (زحلة) التى (أسرفت فى فتن الجمال) يقول :

لولا الذى توحين لم يك شاعرا	يا زحل كم من شاعر لك عاشق
تخذ الجمال على ذراك منبرا	أسرفت فى فتن الجمال كأنما
ملقى على قدميك يلهث خائرا	والنهر روح العاشقين ودمعهم
لئلا تقبله النسيم مخاذرا	سالت جراحات الهوى فى صدره
لبس الحلى لهاندى وأزاهرا (٣)	و (السهل) يحلم منذ كان بزورة

هو يصف الطبيعة وقد يشيع فيها الحركة ويبعث منها الصوت
ولكنه لا يستنطقها .

ومن قصيدته (زاهرة الربى) :

والزهى بين مزرر ومشقق	لم أنس حين دخلت روضك غدوة
ورشفت أول مبسم من زنبق (٤)	فقطفت أول قبلة من وردة

(١) قصيدة الشباب الداوى ص ١٦٩

(٢) قصيدة القرية ص ٩٠

(٣) قصيدة (زحلة) ص ١١٣

(٤) قصيدة زاهرة الربى ص ١٢٥

تحيةة معجب ، ولكنها دون ولع « جرتودستيز » حين تهتف مفتونة .
مسحرة . . . وقد رأيت الورد : الوردة هي الوردة . هي الوردة .

لقد جذبت بالورد جنونا شريفا كما يدعوه الأستاذ سلامة موسى (١) .
وقد يجعل ملتقاه في حضن الطبيعة ولكنه يجعل منها متفرجا .
فحسب ، اذ هي لا تشاركه نعيمه :

ليتهم يذكرون ليلة كنا والهوى نحن أمه وأبوه
وعيون النجوم ترنو إلينا ولسان الدجى يكاد يفوه .
والنسيم الخفيف يلهو بثوبينا كطفل أهله ما هذبوه (٢) .
النجوم ترنو ولا تزيد ، والنسيم يلهو بثوبه كطفل عابث . . . واللهو
والطفولة لا يتأتى معهما ادراك . . . فلم يشرك الشاعر النسيم معه . . .
ولم يفض إليه ولم يجعله يشاطره . . . انه وصف من الظاهر . . .

ومن قصيدة (زهرة الربى) :

صلى لك الوادى برهة ناسك وضباب مبخرة وهامة مطرق .
وأبو الربى صنين قام كشمعة بيضاء تمعن فى السحاب وترتقى .
يتوقد النجم السننى برأسها فترى بوادى دمعها المترقق .
لك فى السماء نجومها فتأشئ وعلى المهاد زهورها فتمنطقى .
وعليه من وشى الحضارة مطرف رقت عليه صنعة المتأنق (٣) .
رقت عليه صنعة المتأنق . . . انى أحس فى تعبده هذا روحا .
مجنحة هفافة . . . انه شاعر متأنق . . . ولكنه لم يأتلف بعد مع الطبيعة .
اثلافا كلياً . . .

ومن قصيدته (أنا نأى الهوى)

أيها البلبل المغررد فى الليل على كل أخضر ميراد
غمرتك النجوم بالقبل السكرى فتقر يا ساحر المنقاد
يا شقى الهوى جفاك الذى تهوى ومل الظلام مما تنادى
خلق الله للهوى قبلة الروح وراء الحدود والأجساد
أنا أدري بالطير حين تغنى كم جراح سالت على الأعواد (٤)

(١) من مقال أشعار فى السماء . . . الاخبار ١٩٥٤/٢/٢٨

(٢) قصيدة قلت أمراك ياملاكى ص ٣٩

(٣) قصيدة زهرة الربى ص ١٢٦

(٤) قصيدة أنا نأى الهوى ص ١٤٣

أما رأيت أنه يفهم عن البلبل نداءه ويشساطره همومه . ويحس
شبحي الأطيبار . بل يستشفه خلل غنائها ولا يخدعه منها هذا الغناء . . .
ولكن الطبيعة التي يسمعها لا تسمعه ولا تجاوبه . . . وما ظلمته فهي
كشجر الحابور لا يهمها منا ضحكنا والبكاء إذ هما لديها سواء . . . ولكن
على الشاعر وحده يقع اللوم . . . إذ ينبغي أن يتقدم منها خطوة أخرى
بعد الوصف الخارجي . ينبغي أن يتعمق حركاتها وسكناتها ويرصف
السمع في مجالها فيسمع هتفة الوردة حين تخرج من الكم ، ويسمع
لفيف الزهرة حين تخايلها الفراشة ذات الألوان ، ويسمع حفيف الشجرة
في جوقة الألحان ، ويسمع زفيف الريح حتى في الليل الصاخب ، ويسمع
انثناء الغصن في حنوه على الغدير ، واعتداله ، في انصياعه للنسيم ،
يسمع كل خطوة وكل رفة ، وكل لفنة . . . ينبغي للشاعر أن يصطنع
مع الطبيعة سيرة النحل مع الزهر يتودد إليها ويسارها ويشاكيها
الهوى ويشور جناها ، ويزيد عليه أن يستنطقها ويكب عليها من نفسه
ولو قدرا تحس به معه ، وتشاطره ، وتختلج من أجله .

يقول الأخطل الصغير (١) :

أنا ساهر والسهل في	حضن الطبيعة كالغلام
وكأني فتحت ذرا	عيها ليهنا بالمنام
يففو ويحرس ثغره	روح البنفسج والخزام
السهل نام فلا حرا	ك ولا هتاف ولا بغام

صورة هادئة كالعناصر المشتركة في تكوينها فالأمومة المفتوحة
الذراعين ، والطفولة الوسنانة الموعودة بالهناء المائل ، والاعفاء والبنفسج
كل هذا يلطف ويفتر . وإذا كان السهل قد غشته تهوية من نفاث
فلا غرو أن تكون صورة الشاعر هادئة ساكنة لتكون انعكاسا صحيحا
للجو الذي صورته ، وترجمة صادقة للمنظر الذي تحتفل به وله .

أنا ساهر والبحر أخرس لا هدير ولا احتدام
كالارد الجبار منطرح على صدر الرغام
فكأنه والرمل الفا صبوة منذ الفطام
فتعانقا عند المنام وملء ثغرها ابتسام
في ذلك الصمت الرهيب وذلك الليل الجهام
ما كان يخفق غير قلب كاد يتلفه السقام

(١) قصيدة قلب خافق ص ٦٤ و ٦٥ و ٦٦ .

ليس بينه وبين الطبيعة تجاوب ... هو حقا مفتون بها افتتانا ينم
عنه وصفه لونا وغزله فيها ولكنها ... لكنها هي لا تشاكيه الهوى
ولا تصغى اليه مجرد اصغاء .. بله مجاذبة الحديث ومشاطرة الأسى حين
البأساء ومضاعفة الفرح عند الظفر ...

ما أعظم الضوضاء يحدثها فؤاد المستهـام
اذ راح يخفق وحده خفقان ألجنة الحمام
فى مثل ذا الصمت الرهيب ومثل ذا الليل الجهام

يرى فى خفوق قلبه وحده ضوضاء تهوله ، وأرى فيه وحشة ترهق .
وقد قرأت له قصيدته (سلى الليل) (١) حتى بلغت قوله .

حياتى هل ثغر البنفسج يفتـر كعهدى وهل يجرى كعادته النهر
وهل يذكر الصبصبا اذ نحن عنده وفي اذن الظلماء من همسنا نقر

ففرحت له وحسبته بدأ ينسل بين منعطفات الطبيعة ليتصادق معها ،
فاذا به يقف عند الخطوة الأولى لا يريم اذ أحله فى موضوع آخر وشرع
يقول :

سقيت مرارات الحياة فلم أجد كمثل الذى يسقيه من كفك الهجر

ولست أنكر أن الشاعر يستح له أحيانا الاتصال بالطبيعة فى
مواضع متفرقة من ديوانه ... بل انى أتلمس هذه المواضع تلمسا
لأهتف بها وأفرح بوثبة شعرنا العربى عامة نحو هدف كريم ، ولكنها
مواضع معدودة وان حفل الديوان بوصف جمال الطبيعة ... وصف
المشاهد الدقيق الملاحظة لا وصف المنمنم فيها ، المتجمل بها ... ليته
يكثر من مثل قوله :

عذرتك ياقلب من للهوى أنتركه بعـدا يـذبل
سكتنا فما غرد العندليب وتبنا فما صفق الجدول (٢)

وقوله :

كلما غنيت لنا فى ديار البلبـل
سرق اللحن وألقا ه باذن الجدول (٣)

(١) قصيدة سلى الليل ص ١١٨ .

(٢) قصيدة كفانى يا قلب ص ١٤٤ .

(٣) قصيدة آه ما أحلى الحميا ص ١٤٥ .

وقوله :

أنا طيف من خيالات الليالى
من صدى الوادى ومن همس الدوالى
كم على الصحراء وشى من خيالى
وعلى البحر يتيماتى الغوالى (١)

وقوله :

أن يمر الغيم أسرابا عليها يتخذ شكلا ليغرى ناظريها
صورا أو لعبا تجلو لديها تارة يدنو وحينما يعتلى
راقصا بين ازرقاق الجدول والسما الزرقاء (٢)

صورة غنية للغمام يبدو فيها الواقع فى سمة الخيال .. حقا ان من يخلو الى الغمام يتراءى لعينه صورا وأشكالا وهيئات لها نظائر عند رائيه فلم يقل الشاعر غريبا . ولعل أكبر ما لفتنى فى صورته ، تلك الشفافية التى ترقص الغمام (بين ازرقاق) الجدول ! .. انها عين شاعر تلك التى ترى الظلال بين انعكاسات اللون وتموجاته .. وقد تخطى عيون الأشياء نفسها لا الظلال ، والجدول بلونه ولحنه لا (ازرقاق) الماء فيه .

(ازرقاق) ! كلمة واحدة تجسم لعينى تدرج اللون بين الشفافية والعمق وهى فى تجسيمها التدرج اللونى تمثل لى أيضا الصفاء النقى الذى يتيح ويتسنى معه ملاحظة التدرج .

(ازرقاق الجدول) كما تطربنى هذه الكلمة بايحائها ورؤاها ..

والغمام يرقص بين ازرقاق الجدول .. ان عين الشاعر تخترق سطح الماء وتنفذ الى الصورة المتراقصة تحت السطح فى ثنيات اللون الأزرق .. الى الصورة الراقصة بين ازرقاق الجدول ..

وبعد هذا لا زالت نفسى ممثلة من التعبير الشاعر والشاعر المعبر ، لازالت نفسى ممثلة من رقص الغمام بين ازرقاق الجدول .

والشاعر أشد ما يكون احتفالا بالطبيعة فى أغانيه فهنا يجلوها جلوة عروس ويجلسها على أن تعبر الانسان غير قليل من اهتمامها وحبها ..
ففى أغنية (الصبا والجمال) يجلس عروس الأغنية على عرش

(١) قصيدة من رأى الشاعر تاب ص ١٤٨ - ١٤٩ .

(٢) قصيدة الجبل الملهم ص ١١٦ .

الحسن ويجعل السماء تسكب زرقتها اللازوردية في عينيها ، والهزار يرسل أغاريدته ترنيمات تسرى في أذنيها ، والروض على عطره ورياه يشمل بسكرة كبرى عند مجرى العبير من نهديها ٠٠٠ والورد يحن من جمالها ، وتستبد به الغيرة فيقتل نفسه حسدا منها ويلقى دماه في وجنتيها ، والأنسام تحدث الفراشات عنها حديثا يزهدها في الزهر مختلفة ألوانه ويهفو الى شفتيها ٠٠٠ وهنا يحس الشاعر أنه أبدع من عروس الأغنية آلهة من آلهة الأغريق ، ويرضى أن وفر لها كل ما في طاقة الحقيقة والخيال من الجمال (العبقري السنا) ٠٠ واذا يحس هذا لا يلبث أن يقول :

رفعوا منك للجمال مثالا وانحنوا خشعا على قدميك (١)

انها ملكة جمال منذ استهلكت القصيدة ٠٠٠ ملكة ملك يديها تاجان ، الصبا والجمال ٠٠

الصبا والجمال ملك يديك نصب الحسن عرشه فسالنا فاسكبى روحك الحنون عليه كلما نafs الصبا بجمال ما تغنى الهزار الا ليلقى سكر الروض سكرة صرخته قتل الورد نفسه حسدا من والفراشات ملت الزهر لما رفعوا منك للجمال مثالا	أى تاج أعز من تاجيك من تراها له فدل عليك كانسكاب السماء في عينيك عبقري السنا نساء اليك زفرات الغرام في أذنيك عند مجرى العبير من نهديك ك وألقى دماه في وجنتيك حدثتها الأنسام عن شفتيك وانحنوا خشعا على قدميك (٢)
--	---

حق لمن ترقرق لها هذه الأبيات والصفات أن يضل الهرم طريقه اليها لتدوم لها نعمة تاجيها ٠٠ الصبا والجمال ٠٠

وفي أغنيته (يا ورد من يشترىك) (٣) نجد الشاعر في أسرة الطبيعة كأنها أحد أفرادها يحنو على الجميل الغضبان ، والليل الأسوان ويتسمع شكاة الشاكي ، ويرقا دمة الباكي ، ويسائل ويناجي ويهون هم الشقي ، ويرمز من وراء هذا كله الى من يعنى ٠٠٠ الى التي تعبت خلودها المفداة في مهجته ٠٠٠

(١) قصيدة الصبا والجمال ص ١٢٨ .

(٢) قصيدة الصبا والجمال ص ١٢٨ .

(٣) أغنية (ياورد من يشترىك) ص ١٥٧ - ١٥٨ .

أن الشاعر ينحنى على الورد الأحمر ليقطفه كلا انه صديق
يحنو عليه ليسائله :

يا ورد يا حمر قولى مين دا الى جرحك
جرح شفائيك وخلى على شفائيك دمك

وهو اذ يقترب من الورد الأصفر يسكب عليه من روحه وهو
يقول له :

أصفر من السقم أم من فرقة الأحباب
ياورد هون عليك

يا ورد يا صافى الود .. هون عليك فهل ترد للشاعر
ولى هذا الرجاء ؟

هنا والحق يقال قد دنا الشاعر من الطبيعة خطوات كدت أقول
(خطوتين) على طريقته فى ايثار المثنى وهل أعز على الطبيعة من يحنو
على الورد يمسح دموعه ويضمه جراحه ؟

وبعد ، فإن الشاعر بسببيته وإيجابه إزاء الطبيعة لو جاز هذا التعبير
يقف منها موقف المشاهد فى المعرض الحافل المشاهد المتذوق الذى
تعجبه هذه اللوحة أو تلك فيحرص على اقتنائها ليزين بها بيته
فمحسب لا شك أن مثل هذا المشاهد فضل الاختيار ، وفضل التذوق ،
وفضل التقويم ولكنه بعد هذا ليس كالأخر الذى يرى العمل الفنى
فيقف عنده طويلا ويتأمله طويلا ويعيش فيه حتى ليمر بالتجربة التى مر
بها صاحب الأثر نفسه .

وهذا اللون من التذوق ، وهنأ الطراز من الإعجاب يكون موقف
صاحبه من الطبيعة موقف المتحد بها الذى يسمع أو يخيل اليه أنه يسمع
الليل اذا عسبس والصبح اذا تنفس . يسمع الزهر وهو ينبعث ، ويحنو
كالشاعر كيتس على العصفور وهو يلتقط الحب فيحس صادقاً أنه
يلتقط معه

ولكن شاعرنا يبدو كالصانع الماهر الذى تتلأأ تحت عينيه حبات
الماس فيلمسها فى رفق ويختار منها فى ذوق ، ويرصع بها قلائده بيد
صناع وما باليسيرة ولا الهينة مهمة الذوق والتنسيق والترصيع

شعر الجمال والغزل

وبعد الطبيعة بمفاتها ننتقل الى لون آخر من الجمال وقف عنده الشاعر وأبدى رأيه فيه ذلك هو جمال المرأة ٠٠ والشاعر يرى رأيا في الجمال عند العرب وعند الافرنج ضمنه قصيدته (وصف فتاة) فبحسبها (عند العرب) في الشعر والحد والنهد ، وتمثلها عند الافرنج في الهدوء والشاعرية والملائكية حتى ليتهيّب أن يسمى الجسم فيها بأوصافه المادية فيتملاها من بعيد وقد :

رقدت ترشف الكرى مقلتها	مثلما ترشف العطاش المياها
صاعدهات أنفاسها هادئات	كصلاة الأطفال طهر شداها
تضلم الحلم لؤلؤيا فتمليه	طهورا على الصبا شفتاها
وأزاح النسيم عن صدرها الثوب	ب فلاحا ٠ ولا تقل نهداها (١)

هنا مقام تصوف يغنى فيه الرمز عنده ، وينوب التلميح عن التصريح .

أحسب أن الفتاة العربية غيور من هذا التفضيل عليها . ولعلها عاتبة على الشاعر أشد العتب تلهيته لها ببضع صفات مادية حسية ان دلت على جمالها فهي لا تسجل لها فضلا فيه على كل حال ٠ فالجميل وهب الجمال هبة ولم يكتسبه اكتسابا ينهى عن فضل أو اقتدار ٠

وما هكذا جميل النفس ، جميل الروح ، جميل الصفات ٠ فالجمال المعنوي لصاحبه دخل كبير فيه يوجب اكباره ٠ ويستأهل التقدير حتى ليقف الشعر ازاءه متحرزا يتحفظ في التعبير ولا ينطق فيه ٠ فاذا تجرأ النسيم العابت وأزاح الثوب عن صدر جميلة النفس فذاك لا يعقل ومن

(١) قصيدة « وصف فتاة » ص ٣٥ ٠

ثم فهو غير مسئول • أما الشاعر المتذوق المقدر فقد أقصر الوصف عند فعل النسيم ثم لم يتجاوزه الى النتيجة ، بل حذر أن تفعل أو (تقل نهديها) ••

لقد شاد بالعفة وافتخر بها بين نساء العرب ••• ولا شك أن العفة قدس لا يرام بل نحن بما قينا من وراثات ، وما ينحدر في عروقنا من دماء — مجنونون بالعفة ندين بها ونفتديها • ولكنى مع هذا تواقه جد مشوقة الى من يصفنا نحن العربيات •• نحن الشرقيات بجمال النفس بمواهب العقل •• بمعجزات القلب •• بأشراقات الروح •• أنا مشوقة متطلعة الى من يصفنا بهذه الصفات ••• دون أن يقتصر على محاسن الجسم ••• بل لا على الواصف أن يمدحها •• مزايا الجسد هذه اذا سجل لنا كرائم الحلال والأعمال •

ولكنى أخشى أن يكون الشاعر ممن لا يرون في الجمال الشرقي الا محاسن جسمية •• فهناك غير قصيدة (وصف فتاة) قصيدته (هند وأمها) التي تشي بهذا رغم ما خلعه عليها من ألوان الروض والورد • ولكن (هند) أو أمها بعد هذا لا تزيد الواحدة منهما عن دمية تجذب بالألوان والبريق ، ولكنها هيئات أن تصل الى مرتبة (فتاة الافرنج) (١) التي :

تعلم الحلم لؤلؤيا فتمليه طهورا على الصبا شفتاها
ولى على قصيدة (هند وأمها) فضل آخر من تعليق •• فالقصيدة طريفة لولا أن رد الأم يشي بزهوها ، بجمالها ، حتى على ابنتها •• ومن طبع الأمومة أن تركى جمال البنت وتقدمه على جمالها وجمال سائر الحسان •••

وللشاعر ألفاظ يصوغ منها شعره في وصف الجمال النسوى ••• هذه الألفاظ بمثابة علب ألوان عند رسام يفتحها كلما شاء التلوين •• وكذلك يفعل الشاعر في علبه ألفاظه •• فالورد اللون الأحمر ، والثنايا اللون الأبيض ، والليل اللون الأسود ••• وقل مثل هذا في الباقي •• لقد صاغ الشاعر قصيدة لطفلة في الخامسة - (ندى) (٢)

ندى من سلسل الحمى سر في الثنايا العذاب

(١) قصيدة (وصف فتاة) ص ٣٥ •

(٢) قصيدة (ندى) ص ١٥٢ •

من صيف الشعر فوق السـ
رددت لى بعد يأسى
جبين سطر كتاب
حلم الهوى والشباب
من أنبت ! !

الله الله
وصفقت بيديها
عضت على العناب
وغمغمت بالجواب
سل الرياحين عنى
وسل حنين الرباب
ندى ، ندى بسمة الور
رضابها للحمى
د للندى فى الصباح
والحد للنفاح

وصف حبى حتى لبنت الخامسة ٠٠٠ الورد والعناب والتفاح ٠٠
بل الحميا والرضاب والثنايا العذاب والهوى والشباب ٠٠ كأنه يصف
كاعبا فى العشرين ٠ وكان الأخلق بالسوسنة الغضة أن يتحدث رائيها عن
البراءة فيها والصفاء ، والطفولة الواعدة : وزحها وعدوبتها وسيل
أسبيلتها ودميتها وألعاها ٠٠٠ وكهم ٠٠٠ فى الطفولة من معان ٠٠٠
وهو يدين بالجمال المنع المحمى ٠٠ شأن كل عربى ٠

إذا ما وردة عرضت لنذل كرهت الورد تقبيلاً وشما
لشموكته أحب الورد حتى إذا يد سبافل غمزته آدمى (١)

والذى يصف جمال المرأة هذا الوصف ولوع بها حفى ٠ ومن يكون
للمرأة غير شاعر الهوى والشباب ٠٠ وهو فى الحب يتفانى شأن كل
أصيل فى الهوى من شعراء الغزل ٠ ويبلغ به الايثار جدا يقول معه :

ولو أن النعيم كان جزائى فى جهادى والنار كانت جزاها
قلت يارب أى ذنب جنته أى ذنب لقد ظلمت صباها
أنت ذوبت فى محاجرها السح رورصعت بالآلىء فاهها
أنت غسلت ثغرها فقلوب الـ ناس نحل أكمامها شفتها
رحمة رب لست أسأل عدلا رب خذنى ان أخطأت بخطاهها
ذع سليمى تكون حيث ترانى أو فدعنى أكون حيث أراها (٢)

وقد تغزل طويلا فى المرأة ٠ وغزله روى من الدلالات ، تباها من
العدوبة والركة ٠ وهو عميد ملقى السلاح ، لم لا والحبيب مغرى العيينين ٠
فلا غرو أن يكون الشاعر مقتلا مغلوبا على أمره :

(١) ص ١٠٢ ٠

(٢) قصيدة د بلغوما إذا أتيتم حماما ، ص ٣٦ ٠

جفنه علم الغزل ومن العلم ما قتل (١)

ليس الذنب ذنبه ، وإنما جفنه علم الغزل !

وهو يسخر من العاذل وكأنه يعتذر إليه :

قل لمن لام في الهوى هكذا الحسن قد أمر
ان عشقنا فعدونا ان في وجهنا نظر (٢)

ويرتفع حيناً بالحب فيرى في الحبيبة فوق شخصها خيالات أمسه ،
وذكرات صباحه ، وأحلام نفسه ، وصفوه وأنسه :

كيف أنساك يا خيالات أمسى ذكرات الصبا وأحلام نفسي
كيف أنسى الأيام صفوا وأنسا كيف أنسى ... (٣)
وهو رقيق حين التذكار ... تلمح عليه هذه الرقة حين يقول من
قصيدته زاهرة الربى :

لى فيك عند المنحنى وعقيقه ذكرى تطوف بالجلسون وتستقي
شاعر يترقرق كدمعه ...

وهو على حبه الحب وتفانيه فيه تعجبه الثورة من أجل الكرامة .
وهل غير الإعجاب والتأييد دفعه الى تعريب قصيدة (الى امرأة) عن الشاعر
الفرنسي (لويس بويه) ومنها :

ماذا ؟ أحقا كنت بى تهزئين وكنت فى حبك لى تكسدين
مهلا فمصباحك لم يأتلق الا بما من شعلتى تقبين
هل كنت فى أبهى ليلالى الهوى أيام كنت فتنة الناظرين
هل كنت اذ ذاك سوى آلة الحانها منى ومنها الرنين (٤)

لقد درست أكثر من شاعر من شعراء الغزل فاذا هم باذلون
متفانون ، حتى اذا ثاروا أو بالأحرى استثيروا عرفوا أقدارهم ، وقبروا
أفضالهم ، وغالوا بشعرهم ورأوا فيه خلافا صناعا بعد أن قدموه قربانا
ورفعوه صلاة الى عين الحبيب :

وفى شعره سهاد ، ولكنه نزر الكلام على ما يبدو ، فلم يحك لنا

(١ ، ٢) قصيدة (جفنة علم الغزل) ص ١٢٩ - ١٣٠

(٣) قصيدة « كيف أنسى » ص ٥٠

(٤) قصيدة « الى امرأة » ص ٧٥

مرة خيالات سهاده . ورؤى أحلامه فيه . . . قصارى ما تسمع من شكاته قوله (١) :

أبدا سهاه كتيب لا صديق ولا حبيب
ومع الليل لى نحيب كنعيب الحماتين
بعده بين

وفى قصيدته (اغضاضة يا روض) (٢) يقص حديثه القطيعه فيكون قصباره أن يسرد ما دار من عتاب أو بعضه وكفى ، ولا يتدسس الى مطاوى النفس عنده وعندما ليتقرى كافة مشاعرها فى تلك اللحظة الرهيبة فى حياة المحبين . .

وفى قصيدته (خيال من دمر) (٣) ، يتذكر فيقرى السلام ، ويجدد العهد والميثاق ، ويناشد العيون الوفاء فى إيجاز ، ويروى طرفا من حديث خاطف دار بينهما ثم يصمت . . .

أين أمانى اللقاء ؟ أين أحاديث النفس وأحلامها عنده مرور موكب الذكريات ؟ أين وحى الطبيعة - وهو من المفتونين بها . . . أين وحى الطبيعة بنسيمها وبلايلها وبدورها ونجومها وليلها وسحرها فى تلك الساعات الحساسة من العمر ؟ . . . هذه بعض الأسئلة التى تحيك فى نفسك وأنت تقرأ ذكرياته . . أتراه يرسل الشعر على طريقة العصفور عندهما يحس ماء القطر فى اجتزاء سريع ؟ . . . ربما .

وهو شاعر عاطفى تستهويه لغة القلب ويطربه حديثه . . ينم عن هذا شعره واقتباساته . . فقد اقتبس عن الفرنسية قصائده : (العيون) (٤) ، (أنا لو كنت يا سليمى) (٥) ، (قلب خافق) (٦) ، (الى امرأة) (٧) التى عربها حرفيا عن الشاعر الفرنسى (لويس بويه) كلها قصائد غزلية أو فى حكمها . .

ولكن شاعر الهوى والشباب له طابع خاص فى الغزل . . طابع يمثله هذا البيت :

المها أهدت اليها المقلتين والظبا أهدت اليها العنقا

(١) قصيدة آه يا هند لو ترين ، ص ٤٥ .

(٢) ص ١١٠ .

(٣) ص ١١٣ .

(٤) ص ٤١ .

(٥) ص ٥٥ .

(٦) ص ٦٤ .

(٧) ص ٧٥ .

أرى مادة غزله محدودة ٠٠ العيون من المها ٠٠٠ المعنى من الظها ٠٠
والروض يتكفل بالباقي يضع في الصدر رمانتين ، وعلى الحد وردتين ،
وعلى المبسم اقحوانه ، ويقعد القعد من خيزران ، وما على الليل الا الشعر ٠٠
والفجر الا الثغر ٠٠٠ وكأنه بين الشعاع وبين هؤلاء عقد مكتوب فقد
صنعوا (هنه وأمها) كما صنعوا له (مى) عذراء لبنان التى ذهبت الحرب
الأولى بوالديها ضمن نصف سكان وطنها ٠٠٠

ولعل هذا المضطرب الضيق فى التعبير عن الجمال يرجع الى ميل
الشاعر الخاص ، فهو يحب الجمال النسوى ولكن حبه له حسى كحب عمر
ابن أبى ربيعة وهو شاعر أثير عنده ٠٠٠ قلما يحدثنا بشارة عن لواعج
الشوق وخيالات الأحلام ، وأمانى القلب ، والياس والرجاء والفداء والوفاء
وغيرها من المعانى التى تلون حياة المحبين وتخصبها ، ولو فعل لتعددت
معانيه ، وتنوعت أوصافه ، وتفننت أساليبه وشق حديثه ٠٠٠ ولكنه
يبدو أن الجسم راقه الى حد غفل معه عن الروح ، عن النفس الانسانية
وخوالجها ومكنوناتها ٠

ولما كانت مقاييس الجمال فى الجسم تكاد تكون محدودة على اختلافها
فلم يجد الشاعر بدا من أن يدور تبعاً لهذا فى فلك ألفاظ وأوصاف معينة
محدودة هى الأخرى ٠٠ ألفاظ وأوصاف لا تتجاوز حدود الروض ٠٠٠
حقاً فيها من جماله اذ لا يصدر عن الروض الا جميل الطابع ٠٠٠ ولكن
الدنيا ٠٠٠ دنيا النفس بل ودنيا المادة أيضاً فيها من ألوان الجمال الأخرى
ما يسبى ويفتن ٠٠٠

ولكنه على تكرار أوصاف الجمال عنده يؤنسك ويمتعك فما تمل
حديثه مهما تشابه ، من جمال الوشى ، ولطف الأداء ، وملازمة التعبير ٠

القصة

ومن فنون شعبه القصة . . . وفي الحق أن الشاعر قصاص أصيل .
وهو يستطيع أن ينقلك الى عالمه فتعيش مع أبطاله وتتألم لآلامهم ، وتشرق
لفرحهم ، وتقيد خطاك بخطاهم ، تماما كما يفعل الكاتب الذي لا تقيد
القوافي والأوزان . . . وهو على ايجازه في شعبه الغنائي ، طويل النفس
في القصة ، يفصل الحوادث والحوار ، ويترجم الانفعالات ، ويصور الاخلاق
والناس ويتعمق أحاسيسهم . . . لقد قرأت قصته (الريال المزيف) (١)
مرات وشجيت بها وانفعلت بما فيها من مشاعر وصراع نفسي عنيف .
ولا شك أن هذا التأثير قدوة تحسب للشاعر . . .

وقصته لا تنقصها مقومات القصة الفنية من عوامل التشويق وخلق
العقدة وحلها . . . وأبطاله أشخاص عاديون نلمحهم في الحياة الجارية كل
يوم . . . وفي قصصه عنصر المفاجأة - وفيها نقد - وفيها صور ، وفيها
استقصاء . وفيها بعد هذا تدفق في السياق يستلک الى عالمه ولا تدرى ...

سنرى مصداق هذه كله في قصة (الريال المزيف) التي استلهاها
بهذه الصورة :

ويح الفقير فما تراه يلاقي	سدت عليه منافذ الأرزاق
عصفت به وبسربه ريح الشقا	فتساقطوا كتساقط الأوراق
فاذا بصرت به عجبت لشمعة	كالزعفران تجول في الأسواق
علق المجاعة مص بعض دماؤه	وتعسف الحكام مص الباقي
أخذ الشقا يدها فسارت خلفه	والليل ممدود على الآفاق

(١) قصيدة الريال المزيف ص ٥٩ - ٦٣ .

سارت ، فماس الخيزران بقدها
وتلوح آثار النعيم بخدها
ثم يكفهر وجهها فجأة :

أخذ الشقا يدها فان هي فكرت
بمصيها صغقت من الاشفاق
ثم تهاوت مما تلاقى :

ووهت عزيمتها فألقت نفسها
تشكو بدمعها وذل فؤادها
فوق الثرى وشكت الى الخلاق
وبما تحس به من الاحراق
ماذا تراها تبغى ؟ ما قصتها ؟ انها تفضض ..

يارب . قالت وهي جاثية له
قد عشت عمري ما عرفت بريية
والآن والأيام ملأى بالأذى
زوجي يحارب في التخوم وطفلي
من أمها تبغى الغذاء لجسمها
وطرقت أبواب الكرام فأوصدوا
ان شئت حل من الحياة ونأقي
وعبدت بعدك عفتي وخلاقي
قد أصبحت وقرا على الأعناق
فوق الفراش تزيد في ارهاقي
من أمها تبغى الدواء الواقى
أبوابهم فرجعت بالاخفاق

أبواب الكرام .. ان الشاعر هنا ينتقد المجتمع .. يسخر منه ..
سام الفتى عرضي فيالك من فتى
كاسى الغنى عار من الأخلاق
ان الغنى شيء .. والأخلاق شيء آخر ..

ثم تبدأ العقدة بهذا الصراع :

أصون عرضي؟ وابنتي؟ وحياتها
أنا أن أعف قتلتها فعالم لا
لا .. لا تموت فانها لبريئة
أنى مفارقة ابنتي أو عفتي
والذنب للأيام في حدثانها
ويلها ! ما عساها فاعلة ؟؟

رباه حلمك فالمصائب جمّة
لو شئت موتا لابنتي لأخذتها
لكن أردت بقاءها وأردت لي
ستعيش بنتى وليكن ما شئت
لقد بكى قلبى ...

ثم حلت العقدة حلا داميا وانكفأت الشقية راجعة ..

رجعت وفي يدها الريال ورأسها لحياثها متواصل الاطراق
وكأنها خطرت لها ابنتها وما تلقاه من ألم الطوى المقلق
فأصابها مثل الجنون فتمتمت بشراك أنى عدت بالثرياق
هو ذا الريال فانه نعم الذى يهب الشفاء لنا ونعم الراقى
هو ذا الريال وقد تألق ماحق دجن الهوم وقد أردن محاقى
هو ذا الريال ولم يكن لولا ابنتى ليسنومنى تكرا على الاطلاق

مسكينة ، انها تبرر وهى تتمزق شر ممزق !!

هو ذا الريال وقد تألق ماحق(١) دجن الهوم وقد أردن محاقى
(وقد أردن محاقى) أليست كناية حنانة عن تهديد المرض حياة
ابنتها ؟

ومضت الى الطباخ تلجم ما بها لغتاتها من لاعج الأشواق
قالت - وأدته الريال - ألا اعطى بعض الغذا واردد على الباقي
ان الريال المشنوء ثروة المسكينة ..

أسرع فانك ان تؤخرنى تذق من جوعها بنتى أمر مذاق
سحقا لهذا الجوع .. ما أقساه ..

نقف الريال بأصبعيه وجسسه وانها بالارعاد والابراق
(نقف) ان اللفظ يرسم حركة خاطفة عابسة ..

قبعا لوجهك .. سيدى أتسبىنى عفوا وتحسبىنى من السراق ؟
لا .. فالريال مزيف .. أمزيف ؟ صاحت وقد سقطت من الارهاق
يا لشقاوتها .. تسرق أغلى ما تملك ثم تتهم .. بالسرقة ! عقدة
جديدة ..

سقطت على قدم الشقا فبكت لها عين العلا ومكارم الاخلاق
وبكى عفاف الأنسات عفافها خلل السجوف بمدمع مهراق
انسانية عاطفة مشاركة ..

يا طير عفتها فديتك طائرا هلا حذرت حباثل الفساق

(١) صواب اللفظ (ماحق) (ماحقا) « حال » فهل تدافع الشعور عند الشاعر
جرف الآلف فحسب الخطأ على الشاعر ؟ لست أدوى ...

ملام اسوان مشفق ٠٠

ثم يحل الشاعر العقدة الجديدة حلا دائما أيضا ٠٠

طلعت عليها الشمس وهي سجيّة وفاتتها ضيف على الأسواق
أما الأثيم فلا تزال شباكه منصوبة لنواعس الأحقاد
يسقى الزحيق باكؤس ولواظظ والله يكلأ « وهو نعم الواقى »

والله يكلأ ٠٠ هنا غموض لعله مقصود ٠٠ « والله يكلأ » هل يعاتب
عدالة السماء ويستحثها أن تأخذ بخناق ذلك الأثم وتتقاضاه ثمن
جريرته ؟

أم « الله يكلأ » الأعراض الغوالى ؟

على كل حال الشاعر مفطور ٠٠ موزع القلب ٠٠ مفتت الأعصاب ٠٠
هذه قصة اجتمعت لها كما أسلفت كل مقومات القصة الفنية
ولعل الأبيات التي سقتها للتمثيل تدل في نفس الوقت على التدفق في
السياق ٠٠ فمن أجل هذا الغرض سلسلت عددا منها في مواضع
الاستشهاد ٠٠

وبه نزوع الى القصة يتنفس في مثل استهلاله قصيدة « سلمى
الكورانية » ٠٠

أتدرى كيف كان ٠٠ لقد صاغه على هذه الصورة أو صاغه في هذه
القصة :

تعجب الليل منها عندما برزت	تسلسل النور في عينيه عيناها
فظنّها وهي عند الماء قائمة	منارة ضمها الشاطئ وفداها
وتمتمت نجمة في أذن جارتها	لما رأتها وجنت عند مرآها
أنظرون يا اخوتا هذى شقيقتنا	فمن تراه على الغبراء القاهها
أتلك من حدثت عنها عجائزنا	وقلن أن ملك الجن يهواها
فاطلق المارد الجبار عاصفة	تغزو النجوم فكانت من سباياها
قصت نجيمتنا الحسناء بدعتها	عن (نجمة الشط) والأذان ترعاها
وكان بالقرب منها كوكب غزل	يصغى ، فلما (رأها) سبّح الله
وراح يقسم أن لا بات ليلته	الا على شفيتها لاثما فاهها (١)

ان الشاعر قد يصطنع التشبيه للتبيين أو التهويل فيسوقه قصة

(١) قصيدة « سلمى » الكورانية ص ١١٩ .

في القصة كما فعل في قصة (عروة وعفراء) . . . أراد الشاعر أن يهول
نبأ زواج عفراء يسمع به عروة فكانت هذه القصة :

ما عاغل في الحقل حمل يومه	ما ليس يحمل مثله الهرمان
يمشي لمنزله بنفس مغالب	مر الشقا بحلاوة الوجدان
يمحو بفكرته عبوسة دهره	بتبسم في آله وحنان
يمشي وما هو ان دنا حتى رأى	في كوخه المحبوب سحب دخان
ورأى اشتعال النار في أخشابها	ويكا النساء وتهافت الشبان
فأحس بالجلي فأسرع ليتنه	أودى ولم تسرع به القدمان
فاذا قرينته الحبيبة جثة	وبجنبها ولداه يحترقان
ما خطب هذا وهو أهول ما رأته	عين وما سمعت به أذنان
بأشد من قول الرواة لعروة	عفراء أمسست زوجة لفلان

أليست هذه قصة بكل مقوماتها من تشويق ومفاجأة ووجود العقدة
وحلها . . . وغير هذا من عناصر ؟

وشيء آخر ، ألا ترى معنى أن النبض في شعره القصصى أزخر حياة
منه في سائر شعره ؟ أترى السر في الموضوع الذي يمضى فيه وهو
مسحر بجوه ؟ أم السر في تعاطف الانسان وتجاوبه مع ذى الالم حتى
عبر الزمان الخالي والمكان ؟

ان الشاعر متمكن من القصة على كل حال . . .

وله قدرة عجيبة في سلسلة الحوادث مهما تعقدت . وصياغة الحبكة
الفنية وإدارة الحوار وتوثيق العقدة وحلها . . . اقرأ له (سلفين وجيروم)
ثم أنصفه . . .

والقصة عنده ملكة طبيعية فهو أشد ما يكون انطلاقا حين يقص
نعم بعض ما ورد بالديوان من قصص انما هو قديم موجود لم يبتكر
حوادثه بل صاغها شعرا . . . ولكن صياغة موضوع ما صياغة شعرية
على هذا الطراز فضل يحسب لصاحبه بلا مراء . .

المجتمع والوطن في شعره

ولم يغفل شعره المجتمع الذي يعيش فيه ، وكيف وهو ينبع منه
ويصدر عنه - ولعل ما فيه من سباحات في الجمال وتأملات في الطبيعة ،
مهرب - ولو الى حين - من الواقع المرير لفرط احساسه به . .

وهو كشاعر مرفف الحس أعمق تأثرا ببلايا المجتمع بل أنني أحس
كربه وغصته وهو يعالجها حتى ليتجه الى الله في ضراعة لهيفة فاقدة
اللب يختلط عليها الأمل فتخرج وتستنكى وتتمنى وتعتب . . ضراعة
محروبة لا يتخرج أن يلوم غير ملام :

رب . قل للجوع يصبح شبعاً	وانقذ الطهر الذي قدسته
أو مر الفسق فيغدو ورعاً	ان يكن شراً فلم أوجدته
طبعته قدرة فانطبعاً	أى شيء أنت ما قدرته
ملك حطمت منه الجانحين	فهوى من بعد ما قد حلقت
ما ترى يفعل مكتوف اليدين	أترى يقدر أن لا يغرقاً (١)

ليس هذا وصف شاعر . . انما هو حركات قلب ملتهب ولو لم
تمسه نار . .

وهو يتهم الأغنياء بقصور النظر أيضاً وسوء الطوية ويجابههم :

أيها الناس ألاي خاظو الكفن	لفقير كى يفوزوا بالشراء
هب ورثتم بعده الأرض فمن	يصلح الأرض لكم يا أغنياء
فاذا طاح بذى الفقر الزممن	فالغنى أن يشمل الناس عناء (٢)

(١) قصيدة « من مآسي الحرب » ص ٨٨ - ٨٩ .

(٢) قصيدة « من مآسي الحرب » ص ٧٧ - ٧٩ .

سخيرية ومرارة ونداء ملح بالاصلاح ..

وهو يرى فى المجتمع صوراً بشعة تغشى نفس الكريم فيسخر من مرارته .

أيها الفقر وان كنت كما	زعم الزاعم قواد الزنى
لك - ولتهناً - شقيق فوق ما	تتمنى ، انه حب الغنى
كم أب أمل منه مغنما	ورأى فى بنته نيل المنى
فرمى بالعرض عرض الحائطين	ومشى بابتنته للملتقى
فهو من ذاك وذا صفر اليدين	شرف مات وعرض مزقا (١)

صورة بشعة .. ولكنها من صور المجتمع ..

وهو يعنى على المال خيله للعقول والضمائر :

قوتل المال فكم من رجل	قتل هذا قاد يوما واستقاد
رد عنه المال سيف العذل	ووقاه السن اللوم الحداد
ولكم من عادة لا تأتلى	تطرح الجسم على مهد الفساد (٢)

ان الرجل يتململ مما يرى حتى لقد أعدى تلظيه الكون :

وفؤاد الكون معجوم كتيب (٣) وفؤاد الكون معجوم كتيب (٣)

وهو يحنو على الضحايا ويرسم لها صوراً تستنهض الخامد .
وتحرك ضمير الجامد .. صوراً تبرز الشر رغبة فى القضاء عليه .

وقفت (مى) بيباب الحاكم	كملاك الله مقصوص الجناح
وقفت عطشى كطير حائم	حول ماء يحسب الورد مباح
وتخطته برجلي صائم	أو برجلي ثمل من غير زاح
وهى لو أن لديها كسرتين	لشنتها عزة عن ذا اللقا
انما يأس الفتى ليس بهين	لا يبالى يائس أن يخفقا (٤)

صورة شاحبة فيها صراع وفيها ظمأ موعود ..

وهو يسخر من المجتمع الذى يرفع العابثة ويخفض المتصوفة
المتزفعة ، ويريق هذه السخيرية فى خطابه (مى) احدى ضحايا
الحرب :

« مى » ما لسحر سوى ما رسمت ريشة المبدع فى هذه العيون

(١ ، ٢ ، ٣) من قصيدة « من مأسى الحرب » ٧٧ - ٨٩ .

(٤) من قصيدة « من مأسى الحرب » ص ٧٧ - ٧٩ .

لم تصادف مهجة الارمت
فهي لو رقت لمن قد تيمت
لجرى التبر اليها واللجين
ومشت من زهوها في موكبين
هي بنت الفقر يا بنت الغنى
فارتمت (مى) على مهد الضنى
وأصابك هكذا الفتك يكون
وأباحت ذلك الثغر المصون
وكلا الاثنين يبغي السبقا
وحنا الرغد لديها العنقا (١)
تؤثر الموت على العرض السخيف
وتراميت على مهد (منيف)

سخرية لاذعة بلا شك . .

فاذا ضرى الجوع وهدد العرض صرخ مروعاً :

يا سماً قولى لنا الانصاف أين أتراه ضل عنا الطرقا (٢)
ويطرد حديثه عن المجتمع سلسلة من القصص . . تبدأ بحياة
الفضيلة على لظى الحرمان حتى اذا احترقت أو كادت التمسست الضماد
عن علم أو جهل أو تقرير عند تجار الأعراض أو دعاة الخنا . فترهق
منها روح كانت ذمءاً في كيان مجروح . . وتمضى ملوثة بعد أن تترك
الوغد يصعق البائسات منه فحيح . .



من الناعب قبل الفج	ر من هذا على الباب
أعيد القبح من قبح	بأظفار وأنياب
أقبل الشمس في الآفا	ق والعصفور في الغاب؟
وما زار الكرى جفنى	ولم تعلقه أهدابى
ولا غذيت أطفالى	سوى همى وأوصابى
فراشى يا وراك الله	منه بعض أعشاب
وهذى كويتى الفخا	ر ما فيها سوى صاب
فما تبغيه في بابى	ومن أنت أنا الجابى (٣)

أتحسب هذه الأبيات من شعر المهجر ؟ كلا . . انى لازلت أحدثك عن
الشاعر بشارة الخورى وعن شعره الاجتماعى . وهذه الكلمات المتوقدة
التي تمور بعض قصيدته (الجابى) . . قصيدة (الجابى) التي أرسلها
عندما أطلقت وزارة المالية جباتها في القرى اللبنانية يمعنون في الأهلى
ارهاقاً لتحصيل بقايا الأموال الأميرية خلال أزمة مضنية . فأوحى ذلك
الارهاق بهذه القصيدة . . الجابى . . ولكنها بحرارتها وتلهبها وتسعرها

(١ ، ٢) من قصيدة « من مأسى الحرب » ٧٧ - ٧٩ .

(٣) قصيدة (الجابى) ص ١٨٠ .

وروحها تذكرني باخوان لنا كرام في المهجر وخاصة الجزء الأول منها
الذي اضعه الآن بين يديك .. هذا الجزء يطفح بالمرارة والسخرية
اللاذعة المنتقمة التي مسخت ذلك الجاني وشوهت خلقه حتى غدا يوما
ينعب ووحشا يطل منه ظفر ويبرز ناب ، ونذيرا بالسوء يسوء وقوفه
بالباب فيرد آنا ، ويسأل في استنكار من هو ، مع دلالة شكله عليه ..
أعيذ القبح من قبح بأظفار وأنياب
حتى القبح يعيده منه ؟ .. اذن ما أقبح شكل هذا الجاني ..
أقبل الشمس في الآفاق والعصفور في الغاب
تبا له وسحقا ما أظفحه .. أعفريت بليل ؟ أم شيخ سار ؟
وما زار الكرى جفنى ولم تعلقه أهلبى
ويله ! أين قلبه ؟ ألا ذمء من مروءة ..

ولا غنيت أطفالي سوى همى وأوصابي
فراش يا وقاك اللـ له منه بعض أعشاب
وهذى كوبتي الفخار ر ما فيها سوى صاب
لهم الله أولئك الصبية .. لا كان العوز ولا كان الجاني ..
لمن ينساق هذا المـ ل قولى يا سما قولى
أأيلول على الأبوا ب لا عشنا لأيلول (١)
يباع الخبز فى بيتى لتزمر وتطبل
ولا يرئى أولو الأمر لأشباح مهـازيل
فما فى الغاب من ناب فزمجر أيها الجاني
لا تلمه ان ضج أو سخط أو حار فى حكمة القدر فقد سئم الحياة
ونمنى الموت .. وكيف لا يفعل من تنتزع اللقمة من فمه ، وتملا الكئوس
من دمه ؟ ولكن لولا من يقبل الجور ما وجد من يجور ..
فما فى الغاب من ناب فزمجر أيها الجاني
حق له أن يستنفر ...

وما يزكو الاحساس بالمجتمع الى هذا الحد الا ووراءه وطنية ذكية
حساسة هادفة . ونحن ما نكاد نصافحه فى مقدمة الديوان حتى يفضى
الينا كصديق بموقفه من الدولة العربية وما اعتصره من أجلها من
شعره .. ذلك الشعر الذى لم يبق له منه كما يقول الا كبقية الوشم
فى ظاهر اليد .

(١) أول أيلول عيد اعلان لبنان الكبير ...

ومن القليل الذي استشهد به تتراعى لك ثورته المتأججة وحماسته المتسعة ، وتستطيع أن تلمس مرارته في هذه النثبات :

الجيم نسيانك الجيم فالموت للمتبكلم
لا يسألونك ان أخذت أمنت أم لم تأتم
فالتخيل شر مرحب والعنق خير مسلم
والسجن أكرم صاحب والنفس أيسر مغنم

ولست أرى الشعر القومي في القصائد السياسية فحسب ، فإن لبنان - كما يقول الأستاذ عادل الغضبان وهو يقدم ديوان الشاعر - (لم يبرز في جهاده الطويل بالاحداث السياسية فقط ، بل نكبه الدهر بكثير من الاحداث الاجتماعية) . . . وتلك عندي علة العروبة في أوطانها جميعا . . . أدواؤنا متعددة وهي في تعددها متشعبة . . . والوطني الذكي الحس والفؤاد يشعر بأدق الاهتزازات في وطنه أيا كان مصدرها وأيا كان نوعها . . . وليس كالفن تائرا بما يجرى حوله ، وليس كالفنان مسجلا لما تطالع به الدنيا من أحداث . . . وهو أشد ما يكون استجابة للداني القريب منها المنتمى الى قلبه بوشيجة الوطنية ، الموصول به برباط الانسانية الخيرة ، المنتسب اليه بمعنى من تلك المعاني التي تمثل كرائم الانسان .

فلا غرو أن يتصل الشعر القومي بالشعر الاجتماعي ماداما يستقيان من نبع واحد من منابع الاحساس . . .

كان الشاعر بشارة الخوري يرى كشاعرنا شوقي أن الدنيا انما تؤخذ غالبا . . . فعندما تقدم بعض اللبنانيين سنة ١٩١٤ الى الثورة العثمانية بما سموه مطالب الإصلاح شهر الشاعر في وجوههم هذه الأبيات :

مثنى أراكم تسكرون كسرة للأمام
وتلبسون الى الحق سيق خوذة الاقدام
وتدرسبون على المجيد كره الاسترحام (١)

ويثوده حمل وطنه من الاستعباد فيجار :

لبنان ما لفراخ النسر جائعة والأرض أرضك أعلاها وأدناها
للغريب اختيال في مسارحها وللغريب انزواء في زواياها (٢)

(١) قصيدة « فدى لبنان نفسى » من ٥٣ -

(٢) قصيدة « سلمى » ص ١٢٢ -

وهي شغوى كل عربى زفرها بشارة فى بيتيه هذين وضمنها شوقى
من سينيته هذا البيت :

أحرام على بلبله الدو ح حلال للطير من كل جنس؟
ورقته التى لمساها لا تعارض حماسته ولا تحجبها • ولهذا تجد
الشاعر الرقيق •• شاعر الهوى والشباب اذ تشور فلسطين ١٩٣٥ -
١٩٣٦ يهتف :

يا جهادا صفق المجند له لبس الغار عليه الأرجوانا (١)
يشرب والقدس منذ احتلما كعبتنا وهوى العرب هوانا
شرف للموت أن نطعمه أنفسا جبارة تأبى الهوانا
وردة من دمنا فى يده لو أتى النار بها حالت جنانا
غدت الأحداث منا أنفسا لم يزدها العنف الا عنفوانا

ولو أنه يغلب عليه الغناء أحيانا حين يتحمس فيعلق بهتاف الحماسة
بعض الفاظه كقوله من قصيدة عيد الجهاد (٢) :

لن نراها ان لم نمت فى هواها أمة حرة ودينا جديدة
ليس (فى هواها) من الفاظ الغزل التقليدية لو جاز هذا
التعبير ؟ •• عندى أن بيته الحماسى يقتضى فى موضع (فى هواها) ••
« فدى لها » مثلا •

وفى مجال الحماسة نذكر للشاعر هذه الأبيات :

لبنان يا وله البيان اذاكر أم لست تذكر نجدتى وكفاحى
قبلت باسمك كل جرح سائل وركزت بندق عاليا فى السباح
أنا ان نجحت فليس ذاك بضائرى وعلى الخواطر غدوتى ورواحى
تتجيب الأرواح وهى خوالد وترى العيون زوائل الأشباح
ولربما خدعتك صفحة هادى منى وفى الاحشاء عصف رياح
انى اذا جنت رياح سفيتتى ذهب الجنون بحكمة الملاح (٣)

ولاشك أن هوى الشاعر مع العرب أجمعين ولكن شعره الحماسى
كان للشام ، فى حين عزف شوقى لكل بلد عربى على قيثاره لحنا مفردا

(١) قصيدة (يا جهادا صفق المجند له) ص ١٦٦ - ١٦٧ •

(٢) قصيدة (عيد الجهاد) ص ١٦٢ •

(٣) قصيدة (ولد الهوى والحمر) ص ١٥٦ •

عبر الحانه التي تجمع بينها جمع الأم أبرار البنين ٠٠٠ وهذه الاشارة منى
لمحة من عتاب الصديق للصديق ، لا منة مزهو ، ولا زهو منان ٠٠

وما تستعلن وطنيته فى شعره كمثله قوله :

رب الارز حدثنى أحقا قولهم حقا (١)

رب الارز ٠٠ ألا تروك منه كلبناى هذه النسبة ؟ هذه الاضافة ؟
ان بدائع الله فى السماء والارض لا يحلو منها فى عين الشاعر غير الارز ،
ولا يسمو الى مقام الاضافة الى الله غير الشجر الحبيب ٠٠٠ انى أشيم
عنا وطنية وصوفية واعزازا وولاء ٠٠

وهو على عبادته لوطنه يشكوه احيانا :

مت اذا شئت أن تكون أدبيا أو فبدل بغير لبنان دارا (٢)

ولكنها شكوى الولى المخلص الذى تقانى وقدر لنفسه موضعا يكافىء
ولاءه فأخطاه التقدير ٠٠ وهى بعد هذا شكوى موقوتة ما أسرع ما تنداح
اذا مسح الوطن عارض ، فاذا الشاكى أول من يتفزع ويدمى ٠٠
أنا اعرف هذا عن تجربة فقبل بشارة الخورى شكنا مصر شاعرنا حافظ
ابراهيم صاحب البيت :

ما أنت يا مصر بدار الأديب وما أنت بالبلد الطيب
وحافظ نفسه هو الذى استطاره العزن والحب فى دنشواى وغير
دنشواى هما كابدت مصر ٠٠ وحافظ نفسه هو الذى قال :

لا مصر تنصفنى ولا أنا عن مودتها أريم
واذا تحول بئس عن ربعها فانا المقيم

هل صبح عندك ما أقول ؟ ٠٠ ان السيد بشارة الخورى يؤيدنى
بهذا البيت :

ويمطر الضيم فى أرضى وأشربه وكنت لا أرتضى أن أشرب السحبا

على أن الشكوى فى مقام الأوطان كشكوى الابن المدلل فى حضرة
أبر الآباء وأحنى الأمهات فهو يشكو من فرط حبه ، ويشكو من عظم ما
كان ينتظره ، ثم هو يعلم علم اليقين أن الذى يشكوه هو الروح التى
لا يتصل بدونها له حياة ٠٠٠ حياة كريمة رسيمة فينانة لا حياة الأيام
والسنين .

(١) قصيدة (الجابى) ١٨١ .

(٢) قصيدة (حكمة الدمر أن تعيش شكارى) من ١٧٧ .

أسلوب الشاعر في ديوانه

ويجدر بحديث يجري عن بشارة الخورى أن يقف مليا عند أسلوبه، وهو من أصحاب اللوازم .. ومن لازماته الظاهرة شيوع المثنى :

ما حرام أن أرى هذا الغصين
 ذابيا من بعد ما قد أورقنا (١)
 وهو لو شاء لأجرى نبعين
 من ينابيع الأمانى واسبقى
 وندى الحاكم يزرى المزنين
 فمتى تستمطريه اغدقا
 لماذا (نبعين) و (مزنين) وليست نبعة أو ينابيع ، ومزنة أو
 مزن .. انه الولع بالمثنى ..

لمن القصر بدت فيه الشمس
 فعلى وجه الدجى منه نهار
 يسمح النذل به فى لجتين
 ويقاسى الحر منه الحرقا (٢)
 وما دام ندلا فهو يسبح فى الحج لا لجتين فقط ..

وقد لاحظ بعض كبار كتابنا تشبثه بالمثنى فى التعبير .. والملاحظة
 صادقة فى جملتها وتفصيلها .. اقرأ له قصيدة (آه يا هند لو قرين)
 آه يا هند لو قرين موقفى بين خباثطين

(١ ، ٢) من قصيدة « من مأسى الحرب » ٨٥ - ٨٧

لا يحيران... آخر شعريين، وعلى الحسيد، ديمعتين

لو ترين

يا لأحلامي العذاب ذابلات مع الشهاب
فكان المني ضباب يتلاشى بنفختين

اثنتين

ألا ترى معي أن لفظة (ديمعتين) موضوعة لاحكام القافية ٠٠ والا
فالدنوع لا تعرف التخديد ان جاز أن يحدد النفخ بنفختين اثنتين ٠

وهو يمدح فيذكرني بالبحرني وأبي تمام وأصترابهما من شعراء المديح
٠ يذكرني بشعراء العباسيين ونزعتهم في تعظيم الممدوح ٠ وصورهم
في هذا الميدان التي تيسر النجوم والشمس والقمر ٠ ويذكرني أيضا
بالضغيات العربية التقليدية للسلادة ٠ فحين أراد الشاعر أن يرفع تحيته
الى الأمير العربي عبد الله الفيصل آل سعود حشد له سيادة السيف
والقلم والعزم والمكارم والفخار والقصاد الوقوف بالباب ٠ غير أنني لا أقر
الشاعر على (عتبة من جباه (١)) وأحسب أن الأمير الأبى يحب الأباء
للآخرين ٠ ولكنه اندفاع المدح وجموح العاطفة الشرقية التي تورط
الشعراء فيقولون مالا يفعلون ٠

وعلى أناقته الحضرية يجن الى سمات البادية في المديح من شعره حتى
الندامي بعد وصفه الحضري للخمر وبساطها يصفهم كما وصف خمسان
الأنصار بأنهم شم الأنوف صباح ٠

أهل الندى والبنين ان تنزل بهم
تنزل على عرب هناك فصاح
الشام منبتهم وكم من كوكب
هباد وكم من بلبل صباح
وطن أعار الخلد بعض فتونه
وسقى المكام فضيلة الأقداح (٢)

- (١) جاء هذا الوصف في قصيدة (تحية الشعر) ص ٣٢ والأبيات
- | | |
|----------------------------|---------------------------|
| سيد السيف واليراع فلا العز | م: بناب ولا البيان بوم |
| جده جده الذي شيد الملك | ك على مفرق النجوم الزواهي |
| قبة من مكارم وجدار | من فخار وعتبة من جباه |
| أنت للذروة المشعة منه | في الروافد من شهاب |
- (٢) قصيدة « ولد الهوى والخمر » ص ١٥٩ ٠

والبيت الأخير فخر (شعري) لو صح هذا التعبير فلا يعتمد على
وقائع من التاريخ أو سند من ضروب المجد ، على غنى الشام بالمسطور
من تاريخه وأمجاده .

ومن حل الأسلوب عنده التقسيم أو التنعيم كما أراه كقوله :

في مثل ليالات الوليد نقول للكاسات فيض
بين الكواعب من حباب والنواهد من بغيض
ناذا نظرن فعن مريض وإذا بسمن فعن وميض (١)
وهو يقابل ٠٠ ومن مقابلاته اللطيفة ٠٠٠

انها الحرب ٠٠ ولم تترك على سطوحها الا جسوما باليه
وتقوسا حوما حول البلى تتمشى في صدور خاويه
تشتكي الجوع وتقرى العلاء عجبا منها جياعا قارية (٢)
ويجانس فيخاطب ملك الأرض ٠٠ ملك الأيك ٠٠ البلبل الصداح
وكأنه يلاطفه :

صفق كما شئت بهذا الجناح فلا جناح
وشم خد الزهرات الصباح فهو صباح (٣)
وعنده التفات ٠٠ ففي قصيدة (صداح) خاطب البلبل طويلا ٠٠
ثم التفت في نهاية المطاف الى الحبيب قائلا :

وبعد فافعل ما تشاء في فتاك قشفتاك
حسبى فماذا تبتغى مقلتك (٤)

وله خيال مفوف :

يا جنة الدنيا وسيدة الربى
هذا رسول الشعر جاءك زائرا
ان شئت شق من الرياض صحافا
حتى تكون لعصميك أساورا (٥)

(١) قصيدة (حلم عربي) ص ١٠١ .

(٢) ص ٨١ .

(٣) ص ٤٠ .

(٤) ص ٤٠ .

(٥) ص ١١٤ .

ومن طرائفه في التعبير تشبيه سلسلة الحديث ومتسلسله بالدمع
يفجر بعضه بعضا :

وله حديث كالدموع اذا جرت
جذبت نظائرها من الأجفان (١)

وأسلوبه حيي الصوت فهو يهمس غالبا :

همست نجمة بأذن أخيها همس نغر الندى بمسمع ورد

والفاظه ممثلة موحية :

أنا ساهر وجيال لبن ان عليها الصمت حام
خلع الجلال على منا كبها مواهبه الجسام (٢)

ما أغناها مواهب الجلال .. أليس كذلك ؟

وان كنت تقع له أحيانا على ألفاظ غريبة كقوله :

والفصن والأوراق آذان له ماذا ترى فيها النسيم يتتب (٣)

وقوله :

أى رجا رقى لذين الطائرين قد رأيناك نشرت الدبقا (٤)

وقوله :

وكانها خطرت لها ابنتها وما تلقاه من ألم الطوى المقلاق

والفاظه صريحة تنم عنه ولا تدعك الى الخدس والتخمين ..
وما حاجتك اليه وأنت تقابل في ديوانه مثل هذه الألفاظ :

رهبة ، ناسك ، مبخرة ، هامة مطرق ، شمعة ... (٥)

(١) ص ٦٨

(٢) ص ٦٤

(٣) ص ٤٩

(٤) ص ٨٥

(٥) الألفاظ من هذه الأبيات التي انتظمتها قصيدة « زهرة الربى » :
صلى لك الوادى برهبة ناسك
وأبو الربى صنيق قام كشبعه
يتوقد النجم السننى برأسها
وضباب مبخرة وهامة مطرق
بيضاء تمنع فى السحاب وترتقى
فترى بوادى دمعها المترقق

القصيدة ص ١٢٦

انه شاعر مسيحي وتلك انطباعات المسيحية فيه المسيحية
القريبة اليها نحن أهل الاسلام ، والمسيحيون أقرب الناس مودة لنا ذلك
بأن منهم قسيسين ورهبانا وشعراء .

والشاعر من طبعه الأيجاز ، وهو يوجز أحيانا حتى لتحسب معانيه
وأمانيه رؤوس موضوعات تشير ولا تحيط .

وأسلوبه بعد هذا أسلوب تصويري يطربك في السرور كأن انشادم
غناء ، ويشجيك في الحزن فرط أسى . ومن صورته هذه الصورة التي
صور فيها يائسا من الحياة مهيدا بالحرمات فهو بهم يسوده ألا تغرب
الشمس عن يومه ليعيشه أعواما طوالا .

لا ، لا أنام ولا أذوق كسرى ان النهار مضى ولم يعد
لا ، لا أنام ولا أذوق كسرى أنا لست من يحيا لفجر غد
سلمى أحس النار سائلة بدمي وتجري معه في جسدي
وأحس قلبي فاغرا فيه للحب ، للذات ، للرغد (١)

وأسلوبه ألبس تغلب عليه ألفاظ معينة تكاد تكون لازمة لصاحبها
تذكر في عداد اللوازم . فالورد والروض والعطر (وأفعاله) والضحي
والدجى والنجوم والجدول وما يشاكلها من الألفاظ أسرة الطبيعة .
ومن هذه الألفاظ صاغ أناشيد غزله ، ومن هذه الألفاظ وصف مشاهداته ،
ومن هذه الألفاظ أرسل أغنياته . ومن هذه الألفاظ يعينها نظم دموعه
على أحبابه الذين راحو لغير آياب . فالجزء الأخير من ديوانه يتضمن
أربع قصائد ذرفها على هؤلاء لا تخلو واحدة منها من ألفاظه التقليدية
التي أشرت إليها .

ومن قصيدة (الشباب الذوى) :

أيام الورد الجنى اذا جف رحيق الجمال في وجناته
واذا كان عمره بعض يوم وتمشى الذبول في ورقاته
غاية الورد أن يضمخ هذا الجو بالمستحب من نفحاته
ما عليه ان جاز غايته القصوى وعد الزمان من سباعاته
أفئذب الهزار أن هنامت الأقفاس بالساحرات من آياته
توقظ الروض من كراه وتجلو بسنمات الضحى على أزهراته
غاية الطائر المغرد من دنياه أنشودة على هضباته

ما عليه اذا تعجل في الشد و وروى الخلود من نعماته
ومن قصيدته « شاعر يترك الخيال كسيحا » *

أيها الجدول الوديع الذى ينشر سر الحياة فى جريانه
أيها المدمع الحنون الذى لو لاه ما افتر مبسم عن جمانه
أيها المنشد الكثيب الذى تسمر زهر الدجى على تحنانه
أمن العدل أن تعفر فى التراب ويزهو ورد على أغصانه
أمن العدل أن تنوح على العشب ويشدو طير على أوكانه
هكذا الشاعر الشقى ، يغنى فيغذى الافراح من أحزانه
وجبران خليل جبران عنده :

ذلك الجدول الذى يملأ الوا دى اخضرارا والصفتين ازدهارا
تستحم النفوس فيه فلا تب رج الا جوانحها أطهارا
وتود النجوم لو سمر اللي ل فظلت لشجوه سمارا

ومن القصيدة الرابعة وهى دمة على الغريدة اسمهان :

يا منهل الفن قد غاضت متابعه ماذا فعلت بقلب المدنف الصادى
تلك الأصائل من ورد ومن حبيب وأنت فى صدرها ريحانة النادى
هل الغناء اذا جرحته آهته سوى عصارة أكباد لأكباده
كانه موجة بيضاء ناعمة يمشى الشراع بها فى بحره الهادى
تاوى الأغاريد منه حين ترسله الى وريف ندى الظل مداد
وينثر الروض سكرانا براعمه كالسنن الطيز شقت نصف منقاد(١)

ان ألفاظه كثياب بعض طوائف الشيعة لا تحلوك فى الحزن ولكنها
ترمز اليه وتعبّر عنه بالغلائل البيض ..

وبعد ، فان السيد بشاره الخورى شاعر لا يعوزه الحس اللفظى ،
والخيال الشعري ، والروح الشفافة التى تشيع الشعارية فى جوه ، وتمد
الظل من شعره فتهدأ عنده وتستريح ... ولعل هذه الراحة وذلك الفى
بتنعمه وسلامه ونداء هو الذى يجدونا أن نتمنى له المزيد من الطاقة
الشعرية ، وهو فى الحقيقة دعاء لنا بالمزيد من فنه الشعري الطروب ...

الشاعر في ديوانه

وفي الديوان غير هذا كله لمحات تكشف عن نفسه وتوهم إلى شخصه .

فقد لخص الشاعر تاريخه في هذه الأبيات ٠٠٠ في الحب والخمر
كابن مخزوم :

فتن الجمال وثورة الأقداح	صبغت أساطير الهوى بجراحي
ولد الهوى والخمر ليلة مولدى	وسيجملان معى على الواحي
قد عشت بينهما على نغم الصبا	كفراشة علقت ندى أقاح
أشتف روحها وأعطى مثلها	روحا وأسلم ليلتى لصباحي
روح كما انحطم الغدير على الصفا	شعبا مشعبة إلى أرواح
للحب أكثرها وبعض كثيرها	لرقى الجمال وبعضها للراح (١)

وهو يدعو إلى المتعة وانتهاج اللذات واهتبال الفرص :

فأنهب العيش لا أبالك نهبا	واطرح عنك وجهك المستعارا
لست مهما عمرت غير جناح	حط في الدوح لحظة ثم طارا (٢)

ويظوف بالشاعر أحيانا سانح من يأس فيتمتم .

الهوى والشباب والأمل المنشود توحى فتبعث الشعر حيا
والهوى والشباب والأمل المنشود ضاعت جميعها من يديا (٣)

(١) قصيدة « ولد الهوى والخمر » ص ٥٤ .

(٢) قصيدة « حكمة الدهر ان نعيش سكارى » ص ١٧٥ .

(٣) قصيدة (الهوى والشباب) ص ٢٢ .

هذا يومه . . . أما غده فهو بالطبع على غير يقين منه في هذا الجو
النفسي .

يشرب الكأس ذو الحجي ويبقى . . . لغد في قرارة الكأس شيئا
لم يكن لي غدا فأفرغت كأسى . . . ثم حطمتها على شفتيها
حتى الحب لم يعد يشتهي . . . بل لعله ضاق به في هذه الساعة
العصيبة التي مرت به . . . ألم يقل :

أيها الخافق المعذب يا قلبي نزحت الدموع من مقلتيها
أفتحتم على إرسال دمعي . . . كلما لاح بارق في محيا
لسنا نحن الذين حتمنا هذا يا شاعر الهوى والشباب . . . ولكن
الجانى هو ذلك الخافق الذى أنضب الدموع من مقلتيك والذى لا يدعك
تقول . . .

أنا العاشق الوحيد لتلقى . . . تبعات الهوى على كتفيها
حتى يدفعك دفعا نحو الحبيب بهماؤ مسحور ثم يستثبك أن
تتأججه :

اسقنى من لماك أشهى من الخمر . . . ر ونم ساعة على راحتها
أنا ماض غدا مع الفجر فاسكب . . . نغمات الحنان فى أذنيها
أن الشاعر رقيق حنان . .

ولكن هذه كلها عوارض من اليأس لا بد أن تعتري النفس الانسانية،
كل نفس . . . فاليأس حالة من حالاتها الكثيرة . . . ولكن الشاعر فى ديوانه
بعمامة بادى الطموح ، كبير الأمل ، متجدد الحياة ، وليس أبغض لديه من
أن تلمح له بالمشيب يوشع فوديه فانه لا يلبث أن ينهك :

دعنى وما زرع الزمان بمفرقى . . . ما كنت أدفن فى الثلوج صداحي
من كان من دنياه ينفض راحته . . . فأنا على دنياى أقبض راحى (١)
انه يحب الحياة رغم ما كابد فيها . . . نعم كابد فيها . . . بهذا يحدثنا
بيته :

سقيت مرارات الحياة فلم أجـد . . . كمثل الذى يسقيه من كفك الهجر (٢)

(١) قصيدة (ولد الهوى والخمر) ١٥٤ .

(٢) قصيدة (آه ما أحلى الحياة) ص ١٤٥ - ١٤٦ .

غير أنه صفوح . . . وفي بناء الفعل للمجهول دلالة واسعة فهو لا يريد أن يعين غريمه لما في هذا التعيين من معنى التشكي وهو راحة فيه ، مترفع عنه ، غير مؤمن به ، ولعل الزهد والترفع يرجعان الى عمق احساسه بما لا يقى . فهو لا يريد ذكره الا لما حتى لا ينكا اجترار الحديث المرح من جديد .

وفي الشاعرة سماحة تبدو لك في قوله :

خلق الله فؤادي من شعاع ودميوع
قيسا في وجه طه ذاب في جفني يسوع (١)
وهو يصور بذل الفنان وتضحيته في بيته :

ليس ما يشجيك مني نغمات في فمي
انها والهف نفسي قطرات من دمي
وهكذا كل فنان صادق يا صديقنا الشاعر .

وهو يغني لنفسه في جل اشعاره ويصدر عنها . فاذا ارادوه على خطة أخرى لم يتجاوب معها ولم على فعلتهم شعره .

ملاؤا كأسى خمرا ليس من خمري ودني
وشقوا عودي فغني وفؤادي لم يفن
أكما شاءوا غنائى وكما شاءوا نواحي
أفليس اللهو لهوى والجراحات جراحى (٢)
مرارة وسخرية وثعاف أيضا . . . اليس كذلك

ويمدح زحلة فتتمثل له القيم التي تكنها نفسه ويحلها رأيه فلا يلبث أن يقول :

هل تبنتين سوى النساء خوافرا أو تطلعين سوى الرجال مفاخرا
أن رق شعر كنت بيت قصيده أوزاق وجه كنت في الناظرا (٣)

هي هي قيم العربى التي تتمثل له غاية السعادة في عفة النساء وخفرهن ، وتلخص محامد الرجال في الصيف والقلم والكرم . . . وهي قيم ترجح بها عند الحساب كفة الميزان . . وما يمارى في هذا انسان

(١) قصيدة (سلى الليل) ص ١١٨ .

(٢) قصيدة « آه ما أحلى الحميا » ص ١٤٥ - ١٤٦ .

(٣) قصيدة « زحلة » ص ١١٤ .

لولا أن هناك قيما أخرى تضاف إليها ولا تحجبها : : : قيما للنسيان وللرجال على السواء .

وهو من سلام الفن يحب السلام ، وتقززه الحرب حتى يعشب على المستناء أن تقع الحرب على الأرض ولو أرادت لبطل وقوعها وانتفت بدواعيها .

رب . لو شئت لما سالت دما . أمرك الأمر فمن ذا ينسكرك ولما يتسم من قد يتما . ولما استقل السلاح العسكر (١) واذ يجد نفسه في مازق ، لا يجد الخلاص منه إلا بتحميل الانسان تبعة أعماله .

رب . ان نحن بلغنا الهرما أو يكن حنان الذي ينتظر من ولا كفران ذين الكوكبين . يخرقا الناموس أو يحترقا واسترح منا فتغدو بعد عين أثر لا يد أن يتمحقا (٢)

لا تصدق أن الشاعر يئس من الانسانية ولكنه حائر لهفان على مصيرها وحالها . . . حالها . . . حتى ليطلب لها الفناء من خالقها لا عن قلى في الحقيقة ولكن فرط اشفاق اذ ضاق ذرعا بالحروب وماسيها . . . كما ضاق ذرعا باطماع الانسان ونوازع الشر فيه . . . انه يتمنى على الله أن ارفع من قيم الانسان . . . و . . . وأعد خلقه .

واخلق الانسان خلقا راقيا واقتل البغض به والكبرياء واجعل الحب الها ثائيا واسجن المال ولا تبق الرياء وليكن كل امتياز لاغيا يخرج الناس على حد سواء (٣)

ألم أقل لك انه يستعطر السلام والحب للانسانية ؟

وفي شعره صلاة عميقة تغريك بالخشوع :

رب ان الكون مهما عظما هو في عينك لا يحسب شي قدرة ذلت لديها العظما كلهم فان وسبحانك حي (٤)

وبعد . فقد بقيت لي كلمة الشاعر وديوانه . . . ان ديوان (الهوى والشباب) انما هو شعر العمر شبابه وكهولته وما بعد الكهولة . . . وان كان الشاعر لا يزال متعلقا بالشباب يحس في قلبه حنة اليه

(١ ، ٢ ، ٣) قصيدة « من مآسى الحرب » ص ٧٧ - ٨٩ .

(٤) من قصيدة (من مآسى الحرب) ص ٨٧ - ٨٩ .

فيغنيه في شعره ، ويسمى به ديوانه . ولكن الأخطل الصغير جاوز الشباب ، وبلا الحياة والناس ، واختزن من التجارب ما كان يظن معه شموع الحكمة في ديوانه . لكن الديوان كما ترى يلذ ويروق ، لا ينصح ولا يعظ . وكأني بالشاعر زهد في التحدث عن تجاربه الخاصة ودلالاتها . ولعله قصد الى هذا لأنه يعرف من هذه التجارب التي أغفلها أن الحديث يشوق اذا تناول موضوعا مشتركا بين صاحبه وسامعه ، ويشوق أكثر اذا تناول موضوعا طليا تستروحه النفس وتطرب له ومن ثم احتفل الديوان بالهوى والشباب . وكل له هوى وله شباب حتى أولئك الذين أصبح الهوى بالنسبة اليهم ذكرى وردية ، والشباب وهما كطيوف الأحلام ، حتى أولئك الذين يقفون على عتبة الشباب والهوى يتنسمون الأخبار حالمين من أفواء الشعراء والفنانين . هؤلاء جميعا لا يحتملون الحكمة طويلا بل لعلمهم ينفرون منها أو يدعونها على الأقل الى حديث الهوى والشباب .

فالشاعر حكيم لبق في اختياره وان لم يصطنع الحكمة في شعره .

ولا يحتج هنا بما سنع منها ستوحا في شعره الاجتماعي فانما هذا وليد احساس اللحظة الراهنة لا التجارب الماضية .

أو لعل الشاعر أحس من نفسه أنه بطبيعته وامكانياته الفنية أقرب الى شعر الهوى والشباب ، ولا عليه فكل ميسر لما خلق له .

الشاعر وناقده

اختلفت الآراء حول الشاعر بشارة الخوري بين مادح وقادح . فابتعدت في جملتها عن النقد المجرد السليم . فما كان النقد الفني مدحا ولا قدحا ، ولكن ضوءا قويا تظهر فيه كافة جوانب الأثر الأدبي فيبدو المشرق اسطع لآء ، ويبدو المظلم محمدا للعين العادلة لا تجور ظلمته على ما يحيط به .

وعندما أردت الكتابة عن ديوان (الهوى والشباب) تنسبت ما كتب عن الشاعر فاذا بين يدي كتابان أصدرهما مواطنان له من لبنان . أما أحدهما فهو كتاب (الأخطل الصغير) للاستاذ نسيب نمر . . . والآخر كتاب (على المحك) للاستاذ مارون عبود الذي تناول عددا من الشعراء من بينهم بل من أوفرهم نصيبا من التفات النقاد - الشعراء بشارة الخوري :

قد حصلت على الكتابين ولكنني لمحيتهما جانبا قبل الشروع في الكتابة وتعمدت عمدا ألا أقرأهما إلا بعد دراستي الشخصية للديوان حتى لا يعلق بقلمى أثر منهما مهما بلغت قيمة هذا الأثر ، حتى أصدر عن رأيي الخاص بلا إحياء أو تأثير . .

والآن وقد انتهيت من دراستي الخاصة لديوان (الهوى والشباب) أبدأ فافتح الكتاب الأول وهو . . . (الأخطل الصغير) . . .

قرأت هذا الكتاب فاذا بالكاتب - ولو أن هذه ملاحظة عابرة - قد اتخذ منهجا غريبا عانيت منه وأحسب أن سنائر القراء أحسوا ما أحسبت به . . سار الكتاب على هذا المنهج .

- ١ - الرجل (نشأته)
- ٢ - شعر بشاره الأول (الشعر الثورى)
- ٣ - الشعر الغزلى •
- ٤ - شعره الحديث •
- ٥ - حياته •
- ٦ - الجمال فى شعره •
- ٧ - الصورة •
- ٨ - الشعر الوطنى •
- ٩ - بعض عيوبه الشعرية (العيب الفنى - العيب الموسيقى - ضعف بشاره)

١٠ - بين أيدي النقاد •

منهج مضطرب فنشأة الرجل وحياته من عادة التاريخ وطابع التأليف أن ينتظمها فصل واحد •

وشعر بشاره الأول وشعره الحديث ينتظمهما فصل تطور شعره مثلا ، وما دام شعره الأول ثوريا فمن براعة الحديث وسيلسته أن يتصل هنا الكلام عن الشعر الوطنى •

والحديث عن الصورة وعن العيوب الفنية كان الأخلق بالمؤلف أن يتكلم عن فن الرجل الشعرى بمحاسنه وعيوبه التى يراها على السواء • ولكنى على كل حال ليس موضوعى كتاب الأستاذ الناقد • وما ذكرته ان هو الا اشارة اقتضتها المناسبة فحسب • • والآن نستعرض ما وجهه الناقد الى الشاعر أو بعضه • وماه فى مستهل كتابه بالعمف والاستغناء والتناقض واستشهد بالبيت :

أن للفقر ثورة لو علمتم تسبيح الناس دونها فى الدماء

ثم بالبيت :

أيها الحاكم الذى راح يلهو أن فى اللهو لو علمت شقاننا

هنا يظن الناقد أن (فى صدر بشاره فكرة يداور للافصاح عنها ، كمن يخشى أمرا ما ، لأن من يتوعد ، بثورة تسبيح الناس دونها فى الدماء) لا يقول :

أيها الحاكم الذى راح يلهو . ان فى اللهو لو علمته شقانا
فهذه « اللو علمت » فيها الكثير من الذل . وكان الأجدر ببشارة
أن ينبه الحاكم وأسا ويخبره بلا واسطة (١٠٠) (٩) .

وعندى أن (لو علمت) هذه فيها الكثير من التبكيت والتأنيب
والمرارة لا الكثير من الذل كما ظن الناقد . وكيف يذل للحاكم وهو
يتهمه باللهو والعبث أى بغفلة الضمير . .

ان حكم الطغيان كالصخرة العاتية وأجبت لمن يريد الانقاذ شاعرا
أو كاتباً ألا يصرخ فى الصخرة أن تتزحزح بل يتحدث عنها أولاً بالرمز
والإيحاء والتلميح ، حيناً بالتصريح حتى ينبه الغافل ويوقظ النعسان .
فاذا سرى شعور الوعى صرخ فى الصالحين داعياً الى ازالة الصخرة الكنود .
ولكن يبقى بعد هذا حديثه الأول الموحى الموقظ الذى يشبه فى عمله
وأثره قطرة الماء ، تبدو ضعيفة ولكن الصخرة تخشعها اذ تذوب وتتفتت
من سقوطها عليها ولو قطرة قطرة . . هذا مثال .

والشاعر يجب أن يكون فنانياً ، ملماً بكل شيء ، قديماً وحاضراً
ومستقبلاً ، دارساً أصول التطور ، وطرق التقدم ، مستنتجاً من الماضى
خطوطاً للمستقبل ، ليستطيع أن يبنى نظريات ثابتة « (٢) » .

الناقد يطلب الى الشاعر أن يدرس أصول التطور . . . الخ .
لا . . . ليس من عمل الشاعر أن يبنى نظريات ثابتة أو متغيرة ، ان الشعر
دقيق من الشعور يصوره الشاعر بالألفاظ - أداة الأدب - وهذه المشاعر
التي تزخر بها النفس الحساسة متغيرة مثلها ومعرضة للحد والجزر
والتحول . . . وقد تجود النفس وتثر الشاعرية دون دراسة لأصول
التطور وطرق التقدم . . . وقد تدرس هذه الأصول وتلك الطرق وما تبص
بشيء . . .

« والشاعر ، أو الأديب ، أو الفنان ، يجب أن يكون مقياسه فى
اكتناجه ، لا كيف أنتج ، بل لماذا أنتج » . . . (٣) .

ان الفنان الصادق لا يدخل فى اعتباره كلا المقياسين ، لا يدخل فى
اعتباره (كيف أنتج) ولا (لماذا أنتج) . .

(١) كتاب « الأخطال الصغير » للسيد نسيب نمر ص ٢٣ .

(٢) كتاب (الأخطال الصغير) للسيد نسيب نمر ص ٢٥ .

(٣) كتاب الأخطال الصغير ص ٢٥ .

ان الفن لا يكون قطعة من الحياة الا اذا كان انبعاثا شخسيا صادرا
صدورا تلقائيا عن شخصية صاحبه نحو أمور معنوية .

ان الفنان كالطفل . . . هل الصغير حين يتكلم يقصد أن ينقل
الينا تجربة . . . كلا انه يشعر بشيء فيستجيب له استجابة صوتية .
كذلك الفنان فهو في انبعاثه التعبيري لا يقصد التوجه الى آخرين ولكن
الأصل في العمل الفني هو أن يعبر الفنان عن شعوره لنفسه . قد ينقله
الى آخرين ليشعروا بشعور مماثل . ولكنه اذا أدخل في حسابه رضاهم
او غضبهم ضعفت الفنية فيه .

والناقد ينعى على الشاعر سقوطه « عندما تقدم الى بحث فلسفة
الفقر » .

من ترى يشرح لي ذنب الفقير	او ترى يظهر لي فضل الغني
يرقان البؤس والعيش النضير	ويقيماني كذا في الكفن
أهذي حكمة الله القدير	لا وجل الله عن ذا القبن
انما هذان مثل البذرتين	نثرا في الأرض حتى انبثقا
فكسا المقدورتين النبتتين	هذه قبحا وهذي رونقا

يرى الناقد أن « هذه الفلسفة بعيدة جدا عن المنطق ، فالفقر ليس
قبحا ولا الغنى رونقا كروثق الورد ، وانما هي فروق غير طبيعية ،
ولا انسانية ، وهي ، فوق ذلك ، تناقض التطور الانساني نحو الحق
والحرية والخير والجمال . . » (١) .

ان فلسفة الفقر كما يقول الناقد ما على الشاعر أن يشرحها . . .
ان البؤس ألم من آلام الانسانية . والفن كثيرا ما يتناوله من الظاهر بل
هو يؤثر أن يتناوله تناولا عاطفيا . . تناولا حافزا موحيا مؤثرا . .
أما الفقر كظفر اقتصادي له أسباب وله نتائج فذلك موضوع آخر ،
ومنهج آخر واختصاص آخر كذلك . .

وقد عقد الناقد فصلا عن شعر بشاره الحديث . . فلم يشجع
الكلام عن تطور شعره . . . لقد قرر أن شعر بشاره رق كجسمه ، وأنه
تأثر بشيخه اسكندر العازار ، وأن تجارية أقتنته بحكمة عمر الحيام
والشيخ الرئيس ابن سينا فأطلقها صريحة سافرة .

حكمة الدهر أن نعيش سكارى فاجمعا لي الكؤوس والأوتار

(١) كتاب الاخطل الصغير ص ٣٦ .

ثم تذكر أنه قد نسي شيئاً فأخذ يتعامل على الشاعر متلدعاً بأبياته
في الزهاوى :

بغداد ما حمل السرى	منى سوى شبح مريب
جفلت له الصحراء والتفت	الكثيب الى الكثيب
وتنصبت زمر الجنادب	من قويعات الثقوب
يتساءلون وقد راوا	قيس الملوح فى شحوبى
والتمتمات على الشفاه	مفرجات بالنسيب
يتساءلون من الفتى العر	بى فى الزى الغريب
أنا دمعاً الأدب الحزين	رسالة الأدب المديب

وهذه الأبيات من الشعر التى حملها بشاره الى بغداد تدل على أنانيه
مكبوتة ونفسية عصبية ، وتيه يتجلى فى تساؤله :

« من الفتى العربى فى الزى الغريب » .. وهل للسقيم الضعيف
من مفاخر سوى التباهى بنحوه وسقمه وتضحيته فى تكبد المخاطر
لاظهار فكرة وإنشاء مجد ؟ » (١) .

أليس هذا تحاملاً صارخاً ؟ ان الرجل يريد أن يقول لبغداد أن
فجيعتها فى شاعرها أضرتة ولكن (الألم المديب) لم يقعد به عن
السعى الى بغداد للعزاء . فأى أنانية مكبوتة أو ظاهرة فى أبياته ؟ وأى
تفاخر فيها ؟ ان الرجل لم يخطر له فخر ولا مجد شخصى حين قال
ما قال : أخشى أن يكون الناقد قد اضطرب فى يمينه الميزان ..

(ويحمل بشاره بتيهه ومطامعه الى البلاد العربية فنقرأ حياته
من قصائده التى تعبر عن أفكاره ومكنوناته كأنه فى خلوة مع نفسه .

اسمعه فى ذكرى تنصيب رئيس جمهورية سوريا ١٩٤٦

ولد الهوى والخمر ليلة مولدى وسيمحلان معى على الواحى
قد عشيت بينهما على نغم الصبا كقراشة علقت ندى أقاح (٢)
أى تيه وأى مطامع ؟ وهل المشغول بالهوى والخمر يخشى منه تكالب
وأطماع ؟ .. انى على العكس أرى فى البيتين صدقاً فنياً . فالرجل طالما
تغنى بالجمال والحب ، طالما طرب للأنغام ممزوجة برنين الكأس فهو لم
يعد أن صور نفسه .

(١) كتاب « الأطلال الصغير » ص ٢٨ .

(٢) كتاب « الأطلال الصغير » ص ٣٩ .

وتلوح أحيانا بارقة رضا من الناقد عن الشاعر قيرى أنه (على الرغم من البديع المسيطر على « قصيدة الصبا والجمال » تبقى مسبوخة لأن قالب بديعها وافق ظاهره ، فالطباق في اللفظ والابدال وإيراد المقابلات كان طريقا خرج منه الشاعر بلباقة وأناقة (١) .

قتل الورد نفسه حسدا منك وألقى دماه في وجنتيك
ولو أن هذا لا يعد مدحا خالصا إذ أردفه بقوله : (فلولا هذه
الموسيقا وتلاعب بارع في البديع ، وتصوير رسام في الخطوط ، لكانت
قصيدته لا تعلق عن شعر المناسبات ، وربما كانت أدنى منه) (٢)
وعلى كل حال فقد استنفد السيد الناقد البقية الباقية من رضاه
ص ٩٣ حيث علق على البيت نفسه :

قتل الورد نفسه حسدا منك وألقى دماه في وجنتيك
« ان هذا النوع من البديع أصبح مبتذلا ، والشاعر يعلم ذلك ،
لكن الحال تدعو الى القول ، والجماعة المستمعة تجهل اللغة العربية ،
فعلى الشاعر اذن أن يجد المعانى الدائرة على كل لسان في ألفاظ موشاة
رقيقة فانتج هذا البيت الذى لا يختلف عن قول العامة « وجهها مثل
الورد » إلا بالفاظة الجدلة ، فدار على لسان عبد الوهاب فاذا به فى
قم كل منشئ (٣) » .

وغير خاف أن « وجهها مثل الورد » تشبيه قريب لخلق فيه ولكن
بيت الشاعر صورة مركبة وراءها خيال فهو اذن يختلف عن قول العامة
الذى احتج به الناقد . ولو أنى اختلف بدورى مع الشاعر ولكن من
ناحية أخرى . فصورته على ما فيها من عوامل الخلق لا أسكن اليها
لأنى لا أريد أن ألصق حتى بالورد الجميل القتل والحسد - ولو فى
الخيال - لا أريد أن نعتدى على مثال الصفاء والجمال والعطر والسحر .
حيث لو رسم الشاعر الصورة وقد جعل الورد الجميل يتهلل للجمال
فى الآخرين ويحييه فيهدى حسناء الشاعر شرابا ورديا فاغما ، أو يهب
خودها المنورة من دمة هبة وتقديرا . لا عن طريق القتل حسدا منها .

ويرمى الناقد الشاعر بالخوف (اذا لم يكن الخوف هو السبب فى
صمت الشاعر وضعف شعره الوطنى ، وجعله يمر بالحوادث من الكرام ،

-
- (١) كتاب « الاخطل الصغير » ص ٥١ .
 - (٢) كتاب « الاخطل الصغير » ص ٥٢ .
 - (٣) كتاب « الاخطل الصغير » ص ٩٣ .

إذا فما الذى جعله يقول فى عيد جلوس رئيس جمهورية سورية :

منى على وجه الرئيس تحية كتحية الأبطال للدواج
الذائد النفاح دون عرينه والقاذف المجتاح بالمجتاح (١)

انى أسائل الأستاذ الناقد هل الخوف أيضا الذى أنتج قصيدة
« الجابى » وفيها ما فيها من استنفار واثارة وثورة ؟

وقد عقد الناقد فصلا عن شعر بشارة الوطنى خرجت منه وطنية
الشاعر مشخنة الجراح .. وقد حشد فى هذا الفصل كثيرا من الأحداث
التي مرت بلبنان بملابساتها والوجوه التي ظهرت فيها . ولا أريد أن
أناقش هذه المحاولة التاريخية التي يعرفها أهلها وشاهدوها .. ولكن
نزعة التحامل التي تسود الكتاب تجعلنى أتردد كثيرا فى تصديق التهم
.. أنا أخشى أن أصدق لأول وهلة (أن بشارة من الرجال الذين كانوا
يخافون المستعمر يوم كان فى البلاد راتعا ، وعليها حاكما ، فيمالئونه ،
ويداورونه ، ولا يجرحون « كبرياءه » أما خوفا ورهبة ، وأما طمعا وضغفا ،
وأما .. حتى إذا ولى ، بخيله ورجله ، ونفوذ وظلمه ، أظهروا « بطولتهم »
وأفصحوا مقالتهم فإذا هم أقوياء بايمانهم ، أعزاء بعقيدتهم ، والله شاهد
على ايمانهم) (٢) .

ثم يتساءل الناقد (هل أسكته الآن ما أسكته سابقا ، فتجاوز عن
ثورة ١٩٢٥ ، وعن انتفاضات ١٩٣٦ ، حتى قال فيه الشاعر القروى :

يا شاعرا لا كالأخيطل عنده من كل أنواع البديع الأملس
الشام تشغلها الديموع وقلبه بالحب تشغله العيون النعس

ما باله ساكت ، أخرس ، لم يذكر الشباب الطامح الذى دفع دماءه
ثمن الاستقلال ؟

ألا يشاهد أمامه ، فى غدوه وطوافه ، ما يحرك شاعريته ، ويوقظ
قريحته ، وإذا كان الصراع الذى خرج منه لبنان ظافرا . باستقلاله
وجمهوريته ، لم يشحن قريحة الشاعر ، وإذا كان ثوب الشعوب
العربية اليوم - الى الانطلاق ، لم يحرك منه نغمة ، أو ساكنا . فأى
حادث يستطيع حك هذا الجوهى ؟ (٣)

-
- (١) كتاب « الأخطل الصغير » ص ٨٧ .
 - (٢) كتاب « الأخطل الصغير » ص ٨٨ .
 - (٣) كتاب « الأخطل الصغير » ص ٨٩ .

عتاب مقبول لو توفر لصاحبه الوقت الكافى لصقله وتلطيفه واختيار
الفاظه فلا يحزن الشاعر لأن المسئولية لا تحمل غير قدير ، والرجاء
لا يناط بغير جدير .

على أن بعض وقفات الناقد لا غبار عليها . فقد أخذ على الشاعر
قوله فى رثاء المغفور له أحمد شوقي (١) :

قف فى ربى الخلد واحترف باسم شاعره فسدرة المنتهى أدنى منابره
وعد هذه الصورة بعيدة عن الخيال والمنطق . والنقد هنا سليم
والبيت جنائى من جنائيات المبالغة الموسوم بها شعر المديح فى الأدب
العربى .

ويسجل الناقد للشاعر صورة أخرى ولكن فى غير انصاف هذه
المرّة اذ يرى قول الشاعر :

وكان بالقرب منها كوكب ذكر يصغى فلما رآها سبّح الله
وراح يقسم أن لا نام ليلته الا على شفّيتها لاثما فاما

يرى الناقد فى هذين البيتين (صورة نافرة بعيدة عن الألوان
الفنية لانه مهما بلغ جمال المرأة فلن يكون منارة ، ومهما هامت المخلوقات
بالجمال لا تستطيع ايجاد كوكب يصغى الى الحديث ، ووصف الجمال
فيسبّح الله ويقسم على السهر حتى يبلغ أمنيته ، ولاسيما عندما نجعل
من الكواكب « ذكرا وأنثى » (٢) .

وهذه حملة أخرى لأن الصورة على ما فيها من شطحات الخيال على
عادة القدامى الذين يلمحهم بشارة الخورى ، الا أنها لا تصل الى حد
النفرة . وأسباب الناقد متعسفة لأن تشبيهات الشاعر قصد بها المجاز
لا الحقيقة ولو اتخذنا رأى الناقد مقياسا نقيس عليه لسقط معظم الشعر
العربى ان لم يكن كله .

ومن عجب أن هذه الثلمات كلها لم ترد الناقد عن اعتبار بشارة
الخورى (شاعر العرب) (٣) وكيف ؟ سله هو . فعنده لا عندى
الجواب .

وقد عاب الناقد على الشاعر تكرار الصور لأنه فى تقديره يفقد

(١) كتاب « الأخطل الصغير » ص ٩١ .

(٢) الأخطل الصغير ص ٩٤/٩٣ .

(٣) الأخطل الصغير ص ٩٤ .

قصائده الغرار رواءها (ان التكرار واستعادة الصور والألفاظ في غرار قصائده يفقدها رواءها وجمالها كما يلبس الفنان صفة « ضيق الخيال والضعف الفني » (١) .

ومع ما ينطوى عليه هذا القول من بعض الحق اذ خصب النفس خصب الخيال ، متجدد دائما ، الا أن تكرار الصورة قد يرجع الى عامل نفسي . فقد تكون هذه الصورة أو تلك لها ذكرى خاصة أو أثر خاص في نفس الشاعر فهو يكررها لينفض عنه ألمها هادفا بهذا الى راحة نفسية ، أو يكرر ليستعيد جوها المنعم . ومن النوع الأول الصورة التي استشهد بها الناقد (٢) فقد كرر الناقد في مواضع متفرقة من كتابه أن الشاعر مريض ضارع الجسم . حزين بل قال بالحرف الواحد وهو بصدد صورة « المسلول » « لكن قصيدة المسلول لم توضح لتصوير اللهو والحمر . بل لتصوير المرض والاعياء ، والرهبة والوحدة ، لقد وضعت لتكون صورة ناطقة للشاعر ومرضه ، وضعفه ، وانفراده ، ووحدته ، عنوانا للنفس الحزينة ، وأشياء أخرى .. » (٣)

« أشياء أخرى » هذه هي التي أعنيها .. ان الشاعر اذن لا يكرر لمجرد التكرار فقط ولكن وراء هذا أسباب ذكرت بعضها .. والباقي يتمثل في قول الناقد « .. أشياء أخرى ... » .

على أن الناقد نفسه يجنح في هذا الكتاب الى التكرار فيبدي ، ويعيد في مأخذ له على الشاعر .. وهو حتى ليس تكرارا لنوع واحد ، ولكنه المأخذ عينه يكرره في صفحات متفرقة من الكتاب .. فقد عاب الناقد مثلا على الشاعر قوله :

ومن السمع ما يهزك لأعطب ومنه المدممات الهوام
في الصفحات ٨١ ، ٩٩ . الخ .

وعند الناقد أن (أكبر عيوب بشارة هي غلوها في تقدير نفسه ، لأن هذا التقدير يفقده الميزة الفنية ويحط به عن سدة الأبراج العاجية ، ألا فاسمعه يمدح نفسه (٤) :

ذرني وما زرع الزمان بمفرقي ما كنت أدفن في الثلوج صداحي

(١) الأختل الصغير ص ٩٨

(٢) الصورة المشار اليها صورة السراج المتهاوت الفؤاد والليل المشفى .

(٣) الأختل الصغير ص ٤٧ .

(٤) الأختل الصغير ص ١٠٣ .

أو قوله :

ورب أخ رأى فرجا بذمي فقلت رضيت ذمك لو شفاكا
أطمع أن تحلق للثريا فتطفئها عدمت اذا حجاكا

أترى غلوا في تقدير النفس ؟ واذا كان :

ذرنى وما زرع ..

غلوا فماذا يسمى السيد الناقد قول المتنبي - وهو شاعر أثير كما
يبدو من حديثه عنه في كتابه .. بماذا تسمى قول المتنبي :

وما الدهر الا من رواة قصائدى اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا

أما البيتان الآخران فإن المسألة فيهما نفسية . ان الشاعر يرد على
غريم ينتقصه .. وان أشد الناس تواضعا اذا استهين به انتفض والحق
المهانة بصاحبها وهو ما يسمونه فى علم النفس « الاسقاط » ثم يستعلى
بصفات ينسبها الى نفسه لأن فيها ما يشرف به ، أو لأنه يحب أن يوصف
بها . وقد حمل الناقد نفسه البيتين محمل العذر للشاعر بعد قليل
أى فى ص ١٠٤ حين قال :

(نقدنا احتكرته عصبية لا عمل لها سوى حرق البخور لأفرادها
ومهاجمة كل غريب عنها .

هذه الأقلام لاحقت بشارة كما لاحقت سواه فكان أمره معها قوله :

ورب أخ رأى فرجا بذمي فقلت رضيت ذمك لو شفاكا
أطمع أن تحلق للثريا فتطفئها عدمت اذن حجاكا

ومع أن الناقد يقول فى حديثه عن عيوب بشارة (فأننا نكتب عن
الفن فيحتّم علينا واجبا اظهار الصور الشعرية البدعية والقيحة سواء
بسواء ..) (١) الا أنه لم يتكلم عن محاسن الشاعر .. فهل النقد
الفنى اظهار عيوب فقط ؟؟

صه .. يبدو أن الناقد الفاضل قد أحس فجأة أنه قسا على الرجل
فشام انصافه .. ومن ثم قرر فى آخر كتابه فى سمة المعترف ان شعر
بشارة (لم يعرف قدره ولم تعرف قيمته بل بقى كالأرض البكر لا يعرف

(١) الأخطل الصغير ص ٩٠ .

غنىها من سمينها ، وما على الراغب فى دراسته سوى تناوله بأقلام صحاح
وتجرد وايمان (١) .

وهو رجوع الى الحق يحمده لصاحبه .

وعندى أن هذه الصفات التى تمنها الناقد ، صفات الصحة
والتجرد والايان تتوافر أكثر فى البعيد منها فى القريب ، لأن الأول
لم يختلط فهو لم يتأثر بما ينجم عن الاختلاط والمعرفة القريبة من
احتكاك وتصادم منافع واهواء الوسط المحيط به وفيه العبود
والصديق . ومن ثم يتنزه حكمه عن الغرض ؛ ويبرأ من الهوى ، ويسلم
من التعلات ، وينجو من التعصب ، ويسمو على الانتقاص .

للبعيد ليس أمامه الا الأثر الأدبى فمأخذه فى مواضع الضعف . .
وهتافه فى مواضع السبق أدنى - ولو الى حد بعيد - الى العدالة وأشباه
بالنقد الفنى .

ومن هنا أردت كمصرية أن أضيف الى رأى بعض أبناء لبنان فى
شعر الأختل الصغير ، رأيا محايدا متجردا مبالورا للقيم الفنية
والانسانية فى ديوان الرجل فى غير افراط وتفريط .



أما الكتاب الثانى « على المحك » فقد أوسع صاحبه ، الشاعر نقدا .
كان الأستاذ مارون عبود مع الشاعر بشارة الخورى كعادته مع منقوديه
يتندر عليهم متوسعا فى التندر والسخرية حتى كاد جده أن يغيب فى
طيات سخره ، وحتى كان نقده على صواب فى بعض آرائه ، يحمل
الطابع الشخصى . وهو طابع يتهم دائما بالغرض ويتعارض ولو فى
الصورة على الأقل . . مع المنهج العلمى فى النقد الفنى .

وقد يكون عذر الأستاذ مارون عبود أن كتابه « على المحك » قام
على مقالات متفرقة نشرت فى الصحف . . والمقالة الصحفية ثرثرة بليغة
ولا تزيد . . فلما جمعها فى كتابه (على المحك) تخلف عنها العذر
الأول وأصبح ينظر اليها ككتاب . . وهنا ظهرت لها عيوب أخرى منها
التكرار والفضول وضياح المنهج ، وهدر النقد .

ولست بهذا أنتصر للشاعر . أو أنتقص من الناقد . . فهما
صنوان فى وطن يجمع بينهما - وإن اختلفت آراء - الكثير من وشائج

(١) الأختل الصغير ص ١١٢ .

القرب حين تبعد بي على الضفاف الخضراء في مصر حدود من صنع الطبيعة
أو صنع الانسان .

ان حديثي عنهما يحدوه العامل الادبي وحده بحيث لا أتردد عن
تقدير الحسنات عند كل منهما أو مناقشة نواحي الضعف .

ولست بهذا ألوم الناقد لتقدمه . . فالنقد توجيه أمين للأدب . .
وما ذكره من مأخذ ذكرت أنا نظائر لها توخيا للامانة العلمية التي
لا تهون الجيد ولا تغفل الضعف ، بل تعطى لكل ناحية ما تستحقه
من الدرس والاحتفال .

ولكن ما اختلف مع الأستاذ مارون عبود فيه هو التماهي في
السخر والامعان في التندر حتى ليكاد المنقود أن يمسح أو يصير
أضحكة .

وقد لاحظت حين قراءتي كتاب (على المحك) أن معظم ما أورده
الأستاذ مارون عبود وتناوله بالنقد من شعر بشارة الخوري لم يرد بديوان
(الهوى والشباب) . فهل نحاه الشاعر زهدا فيه ، أم أسقطه تحت
ضغط النقد وهو غير يسير ؟ على أي حال أن الشاعر لم تعزه اللباقة
والذوق حين اختار لديوانه .

صور

رونم ساعة على راحتينا
نغمات الحنان في اذنيننا

هم سقوه الهوى وهم أسكروه
ذلك الصدم بعد ما عللوه
مقلتناه لكن تلعثم فوه

م وكل ما في الكون نسام
يقظي تجول مع الظلام
مت فوق طيات الغمام
ب النمل في ملمس الرخام
ب كاد يتلفه السقام
م وظل يخفق للغرام

من ترب غدرة في اذل مكان
شعراء غدرة في الزمان الغاني
وتطيب نفس « كثير » بياني
حيث الهوى ضرب من الايمان

مناجاة رفيق

اسقني من لماك اشهى من الخمر
أنا ماض غدا مع الفجر فاسكب

حنين

أترى يذكرونه أم نسوه
عللوه فكان أقتل شيء
قلت أهواك يا ملاكي فردت

سهاد

أنا ساهر والكون نا
نام الجميع ومقلتي
حتى نجوم الأفق نا
صمت يقزك فيه خ
ما كان يخفق غير قد
قلب تاكله الفسرا

شاعر الهوى والشباب

أنا وقد أبناء الصنابة ساجد
استنزل الوحي الذي طفرت به
فتسوغ في أذني « جميل » رنتي
مهذ الغرام ومشرح الغزلان

ويتعانق الروحان فيه صياغة
فاذا سمعت بعاشقين فقل هما
ما دار ثم سوى الحديث كأنه
سل عروة بن خزام عن غصص الهوى
تحنان ساجدة الحمايم في الضحى
وله حديث كالدروع اذا جرت

صورة لعليل الرئة

رجل هزيل الجسم منجرد
متواصل الأنفاس مطرد
متكسر الجفنين من سهد
كسراج كوخ نصف متقد
يبدو من الوججات في خدد
ورق الحريف أصيب بالبرد
منديله قطع من الكبدة
واذا ترق تقول بعد غد

هذا الفتى في الأمس صار الى
متلجلج الألفاظ مضطرب
متجعد الحدين من سرف
عيناه عالقتان في تفق
أو كالحباحب باخ لامة
تهتز أنمله فتجسبها
ويمج أحيانا دما فعلى
قطع تقول له ، تموت غدا

حنين

أنا لا أزال لهم محبا ذاكرا
وعطفتهم لو كنت أعطف هاجرا
فأكاد أرشفه لى ومحاجرا
ذكروا له الماضي فمل الحاضرا

قل للالى احببت زحلة فيهم
لبكيتهم لو كنت أملك أدمعا
يتمثل الأمس البعيد لظاوى
ان السنين دقائق لمتيم

سر الكأس

ويا أخا الوتر المكسال لا تنم
وخدر العصب المحموم بالنغم
وقد يغنى الفتى من شدة الألم

يا صارف الكأس عنا لا تظن بها
أدر علينا من الصهباء أفتكها
قد يشرب الخمر من تغلو الهوم به

موكل بالهوى :

أفى كل يوم هوى أول
وفى كل ثغر لنا منهيل
أنتركه بعدنا يذبل
وتبنا فما صفق الجدول

كفانى يا قلب ما أحمل
أفى كل وجه لنا مرتع
عذرتك يا قلب من للهوى
سكتنا فما غرد العندليب

تقاليد الشراب :

بدمائه بوركت من مسفاح

يا ذابح العنقود خضب كف

أنا لست أرضى للندامى أن أرى كسل الهوى وتثاؤب الأقداح
أدب الشراب إذا المدامة عربت فى كأسها أن لا تكون لصاحي

دعوة جريئة :

حكمة الدهر أن نعيش سكارى فاجمعا لى الكئوس والأوتار
واجلوها دنيا ممتعة الحسن كما تجلوان احدي العذارى
هى كالورد تحمل الشوك والعطروان خين اللبيب اختار
كلنا كلنا نجادبها الوصل ونجنى اللذائذ الأبكاء
انما ذاك يرفع الصوت فى النوا دي وهذا يلقي عليها ستار
فانهب العيش لا أبالك نهبا واطرح عنك وجهك المستعار
لست مهما عمرت غير جناح حظ فى الدوح لحظة ثم طارا

أسمهان :

هل الغناء اذا جرحته أهتاه سوى عصارة أكباد لأكباد
كانه موجة بيضاء ناعمة يمشى الشراع به فى بحره الهادى
تاوى الأغاريد منه حين ترسله الى وريف ندى الظل مداد
وينشر الروض سكرانا براعه كالسن الطير شقت نصف منقاد

الجابى :

من الناعب قبل الفجر من هذا على الباب
أعيد القبح من قبح بأظفار وأنياب
أقبل الشمس فى الآفا ق والعصفور فى الغاب
وما زار الكرى جفنى ولم تخلقه أهداى
ولا غذيت أطفالى سوى هنى وأوصابى
فراشى يا وراك الل له منه بعض أعشابى
وهذى كوبتى الفخا ر ما فيها سوى صابى
فما تبغيه فى بابى ومن أنت ؟ أنا الجابى (١)

(١) لقد رقت عند هذه القصيدة وقفة مستأنية فى الصفحات السابقة ولكن نسي
لا زالت ممتلئة بها ... ومن ثم ترانى أعود إليها مرة أخرى فأعرضها بين المختار من
معمره لما فيها من صدق الواقع وصدق الفن وبشائسته وحرارة الروح فيه .

من مؤلفات الكاتبة :

- من عبقرية الاسلام
- أعيدوا كتابة التاريخ
- شخصية مصر
- النيل في الأدب المصرى
- خصائص الشعر الحديث
- الجمال والحرية والشخصية الانسانية فى أدب العقاد
- أدب المازنى
- أحمد رامى (قصة شاعر وأغنية)
- أم كلثوم وعصر من الفن
- الأدب والحضارة
- قلم أدبية
- مشروع هضبة الأهرام آخر اعتداء على مصر
- أزمة الشباب وهموم مصرية
- الاسلام وانسان العصر « العودة الى المنبع »
- رسائل الى ابنتى
- القاهرة فى حياتى
- رحلة الشرق والغرب « الانسان والزمان والمكان »
- التراث والحضارة
- فى بلادى الجميلة
- فى أدب الرافعى
- صناعة الجهل
- قبة الامام الحسين (قضية حكم)

فهرس

٣	مقدمة
٧	ابراهيم ناجى
٩	مقدمة
١١	لمحة من حياة
٢٢	ناجى الشاعر
٢٨	شاعر الغزل
٥٦	شعر ناجى
٧٠	شعر المناسبات
٧٨	فن ناجى الشعرى
١٠٥	الفنان فى ناجى الشاعر
١١٧	صور
١٢١	شعب وشاعر أبو القاسم الشابى
١٢٣	الأهداء
١٢٤	مقدمة
١٢٧	القسم الأول « لمحة من حياة »
١٢٨	حياته من شعره
١٤٩	شاعر الألم
١٦٠	قلب شاعر
١٦٧	الحياة والموت فى شعر الشابى

١٨٣	• • • • •	القسم الثانى : « فن الشاعر »
١٨٤	• • • • •	ديوان الشاذبى
٢٠٧	• • • • •	الطبيعة فى شعر الشاذبى
٢١٧	• • • • •	شعب وشاعر
٢٣٠	• • • • •	الشاذبى والمهجر
٢٤٩	• • • • •	من أغنائى الحياة
٢٥٥	• • • • •	المراجع والمصادر
٢٥٧	• • • • •	الأخطى الصغىر
٢٥٩	• • • • •	General Organization Of the Alexandria Library (GOAL) مقدمة
٢٦١	• • • • •	<i>Bibliotheca Alexandrina</i> شاعر الوصف
٢٦٤	• • • • •	الطبيعة فى شعره
٢٧٤	• • • • •	شعر الجمال والغزل
٢٨٠	• • • • •	القصة
٢٨٥	• • • • •	المجتمع والوطن فى شعره
٢٩٢	• • • • •	أسلوب الشاعر فى ديوانه
٢٩٨	• • • • •	الشاعر فى ديوانه
٣٠٣	• • • • •	الشاعر وناقده
٣١٥	• • • • •	صور

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٧/٢٢٦٨

ISBN - ٩٧٧ - ٠١ - ١٢٧٦ - ٣

إبراهيم ناجي أبو القاسم الشابي الأخطل الصغير

شعراء ثلاثة التقوا في الحياة وفي هذا الكتاب ، على الغناء
للجمال في الطبيعة والإنسان . وقد وقفت الدراسة في كل
ديوان من دواوينهم بالتحليل والاستشفاف ، على الانسان ،
في الشاعر . . . وعلى الشاعر بين فنون القول ، وعلى دوره في
حياة الفنون والناس .

وفي عصر محموم يتصارع بعض أهله ، في شرق وغرب ،
على المادة إلى حد الخروج على الإنسانية والقيم حتى تاجر
فأقدو الضمير في اللين الملوث . . . يبيع المتمدينون الموت
وهم يعرفون . . . يعرفون كل شيء إلا حق الحياة وحرمة
الإنسان على أي أرض وفي أي مكان .

في مثل هذا العصر ، تشتد الرغبة في العودة إلى التقاء يلود
به الإنسان المكروب . . . العودة إلى الفنون . . . إلى دنيا أخرى
يفيء إلى برد الظلال بعد وقدة السعير ، لا الهجير .
وهذا الكتاب واحة راحة .

ولمحة جمال . .

ونفحة صفاء .